

تَهْدِيَةُ النَّفْسِ
وَجَهْدُ التَّائِبِ
مِمَّا أُحْتَبِ مِنْ الْأَبَاطِلِ وَرَدَى الْأَفَاوِيلِ

عَبْدُ الْقَادِرِ شَيْبَةُ الْحَمْدِ

عُضُوهُيَّةُ التَّدْرِيسِ بِقِسْمِ الدِّرَاسَاتِ الْعُلْيَا
بِالْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ سَابِقاً
وَالْمُدَرِّسُ بِالْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ

الْجُزْءُ الْخَامِسُ

③ عبد القادر شيبية الحمد، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة فهد الوطنية أثناء النشر
شيبية الحمد، عبد القادر
تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به الأباطيل وردىء
الأقاويل./عبد القادر شيبية الحمد-ط2-..الرياض، 1432هـ
٦ مج.

ردمك ٢-٧٧٥٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٧-٧٧٥٥-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج ٥)

١- القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان
ديوي ٢٢٧/٦ ١٤٣٢/٦٠٨٣

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦٠٨٣
ردمك ٢-٧٧٥٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٧-٧٧٥٥-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج ٥)

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ
الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

مؤسسة علوم القرآن

موبايل: ٠٠٩٦٦٥٠٥٦٥٣٩٩ - بيروت تليفاكس: ٠٠٩٦٦١/٦٤٧٨٣٢

دمشق هاتف: ٠٠٩٦٦٢٢٤٩٩٠ - ص ٢٢٣٨٤٩٠ ب ١٣٢٧٧

E-mail: uloom.alquraan@gmail.com

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

بعد تقرير المشركين وتوبيخهم على اتخاذهم أصناما آلهة لا تضر ولا تنفع وهم يدَّعون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام وأنهم يحبونه، شرع هنا في إيراد ذكر إبراهيم عليه السلام وما كان من تقريره وتوبيخه لمن يتخذ أصناما آلهة مبينا أنهم في ضلال مبين حيث يقول عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ نص صريح على أن آزر هو والد إبراهيم عليه السلام، وقد زعم بعض أهل الأهواء أن آزر لم يكن أباً لإبراهيم عليه السلام بدعوى وجوب أن يكون آباء الأنبياء مسلمين وهي دعوى مردودة بصريح القرآن في هذا المقام، كما تردُّها السنة الصحيحة الصريحة الثابتة عن رسول الله ﷺ فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وعلى وجه آزر قترٌ وغبرةٌ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تَغْصِنِي، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون فأني خزي أخزي من أبي، الأبعد، فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة

على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجلِك؟ فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار اهـ والذبيخ بكسر الهمزة المعجمة بعدها ياء ثم خاء معجمة هو ذكر الضبياع الكثير الشعر، والاستفهام في قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ للتفريع والتوبيخ والإنكار، ومعنى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ أي أتجعل لنفسك أوثانا تعبدوها وتخضع لها وهي لا تضر ولا تنفع؟ ومعنى قوله: ﴿إِنِّي أُرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي إني أعلم أنك ومن سلك مسلكك من قومك تائهون عن الحق، غارقون في بحار الضلال والضبياع والحيرة والجهل، لا يشك في ذلك من له أدنى مسكة من عقل، فإنكم تعبدون ما تنحتون. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ أي وكما آتينا إبراهيم رشده من قبل ومنحناه البصيرة في الدين فعرف ما عليه أبوه وقومه من الضلال المبين بُيِّنَ له وجه الاستدلال بآيات الله الكونية في السموات والأرض على أنه لا إله إلا الله ولا معبود بحق سواه ليكون عالما وموقنا، ولا شك أن علم اليقين هو أعلى مراتب العلم، وقد ساق الله تبارك وتعالى هنا صورة من صور دعوة إبراهيم عليه السلام التي سلكها في دعوته قومه إلى الله عز وجل حيث اتخذ هذا الأسلوب الحكيم الذي تنقطع به الشبهة وتتضح به الْمَحَجَّةُ، ويستدرج به الخَصْمَ ليعرفوا جهلهم، ويستبين خطوهم ولا يتأتى هذا الأسلوب إلا من خبير بمعرفة ما عليه القوم حتى يتمكن من اجتثاث أصول باطلهم، وقد كان قوم إبراهيم عليه السلام من عبدة الكواكب، ولذلك ناظرهم عليه السلام فيها واستدرجهم ليقم عليهم الحجة بأنهم ليسوا على شيء في عبادتها، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ أي فلما تغشاها الليل وستره أبصر نجما من النجوم التي يعبدوها قومه قال إبراهيم عليه السلام لقومه:

أهذا يصلح لأن يكون ربًّا يُعْبَدُ وأصفه بأنه ربي؟ وحذف الاستفهام في مثل قوله: هذا ربي سائح شائع في اللسان، وهو استفهام إنكار وتوبيخ لقومه عبدة الكواكب وقد جاء حذف حرف الاستفهام في مواضع من القرآن الكريم ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ أي أفهم الخالدون. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي أنموت ونحيا؟ وكذلك قوله تبارك وتعالى ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي أنموت ونحيا؟ ومن أمثلة حذف الاستفهام مع كونه مراداً قول أبي خراش الهذلي: رَقُونِي وَقَالُوا يَا خَوِيلِدُ، لَا تُرِغْ فَقُلْتُ، وَأَنْكَرْتُ الْوُجُوهَ هُمُوهُمُوهُمَا يعني: أهُمْ هُمْ، ومن ذلك أيضاً قول أوس بن حجر أو الأسود بن يعفر النهشلي:

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنْ كُنْتُ دَارِيَا شُعَيْثَ بْنِ سَهْمٍ أَمْ شُعَيْثَ بْنِ مِنْقَرٍ
بمعنى أشعيث بن سهم، ولا شك أن توجيه خليل الرحمن الإنكار بأسلوب الاستفهام هو أسلوب حكيم في زلزلة قواعد باطلهم، وله أثر كبير في نفوسهم حيث يلفت انتباههم إلى النظر فيما يرشدهم إليه دون تهيجهم عليه، ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَفْلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ أي فلما غاب هذا النجم قال إبراهيم عليه السلام أنا لا أحب هذا الآفل ولا يتعلق قلبي به، بل أحب الباقي الدائم الذي لا يفنى ولا يزول وهو الله الحي القيوم، والمراد أن يوجه هؤلاء المشركين إلى أنهم على خطأ في عبادة هذا الكوكب لأنه إنما يعبدونه ويضرعون إليه عندما يكون مشاهداً ظاهراً فإذا غاب عنهم لا يوجهون إليه شيئاً من عبادتهم وإن كانوا نصبوا له أصناماً وهياكل وتماثيل، وهم يعلمون أنها ليست هي حقيقة الكوكب وإنما هي تمثال له، فبيّن إبراهيم عليه السلام بذلك أن المستحق للعبادة هو الله الحي القيوم القائم على كل نفس بما كسبت الذي يستجيب لعباده في كل وقت،

قال ابن تيمية رحمه الله : فإن الأفل هو الذي يغيب تارة ويظهر تارة فليس هو قائما على عبده في كل وقت ، والذين يعبدون ما سوى الله من الكواكب ونحوها ويتخذونها أوثانا يكونون في وقت البزوغ طالبين سائلين وفي وقت الأفول لا يحصل مقصودهم ولا مرادهم فلا يجتلبون منفعة ولا يدفعون مضرة ، ولا يتفعلون إذ ذاك بعبادة ، فبيّن ما في الآلهة التي تُعبد من دون الله من النقص وبيّن ما لربه فاطر السموات والأرض من الكمال بأنه الخالق الفاطر العليم السميع البصير الهادي الرازق المحيي المميت اهـ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهْدني رَبِّي لَأَكُونَنَّ من القوم الضالين ﴾ أي فلما أبصر إبراهيم عليه السلام القمر طالعا قال : أهذا يصلح لأن يكون ربا يعبد ، فلما غاب القمر نبّه إبراهيم عليه السلام قومه إلى أنه لا يجوز لهم أن يتعلقوا بهذا الذي غاب عنهم ، وعليهم أن يطلبوا الهداية من الله وحده لأن نواصي جميع الخلق بيده ، فمن لم يهده الله فلا هادي له ، وكان من القوم الضالين . ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾ أي فلما أبصر إبراهيم الشمس طالعة قال : أهذا يصلح أن يكون ربا يعبد؟ هذا أكبر من القمر والنجم وأبرز ظهورا وأثرا ، وهو عليه السلام بهذا الأسلوب الواقعي يضع قومه أمام برهان لا يستطيعون الانفلات منه إذا ما شاهدوا الشمس وهي تغرب وتغيب ولذلك قال : ﴿ فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ . أي فلما غابت الشمس جرّد خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام الدعوة إلى توحيد الله عز وجل وإخلاص العبادة له وحده تبارك وتعالى فقال : يا قوم إني بريء من عبادة أصنامكم وأوثانكم وأندادكم وموالاتهم وبذل أي حب هن ، فكيدوني بها جميعا ثم لا تنظرون فإنها لا تضر ولا تنفع وإنما وجهت وجهي وجعلت قصدي بعبادتي لله

خالق السموات والأرض وما فيهما ومخترعهما على غير مثال سابق حالة كوني حنيفاً أي مائلاً إلى الدين القيم ولن أكون مشركاً أبداً . وهذا أسلوب في المناظرة رفيع قال ابن كثير رحمه الله : والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه ، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فَبَيَّنَ في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وَبَيَّنَ في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة ، وهي القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل ، وأشدهن إضاءةً وأشرفهن عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة ، فَبَيَّنَ أَوَّلًا صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية فإنها مسخرةٌ مقدرةٌ بِسَيْرٍ مُعَيَّنٍ لا تزيج عنه يمينا ولا شمالا ، ولا تملك لنفسها تصرفا بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرةً لما له في ذلك من الحُكْمِ العظيمة ، وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه ، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال ، ومثل هذه لا تصلح للإلهية ، ثم انتقل إلى القمر فَبَيَّنَ فيه مثل ما بَيَّنَ في النجم ، ثم انتقل إلى الشمس كذلك ، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿ قال يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾ أي أنا بريء من عبادتهم وموالاتهم فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعا ثم لا تنظرون ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ أي إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه اهـ .

قال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ، قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ، وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ وكيف أخاف ما أشركتكم ولا تخافون أنكم أشركتكم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا، فأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ. وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، إِنْ رَبُّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.

بعد أن أقام إبراهيم عليه السلام على قومه الحجة البالغة وعجزوا عن الرد على ذلك وانقطعوا، ذكر عز وجل هنا أنهم لما انقطعوا لجئوا إلى تخويفه من بطش آلهتهم به حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ، قَالَ: أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ، وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾، إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ومعنى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ أي وجادله قومه وخاصموه بالتهديد لا بالبرهان حيث زعموا أنهم يخافون عليه من أن تصيبه آلهتهم بسوء لبراءته منها وكفره بها، يقال حاجه أي نازعه وجادله وخاصمه، ويقال حاجه فلم يحججه أي فلم يأت بحجة ولا برهان ويقال حاجه فحججه أي خاصمه فغلبه وأقام عليه الحجة، ومنه ما جاء في صحيح البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: حَاجَّ موسى آدم عليه السلام فقال له: أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني أو قدره على قبل أن يخلقني. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فَحَجَّ آدمُ موسى. أي فغلب آدم موسى في هذه المحاورة. ومعنى قوله عز وجل: ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ، وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي وقال إبراهيم عليه السلام

قاطعا لأطماع قومه في تهديدهم له بتخويله من آلهتهم ومحاولة صرفه عن
 توحيد الله : أتجادلونني في أنه لا إله إلا الله ولا معبود بحق سواه وقد بصّرني
 ربي وأرشدني إلى الحق وهداني إلى توحيدِهِ وإخلاص العبادة له وحده ، ولن
 يصرفني عن ديني أقوالكم الفاسدة وشُبُهَكم الكاسدة فلستُ بخائف من
 آلهتكم لأنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرًا ولا نفعًا ، قال ابن كثير رحمه الله :
 يقول تعالى مخبرا عن خليله إبراهيم حين جادله قومه فيما ذهب إليه من
 التوحيد ، وناظره بِشُبهِه من القول أنه قال : «أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ» أي
 تجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو ، وقد بصّرني وهداني إلى الحق وأنا على
 بينة منه ، فكيف أَلْتَفِتُ إلى أقوالكم الفاسدة وشُبَهَكم الباطلة ، وقوله :
 ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تَشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي ومن الدليل على بطلان
 قولكم فيما ذهبتُم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تُؤَثِّرُ شَيْئًا ، وأنا لا
 أخافها ولا أبا ليها ، فإن كان لها كيد فكيدوني بها ، ولا تنظرون ، بل عاجلونني
 بذلك ، وقوله تعالى : «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا» استثناء منقطع ، أي لا يضر ولا
 ينفع إلا الله عز وجل ، «وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا» أي أحاط عِلْمُهُ بجميع
 الأشياء ، فلا يخفى عليه خافية ، «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ» أي فيما بَيَّنَّتُهُ لكم ، أفلا
 تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتتزعجوا عن عبادتها اهـ وقوله تبارك وتعالى :
 ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ
 سُلْطَانًا ، فَايُّ الْقَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تَعَجُّبٌ وإنكار
 لسلوك قومه المعوج حيث انقلبت عندهم الموازين إذ يزعمون أنهم يخافون على
 إبراهيم عليه السلام أن تصيبه أصنامهم بسوء بسبب براءته منها وهي لا
 تضر ولا تنفع ولا يخافون على أنفسهم أن يصيبهم جَبَّارُ السموات والأرض
 النافع الضار الذي بيده ملكوت كل شيء بسوء وهم يشركون به ما لا ينفع
 ولا يضر وما لا برهان لهم به ، قال ابن جرير رحمه الله : القول في تأويل قوله :

«وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنزل به عليكم سلطاناً فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون». قال أبو جعفر: وهذا جوابُ إبراهيم لقومه حين خَوَّفُوهُ من آلهتهم أن تَمَسَّهُ، لذكره إياها بسوء، في نفسه بمكروه، فقال لهم: وكيف أَخَافُ وَأُزْهَبُ ما أشركتموه في عبادتكم ربكم فعبدتموه من دونه وهو لا يضر ولا ينفع؟ ولو كانت تنفع أو تضر لدفعت عن أنفسها كسري إياها وضربي لها بالفأس، وأنتم لا تخافون الله الذي خلقكم ورزقكم، وهو القادر على نفعكم وضركم في إشراككم في عبادتكم إياه ﴿ما لم يُنزل به عليكم سلطاناً﴾ يعني: ما لم يعطكم على إشراككم إياه في عبادته حجة، ولم يَضَعْ لكم عليه برهانا، ولم يجعل لكم به عذرا، «فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن» يقول: أنا أحقُّ بالأمن من عاقبة عبادتي ربي مخلصا له العبادة، حنيفا له ديني، بريئا من عبادة الأوثان والأصنام، أم أنتم الذين تعبدون من دون الله أصناما لم يجعل الله لكم بعبادتكم إياها برهانا ولا حجة ﴿إن كنتم تعلمون﴾ يقول: إن كنتم تعلمون صدق ما أقول، وحقيقة ما أحتجُّ به عليكم فقولوا وأخبروني، أي الفريقين أحقُّ بالأمن؟ اهـ وقد اشتمل قوله: «فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون» على أعلى الدرجات في أدب البحث والمناظرة، باستئزال الخصم عن درجة المكابرة، مع إلجائه إلى الجواب الحق إن كان الخصم معه نوع من العلم فإن كان مستغرقا في الجهل عُرِفَ بالجواب الذي لا محيد عنه ولذلك جاء بيان الجواب في قوله عز وجل: ﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظُلْمٍ أولئك هم الأمن وهم مهتدون﴾. أي الأحقُّ بالأمن هم الذين أخلصوا التوحيد لله عز وجل ولم يخلطوا إيمانهم بشرك فإن الله تبارك وتعالى يكلوهم ويحفظهم ويبعثهم يوم القيامة آمنين لا يحزنهم الفرع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون. وقد أثبت الله تبارك وتعالى هنا الأمن للذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم

بظلم كما أثبت لهم أنهم مهتدون أي مصيئون سبيل الرشاد، سالكون طريق النجاة، وقد فسّر رسول الله ﷺ الظلم في هذه الآية بأنه الشرك فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال أصحاب رسول الله ﷺ: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قلنا: يا رسول الله أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قال: ليس كما تقولون ﴿لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ بِشَرِّكَ أَوْ لَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لَقْمَانَ لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قال: ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: أَيُّنَا لَمْ يَلْبَسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنه ليس بذاك، أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ لَقْمَانَ لابنه: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: أَيُّنَا لَمْ يَلْبَسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنه ليس بذاك، أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْلِ لَقْمَانَ: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ

ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أَيْنَا لَا يَظْلَم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ إشارة إلى ما شرح الله عز وجل له صدر خليفه إمام الحنفاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام من مناظرة قومه. وما ألزمهم به من الحجة البالغة والبرهان القاطع حتى حَجَّهْمُ وَغَلَبَهُمْ وَأَبْطَلَ شَبَهَتَهُمْ، وقطع عذرهم، وأفحمهم، أي وهذه بَيِّنَتُنَا لِقَنَّاها إبراهيم وبصرناه إياها، وعَرَفْنَاهُ بها، وهديناه إليها وَنَصَرْنَاهُ بها على قومه، ومعنى قوله عز وجل: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ﴾ قال ابن جرير رحمه الله: والدرجات جمع درجة، وهي المرتبة، وأصل ذلك مراقبي السُّلَمِ وَدَرَجِهِ، ثم تستعمل في ارتفاع المنازل والراتب، ثم قال رحمه الله: فمعنى الكلام إذا: «وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه» فرفعنا بها درجته عليهم، وَشَرَفْنَاهُ بها عليهم في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا فآتيناها فيها أجره، وأما في الآخرة فهو من الصالحين ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ﴾ أي بما فعل من ذلك وغيره، وأما قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فإنه يعني: إن ربك يا محمد ﴿حَكِيمٌ﴾ في سياسته خَلْقَهُ، وَتَلْقِينِهِ أَنْبِيَاءَهُ الْحُجَجَ عَلَى أُمَّهَاتِ الْمَكْذِبَةِ لَهُمْ، الجاحدة توحيد ربهم، وفي غير ذلك من تدبيره «عليم» بما يؤولُ أَمْرُ رُسُلِهِ وَالْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ، من ثبات الأمم على تكذيبهم إياه، وهلاكهم على ذلك أو إِنْائِهِمْ وَتَوْبَتِهِمْ منه بتوحيد الله تعالى ذِكْرُهُ وَتَصْدِيقُ رُسُلِهِ والرجوع إلى طاعته، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فَاتَّسِ يَا مُحَمَّدُ فِي نَفْسِكَ وَقَوْمِكَ الْمُكَذِّبِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، بأبيك وخليلي إبراهيم ﷺ واصبر على ما يَنْوِبُكَ مِنْهُمْ صَبْرُهُ، فإني بالذي يؤول إليه أَمْرُكَ وَأَمْرُهُمْ عَالِمٌ، وبالتدبير فيك وفيهم حكيم اهـ.

قال تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ. وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَكْفُرْنَ بِهَا﴾.

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين وأن قومه لما خَوْفُوهُ من أن تصيبه آلهتهم بسوء لم يعبأ بهم ولا بألهتهم وأن الله تبارك وتعالى آتاه الحجة عليهم ، ورفع درجته ، ذكر هنا أنه كان من فضل الله على إبراهيم عليه السلام وما جزاه به على طاعته الله وإخلاصه التوحيد له ويقينه في نصر الله لأنبيائه ورسله أنه وهب له إسحاق ويعقوب وجعل في ذريته النبوة والكتاب ، لتثبيت فؤاد رسول الله ﷺ وتأكيد أنه ليس بدعا من الرسل ، وأنه ﷺ على المنهج الذي سلكه من قبله إخوانه الأنبياء والمرسلون وأن الله تبارك وتعالى قد آتاه الكتاب والحكم والنبوة كما آتى الذين من قبله من المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله عز وجل : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فجزيانا إبراهيم ﷺ على طاعته إيانا وإخلاصه توحيد ربه ، ومفارقة دين قومه المشركين بالله ، بأن رفعنا درجته في عِلِّيَّين ، وآتيناه أجره في الدنيا ، ووهبنا له أولادا خصصناهم بالنبوة ، وذرية شرفناهم منا بالكرامة ، ، وفضلناهم على

العالمين ، منهم ابنه إسحاق وابن ابنه يعقوب ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ يقول : هدينا جميعهم لسبيل الرشاد ، فوفقناهم للحق والصواب من الأديان «ونوحا هدينا من قبل» يقول : وهدينا لمثل الذي هدينا إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الحق والصواب ، فوفقناه له نوحا من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب اهـ والضمير في قوله تبارك وتعالى : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ يمكن أن يعود على إبراهيم عليه السلام لأن الكلام سيق من أجله ، وعلى هذا يكون أيوب عليه السلام من ذرية إبراهيم أما لوط عليه السلام فلم يكن من ذرية إبراهيم عليه السلام لأنه ابن أخيه كما هو المعروف عند أهل العلم ولا إشكال في ذلك لأنه قد بعثه الله في زمان إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، وقال بعض أهل العلم : إن الضمير في قوله عز وجل : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ راجع إلى نوح عليه السلام لأنه أقرب مذكور ، وقد أشار الله تبارك وتعالى في سورة الحديد إلى أنه قد حصر النبوة في ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام حيث قال : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فيكون قوله تبارك وتعالى في سورة العنكبوت : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ دليلا على أن كل الأنبياء والمرسلين بعد موت إبراهيم عليه السلام هم من ذريته ، ولا شك أنه قد وُلِدَ لإسحاق يعقوب وهو إسرائيل وإليه ينتسب سائر أسباطهم ، وكانت فيهم النبوة حتى ختموا بعيسى ابن مريم وهو من بني إسرائيل لنسب أمه فيهم ، أما الفرع الثاني من ذرية إبراهيم فهو إسماعيل عليهما السلام ، ومن ذريته خاتم الأنبياء والمرسلين ، الجوهرة الباهرة ، والدرة الزاهرة صاحب المقام المحمود والحوض المورود محمد ﷺ وقد ذكر الله تبارك وتعالى في هذا المقام من سورة الأنعام أسماء ثمانية عشر من الأنبياء والمرسلين ولم يصح عن رسول الله ﷺ تحديد لعدد الأنبياء والمرسلين ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى في مواضع أخرى من الكتاب الكريم أسماء سبعة

منهم ، وبهذا يكون عدد الأنبياء والمرسلين الذين قصهم الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم خمسة وعشرين جمعهم بعض الشعراء في قوله :

في تلك حُجِّتْنَا منهم ثمانِيَّةٌ من بعد عشر ويبقى سبعةٌ وهُمُوا
إدريسُ هودُ شعِيبُ صالحٌ وكذا ذو الكفل آدمُ بالمختار قد خُتِمُوا

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى كثرة الأنبياء والمرسلين ، وأن منهم من قَصَّ خبره على رسوله محمد ﷺ ومنهم من لم يقصص عليه حيث يقول عز وجل في سورة غافر: ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ وقد أوضحت الكلام على ذلك في كتابي : قصص الأنبياء : القصص الحق ، كما تحدثت فيه عن قصة كل رسول من رسل الله المذكورين في هذا المقام وغيره بما ثبت في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ وقوله تبارك وتعالى : ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ تبشير لكل محسن من عباد الله في أي زمان أو مكان بأن الله تبارك وتعالى مؤيِّدُه وناصِرُه ورافِعُ درجته كما أيد إبراهيم وهؤلاء الصالحين ، أي وكما جزينا إبراهيم وهؤلاء الصالحين من أنبياء الله ورسله ورفعنا درجاتهم ونصرناهم على أعدائهم وآتيناهم أجرهم في الدنيا وأعدَدْنَا لهم المساكن الطيبة في جنات النعيم فإننا نجازي كل محسن من عباد الله إلى يوم القيامة كذلك ، قال أبو السعود العمادي : والمراد بالمحسنين الجنس وبمماثلة جزائهم لجزائه عليه السلام مطلق المشابهة في مقابل الإحسان بالإحسان والمكافأة بين الأعمال والأجزية من غير بخس لا المُمَاثَلَةُ من كل وجه ضرورة أن الجزاء بكثرة الأولاد مما اختص به إبراهيم عليه السلام اهـ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿كُلُّ من الصالحين﴾ أي وكلُّ مَنْ ذَكَرْنَا من هؤلاء الذين سَمَّيْنَا لكم هم من عباد الله الصالحين الهداة المهتدين إلى الصراط المستقيم الذين أنعم الله عز وجل عليهم واجتباهم ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿وكلاً فَضَّلْنَا على العالمين﴾ أي وقد فَضَّلْنَا كُلَّ واحد من هؤلاء المذكورين

على سائر المخلوقين الذين ليسوا بأنبياء ولا مرسلين، وقد اختار الله تبارك وتعالى الأنبياء من أكمل خلقه، فعندما أخذ الله عز وجل طينة آدم اختار منها الأنبياء، واختار من الأنبياء المرسلين، واختار من المرسلين أولى العزم، واختار من أولى العزم الخليلين إبراهيم ومحمدا عليهما السلام، وقد بين الله تبارك وتعالى أنه فضل بعض النبيين على بعض حيث يقول: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن آباءهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وهدينا أيضا من آباء هؤلاء الذين سماهم تعالى ذكره ﴿ومن ذرياتهم وإخوانهم﴾ آخرين سواهم، لم يسمهم، للحق والدين الخالص الذي لا شرك فيه، فوققناهم له ﴿واجتبتناهم﴾ يقول: واختارناهم لديننا وبلاغ رسالتنا إلى من أرسلناهم إليهم، كالذي اخترنا من سمينا يقال منه اجتبى فلان لنفسه كذا إذا اختاره واصطفاه، يجتبيه اجتباء، ثم قال رحمه الله: ﴿وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾ يقول: وسددناهم فأرشدناهم إلى طريق غير معوج، وذلك دين الله الذي لا عوج فيه، وهو الإسلام الذي ارتضاه الله ربنا لأنبيائه، وأمر به عباده اهـ ولم يقصص الله تبارك وتعالى قصص من أشار إليهم من الأنبياء والمرسلين في هذا المقام لكثرتهم لأنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وكما قال عز وجل: ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ والله الحكمة البالغة، ومعنى «من» في قوله عز وجل: ﴿ومن آباءهم وذرياتهم وإخوانهم﴾ التبويض لأن بعض آباء الأنبياء كان كافرا، كما أن بعض ذرية هؤلاء كان كافرا ومن أمثلة هؤلاء الكافرين من آباء الأنبياء آزر، ومن أمثلة هؤلاء الكافرين من ذرية هؤلاء الأنبياء ابن نوح الذي غرق مع الكافرين وقوله

تبارك وتعالى : ﴿ ذَلِكْ هُدًى اللّٰهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ زيادة بيانٍ على أن الهدى هو هدى الله وأن دين الله الذي يرتضيه هو الصراط المستقيم الذي أرشد إليه الناس ، ووفق له من يشاء من أنبيائه ورسله وعباده الصالحين وتحذيرٌ شديد من الشرك وتنديد بالمشركين ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي ولو اتخذ واحد من هؤلاء الصالحين ندًا لله عز وجل لأبطل الله تبارك وتعالى جميع أعماله الصالحة التي سبقت هذا الإشراك ، كما قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَ لَيَحْضَبُنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ولا شك أن الأنبياء معصومون من الشرك ، وقد جاء هذا التحذير بأسلوب الشرط ، والكلام إذا سيق على سبيل الشرط لا يقتضي الوقوع ، قال ابن كثير رحمه الله : وهذا شرط ، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع كقوله ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ وكقوله : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَا لَاتُخْدَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ وكقوله : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللّٰهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، سُبْحَانَهُ هُوَ اللّٰهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ تقرير للنبوة والرسالة وثناءً على المرسلين ببراءتهم من الشرك واستمسакهم بما أنزل الله من الهدى والوحي ، وتهديدٌ لمن كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والإشارة بأولئك لعلو منزلة الأنبياء المذكورين ، كما أن الإشارة بقوله : هؤلاء راجعة للمشركين الكافرين من قريش وغيرهم الذين يكذبون بالكتاب وبالرسول ﷺ وبالرسالة ، والمراد بالكتاب الجنس فيعم كل الكتب السماوية والمراد بالحكم الفقه في الدين والمراد بالنبوة ما يشمل الرسالة . ومعنى : ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ أي فإن يجحد هؤلاء الكفار ما

أنزل الله من الكتاب وما أرسل من رسول فإن الله لا يعجزه إهلاكهم إن استمروا على جحودهم ، وأن يستبدل قوما غيرهم يؤمنون بكتب الله ورسله ولا يكفرون بها كما قال عز وجل : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ ومعنى : ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ أي فقد أرصدنا لها من يؤمن بها ويحبها أكثر من حبه لنفسه وولده ووالده والناس أجمعين ، ويخالط الإيَّان بها بشاشة قلبه فلا يَسْخَطُهَا أبدا .

قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ افْتَدِهِ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل أنه كان من فضل الله على إبراهيم عليه السلام وما جزاه به على طاعته لله وإخلاصه التوحيد له ، و يقينه في نصر الله لأنبيائه ورسله أنه وهب له إسحاق ويعقوب وجعل في ذريته النبوة والكتاب لتثبيت فؤاد رسول الله ﷺ وتأكيد أنه ليس بدعا من الرسل ، وندد بالمشركين الذين يدعون محبة إبراهيم عليه السلام وهم يناقضون مذهبه ويبنّ عز وجل أن الشرك يحبط كل عمل صالح ، وبشر نبيه ﷺ بانتصار الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء والمرسلين أكد هنا أن هؤلاء الأنبياء والمرسلين هم المستقيمون على منهج الهدى وأمر نبيه ﷺ بسلوك منهجهم والاقتراء بهداهم في الاستمسك بشريعة الله والوقوف عند حدود الله ، واجتناب الشرك بالله ، وطلب من رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينبه المشركين إلى حجة ظاهرة تثبت أن محمدا هو رسول الله ﷺ حقا وصدقا وتُدحض حُجَّتَهُمْ وباطلهم ، حيث انتصب ﷺ لدعوتهم إلى الهدى والنجاة والفوز بالحياة الطيبة في الدنيا والآخرة وهو لا يسألهم على ذلك أجرا وهو قد جاءهم بالدين الذي يحصل لمن يتمسك به الشرف الرفيع مهما كان جنسه أو لونه أو مكانه أو زمانه ، وهو تذكير للعالمين ، وليس على رسول الله ﷺ إلا البلاغ ، ثم وبّخ المشركين واليهود الذين ينكرون الرسالة ويزعمون أن الله عز وجل ما أنزل كتابا ولا وحيا على بشر ، وأمر رسوله ﷺ أن يسألهم : من أنزل الكتاب الذي جاء به

موسى نورا وهدى للناس ، ولن يستطيع أحد من هؤلاء المشركين واليهود أن ينكر نزول التوراة على موسى فإنهم جميعا مقرون بذلك لا يستطيعون إنكاره بحال ، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدْهُ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ والإشارة في قول تبارك وتعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدْهُ﴾ إلى الأنبياء المشار إليهم بقوله عز وجل : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ﴾ ومعنى : «هَدَى اللَّهُ» أي هداهم الله ووقفهم إلى الصراط المستقيم وصانهم من الانحراف عن دينه القويم ، وجعلهم أئمة الهدى . ومعنى قوله عز وجل ﴿فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدْهُ﴾ أي فانهج منهجهم واتبع سبيلهم والزم هداهم في الاستمسك بشريعة الله ، والوقوف عند حدوده فيما يوحي إليك كما التزموا بحدود الله فيما أَوْحَى إليهم ، وما شرع لهم ، كما قال عز وجل : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ولا خلاف عند أهل العلم في أن الأنبياء متفقون في أصول الشريعة وأن لكل رسول من رسل الله صلى الله عليه وسلم منهجا يلائم أمته ، كما قال عز وجل : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ فما ثبت نَسْخُهُ من شرائع الأنبياء السابقين فإنه لا يعمل به بعد النسخ ، وقد اقتدى رسول الله محمد ﷺ بـداود عليه السلام في السجدة ، فقد قال البخاري في تفسير سورة الأنعام : حدثني إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام أن ابن جُرَيْجٍ أخبرهم قال : أخبرني سليمان الأحول أن مجاهدًا أخبره أنه سأل ابن عباس أفي ص سجدة؟ فقال : نَعَمْ ، ثم تلا : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ إلى قوله : ﴿فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدْهُ﴾ ثم قال : هُوَ مِنْهُمْ . زاد يزيد بن هارون ومحمد بن عُبَيْدٍ وسهل بن يوسف عن

الْعَوَامُ عَنْ مُجَاهِدٍ قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ : نَبِّئُكُمْ ﷺ مِمَّنْ أُمِرَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ ،
 وَقَالَ الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ ص : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ حَدَّثَنَا
 شُعْبَةُ عَنْ الْعَوَامِ قَالَ : سَأَلْتُ مُجَاهِدًا عَنْ السَّجْدَةِ فِي ص قَالَ : سُئِلَ ابْنُ
 عَبَّاسٍ فَقَالَ : «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ» وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ
 يَسْجُدُ فِيهَا حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُيَيْنَةَ الطَّنَافِيسِيُّ عَنْ
 الْعَوَامِ قَالَ : سَأَلْتُ مُجَاهِدًا عَنْ سَجْدَةِ ص فَقَالَ : سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ : مَنْ
 أَيْنَ سَجَدَتْ؟ فَقَالَ : أَوْ مَا تَقْرَأُ : «وَمَنْ ذَرِيَّتُهُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ» «أُولَئِكَ الَّذِينَ
 هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ» فَكَانَ دَاوُدُ مِمَّنْ أُمِرَ نَبِيُّكُمْ ﷺ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ
 فَسَجَدَهَا دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَجَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَهْدَ وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :
 ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ هُوَ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ :
 ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ وَالِاحْتِجَاجُ عَلَى
 صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ سُؤَالِهِ أَجْرًا عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ قَدْ سَلَكَهُ الْمُرْسَلُونَ
 قَبْلَهُ ﷺ ، كَمَا ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ حَيْثُ يَقُولُ
 عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾
 فِي سُورَةِ هُودٍ وَيَقُولُ عَنْهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
 أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَيَقُولُ عَنْ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
 مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . وَيَقُولُ عَنْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
 ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . وَيَقُولُ عَنْ لُوطٍ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَيَقُولُ
 عَنْ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ
 الْعَالَمِينَ﴾ وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ يَنْتَصِبُ لِلدَّعْوَةِ لِإِقَامَةِ أَقْوَمِ الْمَنَاهِجِ وَأَحْسَنِ
 أَسَالِيبِ الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي تَجْلِبُ عِزَّ الدُّنْيَا وَسَعَادَةَ الْآخِرَةِ وَيَحْفَظُ لِلنَّاسِ
 أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَعْرَاضَهُمْ وَعَقُولَهُمْ دُونَ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُمْ أَجْرًا فِي مُقَابَلَةِ

عمله هذا مع تعرضه لتكذيب المكذبين وعناد المعاندين وافتراء المفترين وأذى السفهاء الجاحدين لا بد وأن يكون صادقاً وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ بيانٌ لجهل المشركين واليهود بالله عز وجل وعدم معرفتهم لأسمائه الحسنی وصفاته العلی ونفيهم لرحمة الله وإحسانه وجوده حيث زعموا أنه لم ينزل كتاباً ولم يرسل رسولا، ولا شك أن إنكار الرسالة طعنٌ في الله تبارك وتعالى ونسبةٌ له إلى الظلم والسفه والعبث وعدم الإحسان إلى خلقه بترك عباده سُدى يتخبطون في معاشيهم، مع أن الناس في حاجة إلى النبوة والرسالة والكتاب أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب لأن الإنسان مدني بالطبع كما يقرر علماء الاجتماع فلا يستغنى عن الناس ولا يستغنى الناس عنه ولو ترك الناس لأنفسهم لسلب القوى الضعيف والغنى الفقير والعزيز الدليل ولصاروا كحيوانات الغابات لذلك كانوا في أمس الحاجة إلى نظام يكفل لكل ذي حق حقه، والبشرية تعجز عن وضع مثل هذا النظام لخضوع الإنسان للمؤثرات البيئية والنفسية لذلك اقتضت حكمة أرحم الراحمين ورب العالمين العليم الخبير أن يبعث في كل أمة نذيراً يرسم لها منهج سعادتها وعزها في الدنيا والآخرة، فمن زعم أن الله لم يرسل رسولا ولم ينزل كتاباً على بشر فهو جاهلٌ بالله عز وجل حاقداً على الناس ومعنى : «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» وما عظموا الله حق تعظيمه، وما عرفوه بأسمائه الحسنی وصفاته العلی، وقد وصف الله تبارك وتعالى في هذا المقام من أنكروا الرسالة بأنهم ما قدروا الله حقَّ قدره، كما وصف من اتخذ نذاً لله عز وجل بأنه ما قدر الله حق قدره حيث قال في سورة الحج : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وكما قال عز وجل

في سورة الزمر: ﴿قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ فَاغْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمُوتُاطُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيجب على من يريد السعادة لنفسه أن يَقْدَرَ الله عز وجل حق قدره كما يجب عليه أن يتقي الله حق تقاته وأن يجاهد فيه حق جهاده كما قال عز وجل : ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ وقال : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ والمراد من حق قدره وحق جهاده وحق تقاته ما كان مأمورا به أي حق جهاده الذي أمركم به ، وحق تقاته التي أمركم بها ، واقدروه قدره الذي بينه لكم وأمركم به ، فصدّقوا الرسول ﷺ فيما أخبر، وأطيعوه فيما أَوْجَبَ وأمر، على قدر استطاعتكم لأنه عز وجل لا يكلف نفسا إلا وسعها ، أما ما يخرج عن طاقة البشر فذلك لا يُدْمُ أحد على تركه ، كالإحاطة بالشئ على الله وإحصاء ذلك فإنه خارج عن طاقة البشر، ولذلك قال رسول الله ﷺ في دعائه وهو ساجد : لا أُحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ ، أنت كما أثْنَيْتَ على نفسك فقد روى مسلم في صحيحه من حديث الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : اللهم إني أعوذ برضاك من سَخَطِكَ ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أُحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ ، أنت كما أثْنَيْتَ على نفسك . وقوله تبارك وتعالى : ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ نقض لما زعمه المشركون واليهود المُعَرِّضُونَ بالمشركين الذين ادَّعَوْا أن الله تعالى ما أنزل على بشر من شيء ، وقطع لشبهتهم على أكمل وجه ، وإلزامهم بما لا سبيل لهم إلى إنكاره أصلا ، فإن المشركين كانوا مقرين بنزول التوراة على موسى عليه السلام وكانوا يقولون : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، كما أن اليهودي إذا أنكر نزول التوراة على موسى

كان خارجا عما يدعيه من اليهودية ، ووصفُ الكتاب بكونه نورا وهدى للناس لزيادة التقريع والتوبيخ ، وقوله : ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آبائكم﴾ نَعْيٌ على اليهود الذين حرّفوا التوراة وغيروا فيها ، وزيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم ، حيث كانوا يظهرون من أجزاء التوراة ما يشتهون ويخفون ما لا يشتهون ، فقد كتموا صفة رسول الله ﷺ وأخفوا أحكام الرجم وحد السرقة ونحوهما ، واتبعوا تعاليم التلمود العنصرية التي وضعها لهم أحبار السوء مما لا وجود لها في التوراة كما أشار إلى ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تُخفون من الكتاب ويعفو عن كثير﴾ وقوله : ﴿قل الله أمر لرسول الله ﷺ بأن يجيب عنهم إشعارا بتعين الجواب الذي لا محيد عنه وإعلاما بأنهم أفرحوا ولم يقدروا على النطق بالجواب خجلا ، أي قل لهم : الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى وقوله عز وجل﴾ ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ قال ابن كثير رحمه الله : أي ثم دَعَهُمْ في جهلهم وضلالهم يلعبون حتى يأتيهم من الله اليقين فسوف يعلمون : ألهم العاقبة أم لعباد الله المتقين .

قال تعالى : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ عَذَابِ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ . وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ .

بعد أن أفحم المشركين واليهود الذين زعموا أن الله ما أنزل على بشر من شيء جهلا وحسدا، وكذبهم في هذه الكلمة الشنعاء بتقرير أمر لا يستطيعون دفعه وهو أنه عز وجل أنزل التوراة على موسى فأبطل بذلك حجتهم وأدحض زعمهم، شرع هنا في بيان ما سيق الكلام من أجله وهو تحقيق رسالة محمد ﷺ وأن الله الذي بعث موسى ﷺ وأنزل عليه التوراة هو الذي بعث محمدا ﷺ وأنزل عليه القرآن المبارك المصدق للتوراة ولسائر الكتب السماوية التي تقدمته حيث إنها تدعو إلى توحيد الله ووجوب إخلاص العبادة له وحده لا شريك له والإيمان بجميع المرسلين وكلها متفقة أيضا في الكليات الخمس وهي حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، كما أنها كلها متفقة على وجوب الإيمان باليوم الآخر، وبجميع كتب الله وملائكته، وقد تَوَعَّدَ الله تبارك وتعالى المفترين على الله الكذب بالعذاب المهين المذل لهم عند سكرات الموت وفي البرزخ وفي الجحيم، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إلى قوله

تبارك وتعالى : ﴿لقد تقطع بينكم وصلٌ عنكم ما كنتم تزعمون﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ مُصدِّقٌ الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ أي وهذا القرآن كتابٌ موصوف بأنه أنزله الذي أنزل التوراة على موسى وهو مبارك أي عظيم المنافع كثير الخيرات لا تُحصى فوائده ويحصل لمن استمسك به عز الدنيا وسعادة الآخرة، مشتمل على المنهج الذي لا غنى للبشرية عنه أبداً، لتعرف به ربها ورسولها ومالها وما عليها، وتزدلف بتلاوته إلى ذي الجلال والإكرام، وهو كذلك موصوف بأنه مُصدِّقٌ الذي بين يديه أي مُقرِّرٌ ومُوافِقٌ لما جاء في جميع الكتب السماوية المنزلة من عند الله من أصول الدين، نافٍ عنها ما ألحقه أحبار السوء بها، ولذلك قالت الجنُّ لما سمعت القرآن : ﴿إنا سَمِعْنَا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾ وقال ورقة بن نوفل : إنَّ هذا والذي جاء به موسى ليخرجان من مشكاة واحدة، وكذُلك قال النجاشي . وقوله : ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ معطوف على معنى ما قبله أي وهو مثبت لكون محمد ﷺ نذيراً لأم القرى ومن حولها والمراد بأم القرى مكة لأن بها البيت الحرام الذي هو أول بيت وضع للناس ، والمراد بمن حولها جميع ما يحيط بها من مشارق الأرض ومغاربها وشماليتها وجنوبيها، كما قال عز وجل : ﴿تبارك الذي نَزَلَ الفرقانَ على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ وكما قال عز وجل : ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وقُلْ للذين أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ وفي التعبير بقوله عز وجل : ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ في مجيئه مغايراً لنسق ما قبله وعطفه عليه بالواو لَلْفَتِ الانتباه إلى تأكيد ما سيق الكلام من أجله وهو إثبات أنَّ محمداً هو رسول الله حقاً وصدقاً وأن الله عز وجل أنزل

عليه هذا الكتاب العظيم ليكون للعالمين نذيرا وقوله تبارك وتعالى ﴿والذين
 يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يُحَافِظُونَ﴾ تنديد بالمشركين
 واليهود بالإشارة إلى أن الذي يحملهم على الكفر بهذا القرآن العظيم هو
 كفرهم بالقيامة واستبعادهم لها، فأما من انشرح صدره للإيمان باليوم الآخر
 وأيقن أن بديع السموات والأرض لا يعجزه بعث الموتى وأن ذلك سهل
 عليه يسير، فإنه يؤمن بالرسالة والقرآن ويحرص على المحافظة على الصلوات،
 فإن قيل: إن أهل الكتاب يؤمنون باليوم الآخر وهم مع ذلك لا يؤمنون
 بالقرآن فالجواب: أن إيمانهم باليوم الآخر إيمان غير صحيح فلا يعتد به لأنهم
 لا يؤمنون ببعث الأجسام وإنما يزعمون أن البعث للأرواح فقط، ولذلك قال
 عز وجل في سورة التوبة: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا
 يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ ورسوله ولا يَدِينُونَ دين الحق من الذين أوتُوا الكتاب حتى
 يُعْطُوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ ولذلك سارع من كان على بصيرة بدين
 موسى أو عيسى عليهما السلام من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام
 والنجاشي إلى الإيمان بمحمد ﷺ وبما أنزل عليه من الكتاب، فإن قيل: لم
 خص الصلاة بالذكر مع أن المطلوب من المؤمن أن يحافظ على جميع
 الطاعات؟ فالجواب: أن تخصيص الصلاة بالذكر للتنبيه على أنها أشرف
 العبادات وأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، ولذلك روى مسلم في
 صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:
 إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة. كما روى الترمذي وقال
 حديث حسن صحيح من حديث بُرَيْدَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:
 العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر. كما روى الترمذي
 وقال حديث حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم: إن أول ما يُحَاسَبُ به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن

صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ . الحديث . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ قال ابن تيمية رحمه الله : لما ذكر الله سبحانه قولَ الذين ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ حيث أنكروا الإنزال على البشر ، ذكر المتشبهين به ، المدَّعينَ لمِثْلَتِهِ من الأقسام الثلاثة فإن المماثل له ، إما أن يقول : إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ ، أو يقول : أُوحِيَ إِلَيَّ وَالْقَيِّ إِلَيَّ وَقِيلَ لِي ، ولا يُسَمَّى القائل ، أو يُضَيَّفَ ذلك إلى نفسه ، ويذكر أنه المُنْشِئُ له ، ووجه الحصر : أنه إما أن يحذف الفاعل أو يذكره وإذا ذكره فإما أن يجعله من قول الله أو من قول نفسه ، فإنه إذا جعله من كلام الشياطين لم يقبل منه ، وما جعله من كلام الملائكة فهو داخل فيما يضيفه إلى الله ، وفيما حذف فاعله ، فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ وَتَدَبَّرْ كيف جعل الأوَّلَيْنِ في حيز الذي جعله وحيا من الله ولم يُسَمَّ الموحِّي ؟ فإنهما من جنس واحد في ادِّعاء جنس الإنباء ، وجعل الآخر في حيز الذي ادَّعى أن يأتي بمثله . ولهذا قال : ﴿ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ فالمفتري للكذب والقائل : أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ من جملة الاسم الأول وقد قرن به الاسم الآخر ، فهؤلاء الثلاثة المدَّعون لِشَبَهِ النبوة ، وقد تقدم قبلهم المكذَّبُ للنبوة ، فهذا يعمُّ جميع أصول الكفر التي هي تكذيب الرسل أو مضاهاتهم ، كمسيلمة الكذاب وأمثاله اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله : قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ : ولو ترى يا محمد ، حين يغمر الموت بسكراته هؤلاء الظالمين العادلين بربهم الآلهة والأنداد ، والقائلين : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ والمفتريين على الله

كذبا، الزاعمين أَنَّ الله أَوْحَى إِلَيْهِمْ ولم يُوحَ إِلَيْهِمْ شيء، والقائلين : ﴿سَأَنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ فَتَعَايَنَهُمْ وقد غشيتهم سكراتُ الموت، ونزل بهم أمرُ الله، وَحَانَ فَنَاءُ آجَالِهِمْ والملائكةُ بِأَسْطُو أَيْدِيهِمْ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وأدبارهم، كما قال جل ثناؤه : «فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم . ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه» يقولون لهم : أخرجوا أنفسكم . والغمرات جمع غمرة، وغمرة كل شيء كثرته ومعظمته، وأصله الشيء الذي يَغْمُرُ الأشياءَ فَيُعْطِيهَا، ومنه قولُ الشاعر :

وهل يُنْجِي من الغمرات إلا بُرَا كَاءُ الْقِتَالِ أَوْ الْفِرَارُ

ثم قال ابن جرير رحمه الله : فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : مَا وَجْهُ قَوْلِهِ : ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وَنَفُوسُ بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يُخْرِجُهَا مِنْ أَبْدَانِ أَهْلِهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فكيف خُوطِبَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ، وَأَمْرُوا فِي حَالِ الْمَوْتِ بِإِخْرَاجِ أَنْفُسِهِمْ؟ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَقَدْ وَجِبَ أَنْ يَكُونَ بَنُو آدَمَ هُمْ يَقْبِضُونَ أَنْفُسَ أَجْسَامِهِمْ؟ قِيلَ : إِنْ مَعْنَى ذَلِكَ بِخِلَافِ الَّذِي إِلَيْهِ ذَهَبَتْ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى السُّنَنِ رُسُلِهِ الَّذِينَ يَقْبِضُونَ أَرْوَاحَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مِنْ أَجْسَامِهِمْ بِأَدَاءِ مَا أَسْكَنَهَا رَبُّهَا مِنَ الْأَرْوَاحِ إِلَيْهِ، وَتَسْلِيمِهَا إِلَى رُسُلِهِ الَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَهَا . الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : وَهَذَا خَبَرُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاهُ عَمَّا تَقُولُ رُسُلُ اللَّهِ الَّتِي تَقْبِضُ أَرْوَاحَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ لَهَا، يُخْبِرُ عَنْهَا أَنَّهَا تَقُولُ لِأَجْسَامِهَا وَلِأَصْحَابِهَا : أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ إِلَى سَخَطِ اللَّهِ وَلَعْنَتِهِ، فَإِنَّكُمْ الْيَوْمَ تُثَابِتُونَ عَلَى كُفْرِكُمْ بِاللَّهِ، وَقِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ الْبَاطِلُ، وَزَعَمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيْكُمْ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْكُمْ شَيْئًا، وَإِنْكَارِكُمْ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَى بَشَرٍ شَيْئًا، وَاسْتِكْبَارِكُمْ عَنِ الْخُضُوعِ لِأَمْرِ اللَّهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ، وَالانْقِيَادَ لَطَاعَتِهِ «عَذَابُ الْهُونِ» وَهُوَ عَذَابُ جَهَنَّمَ الَّذِي يُبَيِّنُهُمْ فَيَذِلُّهُمْ حَتَّى يَعْرِفُوا صِغَارَ أَنْفُسِهِمْ أَهْ وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَلَقَدْ

جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴿ هذا خبر من الله عز وجل عما هو موبيخ ومقرح به أعداء المرسلين على رؤوس الأشهاد يوم القيامة إذ يقول لهم : ولقد أتيتمونا منقطعين عن الأهل والمال والولد حينما دعوناكم من قبوركم ونفخ الصور فخرجتم مسرعين قد أحييناكم كما خلقناكم أول مرة وقد بعثناكم من قبوركم حفاة عراة غرلاً لم تنتفعوا بما ملكناكم ، فتركتموه وراء ظهوركم ولم تكتسبوا منه عملاً صالحاً ينفعكم في الدار الآخرة ، وقد تَبَرَّأت منكم آلهتكم التي اتخذتموها من دون الله فلا تستطيع الشفاعة فيكم ، وقد تقطعت الأسباب بينكم وضل عنكم ما كنتم تفترون ، وهذا شبيه بقوله تبارك وتعالى : ﴿وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفَا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿ وبقوله عز وجل ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿ وبقوله عز وجل : ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴿ في آيات كثيرة جداً .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ * فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ، ذَلِكُمْ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

بعد أن قرر عز وجل أدلة التوحيد والرسالة والبعث بعد الموت على أكمل وجه شرع في لفت انتباه عباده إلى ألوان من الآيات الكونية الشاهدة بأنه لا إله إلا هو، الدالة على كمال علمه وقدرته وبالع حكمة وجليل صنعه حيث يقول عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ * إلى قوله عز وجل ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ * ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ * أي إن الله هو الذي يفلق أي يشق الحبة اليابسة فيخرج منها الزرع الحى النامي كالأرز والحنطة والشعير والدخن والذرة والبرسيم ويشق النواة اليابسة الجامدة فيخرج منها الشجر كالنخل والخوخ والمشمش ، وقد لوحظ أن الحبة أو النواة إذا وضعت في الأرض وأصابها الماء ومضت مدة من الزمن شقَّ الله تبارك وتعالى في هذه الحبة أو النواة شقاً من أعلاها وشقاً من أسفلها فيخرج من الشق الأسفل جذر الشجرة الذى يغوص في الأرض لإمداد الشجرة بأسباب حياتها وبقائها

بالقدر الذى يريده الله لها ، ويخرج من الشق الأعلى الزرع والشجر بسيقانه
 وأغصانه وأوراقه وما يتولد فيه بعد ذلك من المنافع والثمار، وفي هذا آيةٌ
 عظيمة تلفت انتباه ذوي الفكر إلى عجائب قدرة الله ، فإنَّ باطن الأرض جرم
 كثيف صلب قد لا تنفذ المسئلة القوية فيه ولا يغوص فيه السكين ، ومع
 ذلك فإنَّ الله عز وجل يُمكنُ لعروق الشجرة أن تنفذ فيه وتغوص في باطن
 هذه الأرض مع أن هذه العروق في غاية الدقة والضعف بحيث لو دلکها
 الإنسان بأصابعه بأدنى قوة لصارت كالماء ، كما أن الزرع والشجر الذى ينبت
 من الحبة اليابسة الجامدة أو النواة اليابسة الجامدة ينمو ويكبر ويحمل من
 الأوراق والثمار وجميع خصائص الأصل الذى منه الحبة أو النواة، حتى
 توجد فيه بمشيئة الله الحبة الجامدة اليابسة أو النواة الجامدة اليابسة ، ولذلك
 قال عز وجل : ﴿ يخرج الحي من الميت ومخرجُ الميت من الحي ﴾ والعرب قد
 يريدون بالحي كل ما ينمو من الحيوان والنبات ، وبالميت ما لا ينمو كالنطفة
 والحبة الجامدة والنواة اليابسة ، وكذلك ما لا روح فيه . وفلَقُ الحب والنوى
 وإخراجُ الحى من الميت والميت من الحي يجيء على مقدار قدره العزيز العليم
 لمنافع الناس وأنعامهم فيما يحتاجونه من أقواتهم وفاكهتهم وأدويتهم وغيرها ،
 كما أشار إلى ذلك حيث قال عن خلقه عز وجل للأرض : ﴿ وبارك فيها
 وقَدَّرَ فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ وكما قال تعالى في سورة
 عَبَسَ : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا
 الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَبْنَا وَقُضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ
 غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى :
 ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : وأما قوله : ﴿ ذَلِكُمْ
 اللَّهُ ﴾ فإنه يقول : فاعل ذلك كله الله جل جلاله ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ يقول :
 فأَي وجوه الصَّدِّ عن الحق أيها الجاهلون تُصَدُّونَ عن الصواب وتُضْرَقُونَ ،

أفلا تتدبرون فتعلمون أنه لا ينبغي أن يُجْعَلَ لمن أنعم عليكم بفلق الحب والنوى ، فأخرج لكم من يابس الحب والنوى زروعا وحُرُوثًا وثمارا تتغذون بِبَعْضِهِ وتتفكهون ببعضه شريكٌ في عبادته ما لا يضر ولا ينفع ولا يسمع ولا يبصر. اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ أي هو سبحانه هو الذى يشق عمود الصبح عن ظلمة الليل ويفلق ظلام الليل عن غرة الصباح ، فيضيء الوجود ويستتير الأفق ويذهب الليل بظلام رواقه ، ويحيى النهار بضياءه وإشراقه ، فينتشر أهل الحاجات لطلب حاجاتهم بعد أن سكنوا بالليل ، واستراحوا ، وقد جعل تبارك وتعالى الشمس والقمر يجريان في منازلهما بحساب مُقَدَّرٍ مُقَنَّ لا يتغير ولا يضطرب لحظة واحدة منذ خلق الله السموات والأرض ، وكل واحد منهما يسلك منازلَه في الصيف والشتاء ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فَلَكَ يسبحون ﴾ ويترتب على ذلك مصالح العباد والبلاد ، وتتواجد بذلك الفصول الأربعة واختلاف الليل والنهار طولًا وقصرًا ، ويعرف الناس السنين والشهور والأيام والحساب ، وقد نبه الله تبارك وتعالى عباده بذلك ليكونوا على بصيرة فيما يحيط بهم ويشاهدونه من آياته الكونية التى تجري بمقدار دقيق عجيب ، ولذلك ذيل هذا المقام ونحوه بقوله عز وجل : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ ﴾ والشمس تجري لمستقر لها ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * والقمر قَدَرْتَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ ينبغي لها أن تدرك القمر ولا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكَ يَسْبَحُون * . وكما قال عز وجل : ﴿ وَزَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ وقد أشار الله عز وجل إلى أن مجيء الليل والنهار هو من رحمة الله بعباده حيث يقول عز وجل : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ

جعل الله عليكم الليلَ سَرْمَدًا إلى يوم القيامة مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ
 أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قل أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
 مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٍ تُسْكِنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ
 لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾ ومعنى
 قوله تبارك وتعالى : ﴿٢﴾ وهو الذى جعل لكم النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ
 الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ أى والله الذى يفلق الحب
 والنوى ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي والذى يفلق الإصباح،
 وقد جعل لكم الليل سكنا والشمس والقمر حسباناً هو الذى خلق لكم
 الكواكب وجعلها أدلة لكم إذا ركبتم السفن فى البحار أو كنتم فى الفياض
 والقفار وضللتم الطريق أو تحيرتم فيها ليلاً فلم تهتدوا إلى الجهة التى تريدون
 فإنكم تستدلون بهذه النجوم إلى وجهتكم، وتعرفون بها سبيلكم فتسلكونه،
 وتنجون بها من ظلمات البر أو البحر التى تحيط بكم، كما قال عز وجل :
 ﴿٤﴾ وَعَلَامَاتٍ، وبالنَّجم هم يهتدون ﴿٥﴾ وقد مَيَّزَ اللَّهُ تبارك وتعالى الأدلة لكم،
 وفرَّقَ الحجج والبراهين فيكم، ليتدبرها أولو العلم بالله منكم، وليعرفها
 العقلاء فَيُتَبَيَّنُوا مِنْ غَيِّهِمْ، وينزجروا عن ضلالهم وخطئهم، وقوله تبارك
 وتعالى : ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ، قَدْ
 فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ لفت انتباه الناس إلى آيات الله الباهرة
 وحججه الظاهرة فى إنشاء جميع البشر مع اختلاف ألوانهم وألستهم
 وطبائعهم من نفس واحدة وهى آدم عليه السلام، وإنشاء مستقر لهم فى
 الأرض التى جعلها لهم ذلولاً، ومستودع لهم فى البرزخ، كما قال عز وجل :
 ﴿٨﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٩﴾ والمستقر : هو
 المكان الذى يحصل فيه الاستقرار والمستودع : المكان الذى تجعل فيه
 الدويدة، وقد قال تبارك وتعالى فى مطلع هذه السورة الكريمة : ﴿١٠﴾ هو الذى

خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجلٌ مُسمًى عنده ثم أنتم تموتون ﴿ وكما
 قال عز وجل : ﴿ ولکم فی الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ وكما قال عز
 وجل : ﴿ وما من دابة فی الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها
 ومستودعها ﴾ وقد ذكر الإمام البغوي عن مجاهد أنه قال : مستقر على ظهر
 الأرض في الدنيا ومستودع عند الله في الآخرة اهـ وقال أبو السعود العمادي في
 تفسيره : ﴿ قد فصلنا الآيات ﴾ المبينة لتفاصيل خلق البشر من هذه الآية
 ونظائرها ﴿ لقوم يفقهون ﴾ غوامض الدقائق باستعمال الفطنة وتدقيق النظر،
 فإن لطائف صنع الله عز وجل في أطوار تخليق بنى آدم مما تحار في فهمه
 الألباب، وهو السرُّ في إيثار «يفقهون» على «يعلمون» كما ورد في شأن
 النجوم اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به
 نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حَبًّا مُّترابا ومن النخل من
 طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرُّمان مُّشتبها وغير
 مُّشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إنَّ في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾
 زيادة تنبيه العباد إلى جزيل نعم الله عليهم، بأنه وهو الذي أنشأهم قد أوجد
 لهم من رزقه ما يحتاجونه في معاشهم من الغذاء والفاكهة، وأبرز لهم فيها
 حجته البالغة الدالة على كمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته وجوده
 وإحسانه، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على جملة كبيرة من البراهين
 الدالة على أن الله هو رب كل شيء وسيده ومليكه، مع ما اشتملت عليه من
 تذكير العباد بأن هذه الأدلة هي نِعَمُ الله عز وجل يجب على العباد أن يشكروا
 الله عليها ويخصوه بالعبادة، ولا يتوجهوا بشيء من العبادة لسواه. ومعنى
 قوله عز وجل : ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل
 شيء ﴾ أي والله المستحق للعبادة وحده الذى يفلق الحب والنوى ويخرج
 الحى من الميت ويخرج الميت من الحى الذى فلق الإصباح وجعل الليل سكنا

والشمس والقمر حسبانا، وجعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، وأنشأكم من نفس واحدة هو وحده الذى أنزل عليكم المطر وجعل الماء أصلا لكل شيء حي، وأخرج به من غذاء الأنعام والبهائم والطيور والوحش وأرزاق بني آدم وأقواتهم وفاكهتهم ما يتغذون به فينبتون عليه وينمون مدة استقرارهم على الأرض، وفي قوله: ﴿فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا﴾ لفت انتباهه إلى عظيم قدرة الله حيث أخرج من الحبة مادة خضراء لا وجود للحب فيها ثم يرتفع عودها وتحمل سنبله بها حب متراكب بعضه على بعض في نظام دقيق عجيب. وقوله: ﴿ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه﴾ لفت انتباه الناس إلى النخل وما يخرج منها من الثمرة حيث تكون في أول ظهورها كنعلين مُطْبَقَيْنِ والحملُ بينهما منضود والطَّرَفُ مُحَدَّدٌ ثم يتفتح، وقشره يسمى الكُفْرَى وهو وعاء الطَّلَع، والقِنوان جمع قِنْو وهو العِذْق، أى ومن النخل ما قنوانها دانية أى قريبة التناول بسبب قصر النخلة، ومنها ما قنوانها بعيدة لطول النخلة، وقد حذف القسم الثاني لدلالة الأول عليه كما قال: ﴿سرايل تقيكم الحر﴾ أى وسرايل تقيكم البرد، كما يلفت انتباه الناس إلى أشجار الأعناب والزيتون والرمان وما تحمل من ثمار وما يوجد بينها من التشابه في أشياء والاختلاف في أخرى ثم دعاهم إلى النظر في ثمره عند أول بُدُوِّه وعند نضجه ليشاهدوا عجائب صنع الله ولذلك قال: ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾.

قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجنَّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ * بديع السموات والأرض أنى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبة وخلق كلَّ شيءٍ وهو بكل شيءٍ عليم * ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيءٍ فاعبدوه ، وهو على كل شيءٍ وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ .

بعد أن ساق عز وجل جملة كبيرة من البراهين والحجج والأدلة الظاهرة الباهرة الدالة على أن الله عز وجل هو ربُّ كُلِّ شيءٍ وسيِّده ومليكه مع تذكير العباد بأن هذه الأدلة هي كذلك نعمَّ الله عز وجل يجب على العباد أن يشكروا الله عليها ويخصوه بالعبادة ولا يتوجَّهوا بشيءٍ من العبادة لأحد سواه ، شرع هنا في التنديد بمن جعل لله شريكا من خلقه وتوبيخ هؤلاء الذين ما قدروا الله حقَّ قدره فجعلوا الجنَّ شركاء لله ، واختلقوا له بنين وبناتٍ بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، والله الأسماء الحسنى والصفات العلى . وفي ذلك يقول : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجنَّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجنَّ وخلقهم ﴾ أي وقد اتخذوا الجنَّ أندادا لله عز وجل فعبدوهم واستعاذوا بهم واعتقدوا أنهم يدفعون عنهم الشر ، مع أن الجنَّ خلق من خلق الله وعبيد من عبيده نواصيهم بيده يتصرف فيهم كيف يشاء ويحكم فيهم بما يريد ، وقد خلق الله عز وجل الجنَّ من النار وخلق الملائكة من النور وخلق آدم من الطين ، وقد قال تبارك وتعالى : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ * وخلق الجنَّ من مارج من نار ﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخُلِقَ الجانُّ من نار، ، وخُلِقَ آدم مما وُصِفَ لكم . وقد أشار الله تبارك وتعالى في مواضع من كتابه الكريم إلى الذين ضلّوا فعبدوا الجن حيث يقول : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بئس للظالمين بَدَلًا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي وتخروصوا وكذبوا واختلقوا الله عز وجل بنين وبنات حيث زعمت اليهود أن العزير ابنُ الله ، وزعمت النصارى أن المسيح ابنُ الله ، وزعم بعض مشركي العرب أن الملائكة بناتُ الله . قال البخاري في كتاب بدء الخلق من صحيحه : قال مجاهد : ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا﴾ قال كُفَّار قريش : الملائكة بناتُ الله ، وأمهاتهنَّ بناتُ سَرَوَاتِ الجن ، قال الله : ﴿ولقد علمت الجنة إنهم لمْ خُضِرُوا﴾ سَخُضِرُ للحساب اهـ كما بين عز وجل أن الجن لا يعلمون الغيب حيث قال : ﴿فلما خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ فهؤلاء لم يقدروا الله حق قدره وهذا ولا شك من جهلهم بصفات الله تعالى ولذلك قال عز وجل ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ قال الزجاج : أي بَرَاءَتُهُ من السُّوء ، ومعنى سبحانه التبرئة عن كل سُوء ، لا اختلاف بين أهل اللغة في معنى التسبيح أنه التبرئة لله جل وعز اهـ وقال ابن جرير رحمه الله : القولُ في تأويل قوله : ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره : تَنَزَّ اللَّهُ وَعَلَا فارتفع عن الذي يصفه به هؤلاء الجُهْلَةُ من خلقه في ادِّعَائِهِمْ له شركاء

من الجن واختراقهم له بنين وبنات ، وذلك لا ينبغي أن يكون من صفته لأن ذلك من صفة خلقه الذين يكون منهم الجماع الذى يَحْدُثُ عنه الأولاد ، والذين تضطربهم لضعفهم الشهواتُ إلى اتخاذِ صاحبة لقضاء اللذات ، وليس الله تعالى ذكره بالعاجز فيضطره شيء إلى شيء ، ولا بالضعيف المحتاج فتدعوه حاجته إلى النساء إلى اتخاذِ صاحبة لقضاء لذة ، وقوله ﴿تعالى﴾ تفاعل من العُلُوِّ والارتفاع اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بيانٌ لاستحالة ما نسبوه إليه تبارك وتعالى من الشريك والولد وتقرير تنزهه عن ذلك بالدليل القاطع والبرهان الساطع ، قال ابن كثير رحمه الله : ﴿بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مُبْدِعُهُمَا وَخَالِقُهُمَا وَمُنْشِئُهُمَا وَمُحْدِثُهُمَا على غير مثال سبق كما قال مجاهد والسدي ، ومنه سميت البدعة بدعةً لأنه لا نظير لها فيما سلف ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي كيف يكون له ولد ﴿ولم تكن له صاحبة﴾ أي والولد إنما يكون متولداً بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه ؛ لأنه خالق كل شيء فلا صاحبة له ولا ولد ، كما قال تعالى : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا﴾ * لقد جئتم شيئا إداً﴾ إلى قوله ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَرْدًا﴾ ، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فَيَنَّ تعالى أنه الذى خلق كل شيء وأنه بكل شيء عليم فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه وهو الذى لا نظير له ، فأنى يكون له ولد؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ذَلِكُمْ إِلَهُ رَبِّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ * لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ تقرير لأنواع التوحيد الثلاثة وهي توحيد الله عز وجل في ربوبيته ، وتوحيده في ألوهيته ، وتوحيده في أسمائه الحسنَى وصفاته العلى ، ولا نجاة للعبد إلا بتحقيق توحيد الله في ربوبيته

وتوحيده في إلهيته وتوحيده في أسمائه الحسنی وصفاته العلی . والمشركون لا ينازعون في توحيد الربوبية فإنهم كانوا يقولون بأن الله هو خالق كل شيء حتى ألتهم ولذلك كانوا يقولون في تلييتهم في الحج : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ، لكن هؤلاء المشركين كانوا ينازعون في توحيد الألوهية المقتضي لوجوب إخلاص العبادة لله وحده ويقولون : أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ، وقد كانت أعظم وظائف المرسلين هي دعوة الناس إلى توحيد الله في ألوهيته وتعريفهم بأسمائه الحسنی وصفاته العلی حتى لا يشركوا به شيئاً على أن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية ، وأن توحيد الربوبية لا يتضمن توحيد الألوهية ، وقد اشتملت هاتان الآيتان الكريمتان على أنواع التوحيد الثلاثة ، فعرفت الناس بأن الله هو رب كل شيء وسيده ومليكه ومصلح شأنه ومدبر أمره وأنه وحده هو المستحق لأن يُعبد فلا يُشرك به شيء فلا إله إلا هو ، وأنه تعالى هو خالق كل شيء ، فالواجب على العباد أن يبذلوا له أقصى غاية الحب مع أقصى غاية الذل ، ويكون إخبارهم وإنابتهم إليه وتوكلهم عليه وطاعتهم له في أمره ونبيه واتباع رسله وتصديق كتبه فإنه تبارك وتعالى على كل شيء وكيل أي حفيظ رقيب يقوم بتدبير خلقه وأرزاقهم وأقواتهم يكلوهم بالليل والنهار ، وقد وصف عز وجل نفسه المقدسة بأنه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، ومعنى ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ أي لا تحيط به أبصار خلقه لجلاله وعظمته ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ أي وهو يحيط بكنه الأبصار وحقيقتها وكيفية إبصارها على الوجه الذي لا يشاركه فيه أحد من خلقه . قال الشيخ ابن أبي العز شارح العقيدة الطحاوية رحمه الله : فقوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ يدل على كمال عظمته ، وأنه أكبر من كل شيء ، وأنه لكمال عظمته لا يُدرك بحيث يُحاط به ، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء ، وهو قَدْر

زائدٌ على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾ * قال كلاً* فلم يَنْفِ موسى الرؤية وإنما نَفَى الإدراك، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالربُّ تعالى يُرى ولا يُدْرَكُ، كما يُعْلَمُ ولا يحاط به علماً، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية، كما ذكرت أقوالهم في تفسير الآية، بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ما هي عليه، وأما الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه الدالة على الرؤية فمتواترة، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن، فمنها حديث أبي هريرة أن ناساً قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا: قال: فإنكم ترونه كذلك، الحديث أخرجاه في الصحيحين بطوله، وحديث أبي سعيد الخدري أيضاً في الصحيحين نظيره، وحديث جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا جلوساً مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال: إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته. الحديث. أخرجاه في الصحيحين وحديث صهيب المتقدم رواه مسلم وغيره، وحديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: جنتان من فضة آيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن. أخرجاه في الصحيحين. ومن حديث عدي بن حاتم: وَلَيَلْقَيْنَ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، فيقول: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: ألم أعطك مالا وأفضل عليك؟ فيقول: بلى يا رب. أخرجه البخاري في صحيحه. وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابياً، ومن أحاط بها معرفة يقطع بأن الرسول قالها، ولولا

أني التزمت الاختصار لسقت ما في الباب من الأحاديث اهـ ولفظ حديث
 صهيب الذي أشار إليه ابن أبي العز قد ساقه بلفظ : قال : قرأ رسول الله ﷺ
 ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل
 النار النار ، نادى مُنَادٍ : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن
 يُنجزكموه ، فيقولون : ما هو؟ ألم يُثَقِّلْ موازيننا وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ويدخلنا
 الجنة ويُخْرِجَنَا من النار؟ فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئا
 أحبَّ إليهم من النظر إليه ، وهي الزيادة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَهُوَ
 اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ أي والله عز وجل هو الذي لا تخفى عليه خافية من خلقه
 سواء كانت في السموات أو في الأرض وهو الرفيق بعباده كما قال عز وجل :
 ﴿إِنهَا إِن تَكِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي
 الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ
 بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون ﴿ اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين ﴾ ولو شاء الله ما أشركوا ، وما جعلناك عليهم حفيظًا وما أنت عليهم بوكيل ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ، كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾ .

بعد أن ندد الله عز وجل بمن جعل لله شريكا من خلقه ووتج هؤلاء الذين ما قدرُوا الله حقَّ قدره فجعلوا الجنَّ شركاء لله ، واختلقوا له بنين وبنات بغير علم ، ونزّه نفسه المقدسة عما يصفه به هؤلاء الجاهلون ، وعرف عباده ببعض أسمائه الحسنی وصفاته العلی ، شرع هنا في تأكيد رسالة رسوله محمد ﷺ وبيان ما اشتمل عليه القرآن الكريم والحكمة التي جاء بها رسول الله ﷺ من الهدى والنور الذي يضيء لمن تمسك به سبيل الرشاد ، ويهدي إلى الصراط المستقيم ، ويبيّن للناس منهج سعادتهم وعزهم في الدنيا والآخرة ، لا يدع شيئا من الخير إلا دلّ الناس عليه ورغبهم فيه ، ولا يدع شيئا من الشر إلا نهى الناس عنه وحذّرهم منه ، وجعلهم على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك ، وعرفهم أن من اهتدى فلنفسه ومن ضل فلا يضر إلا نفسه ، وأن رسول الله ﷺ ليس عليه إلا البلاغ ، ونبّههم إلى أنه صرف الآيات وفصلها ليهتدي بها من يشاء الله هدايته ، ولتستبين سبيل المجرمين الذين لا يؤمنون بالكتاب ولا يصدقون بالرسالة ، وليعرفه الذين يعلمون ، وحضّ رسوله ﷺ على الاستمسك بالذي أوحى إليه ، والإعراض عن المشركين وواساه بأنه غير مسيطر على قلوب العباد وليس بمسئول عن معصية

العصاة، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَآئِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيزٍ ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَآئِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي قد جاءكم القرآن الذي يضيء لكم معالم معاشكم ومعادكم، وينير لكم طريق سعادتكم، وتدركون به ما ينفعكم وما يضركم، والبصائر جمع بصيرة، وهي النور الذي به يهتدي الإنسان إلى الصراط المستقيم، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ أي فمن استنارت بصيرته وانشرح صدره للإسلام واتبع هدى الله الذي جاء به محمد ﷺ فقد جلب الخير لنفسه وأنقذ نفسه من النار، ومن انطمست بصيرته، وعَمِيَ قَلْبُهُ فَكَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ فَإِنَّهُ يَضُرُّ نَفْسَهُ وَلَا يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا، ووبالُ عمله السيئ لا يتحملة أحد سواه . وقد بين الله تبارك وتعالى في محكم كتابه الكريم أن عَمَى العين لا يضر صاحبه عند الله عز وجل وإنما الذي يضر صَاحِبَهُ هو عَمَى القلب حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ فالعَمَى الحقيقي هو عَمَى القلب لا عَمَى العين، إذ رُبَّ إنسان عميت عينه هو أعظم بصيرةً من كثير من المبصرين، كما أن المراد من قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ هو عَمَى البصيرة لا عَمَى البصر، ولذلك قال عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ قال ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيرا * قال كذلك أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيزٍ ﴾ أي ولستُ عليكم بمسيطر، فلا سلطان على قلوبكم إلا الله وحده، وما على الرسول إلا البلاغ، وهذا تنبيه من الله لرسوله محمد ﷺ أن يقول لهم ذلك، مواساةً له، وإرغاماً لهم، وقولُهُ تبارك وتعالى :

﴿وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ به شبه من قوله تبارك وتعالى : ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِّلُ الْآيَاتِ وَلِنَتَسَبِّحَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ومعنى ﴿دَرَسْتَ﴾ أي عَلَّمَكَ القرآنَ بَشَرًا، كما حكى الله تعالى عنهم ذلك حيث يقول : ﴿وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ والواو في قوله تعالى : ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ للعطف على محذوف يدل عليه السياق أي لتلزمهم الحجة وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون ، وقال أبوحيان في البحر المحيط : ولا يتعين ما ذكره المُعَرَّبُونَ والمفسرون من أن اللام في ﴿وَلِيَقُولُوا﴾ لام كي أو لام الصيرورة ، بل الظاهر أنها لام الأمر والفعل مجزوم بها لا منصوب بإضمار أن ، ويؤيده قراءة من سَكَنَ اللام ، والمعنى عليه متمكن ، كأنه قيل : ومثل ذلك نَصْرَفُ الْآيَاتِ وليقولوا هم ما يقولون من كونك دَرَسْتَهَا وتَعَلَّمْتَهَا أو دَرَسْتَ هي أي بَلَيْتَ وَقَدِمْتَ ، فإنه لا يُحْفَلُ بهم ، ولا يُلْتَفَتُ إلى قولهم ، وهو أمرٌ معناه الوعيدُ والتهديدُ وعدمُ الاكتراث بهم وبما يقولون في الآيات ، أي نَصَرَفُهَا وَلَيَدَّعُوا فِيهَا ما شاءوا فلا اكتراث بدعواهم اهـ وضمير الغائب في قوله عز وجل : ﴿ولنبينه﴾ للقرآن أو الكتاب لأنه المقصود من قوله عز وجل : ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي استمسك بالذي أُوحِيَ إِلَيْكَ من سيدك ومالكك ومصلح أمرك ومدبر شأنك الذي لا معبود بحق سواه ، ولا تعباً ولا تلتفت إلى ما يقوله المشركون الذين يقولون : دَرَسْتَ ، ولا ينتفعون بما أنزله الله عليك من القرآن العظيم والذكر الحكيم ، فإنهم سيعلمون أنك على الحق ، وأنهم على

ضلالة ، فاثبت أنت ومن معك من المؤمنين على الحق الذى أُوحيَ إليك ، ولا تكثر بأذى المشركين ، فإنَّ العاقبة للمتقين ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ أي ولو أراد الله عز وجل إرادة كَوْنِيَّة أن لا يشركوا ما أشركوا ، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وقلوبُ عباده بيده وحده يهدي من يشاء فضلا ، ويضل من يشاء عدلا ، وما ربك بظلام للعبيد ، فمن علم الله فيه خيرا هداه ومن علم انتكاس قلبه وارتكاس نفسه أضله ، وليس ذلك إلا الله وحده ، ولذلك قال بعدها : ﴿وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي وما أرسلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بجَبَّارٍ تَقْهَرُهُمْ على ما تريد ، وتُكْرِهُهُمْ على ما تحب ، وما أنت بمهيمن عليهم ، ولست عليهم بمسيطر ، إن أنت إلا نذير ، وما عليك إلا البلاغ ، وفي هذا مواساة لرسول الله ﷺ وتثبيت لفؤاده ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ولا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . هذه الآية الكريمة ترشد إلى قاعدة جليلة من قواعد وأصول السياسة الشرعية التي لا غنى عنها للرعاي والرعية ، وهي تمثل صورة من صور الحكمة التي ينبغي لدعاة الهدى أن يتَحَلَّوْا بها المشار إليها في قوله عز وجل : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وكما قال عز وجل لموسى وهارون عليهما السلام لما بعثهما إلى فرعون : ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلَا لَيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ وقد نَبَّهَتْ هذه الآية الكريمة إلى أن الشيء قد يكون مشروعاً في الأصل لكن فعله في بعض الحالات قد يكون وسيلة إلى ارتكاب محظور يفوق مصلحته ويؤدي إلى مفسدة أكبر وأخطر ، والمعلوم من هَذِي الدين سَدُّ ذرائع الشر والفساد ، وأن درء المفسد مقدم على جلب المصالح وأن أكبر

الشَّرَّينِ يُدْفَعُ بِأَخْفَهِمَا فَلَوْ تَسَاوَتْ الْمَصْلَحَةُ مَعَ الْمَفْسَدَةِ تَرَكَ الْفِعْلَ لِدَرَةِ الْمَفْسَدَةِ فَمَا بِالْكَ لَوْ كَانَتْ الْمَفْسَدَةُ الَّتِي تَتَرْتَّبُ عَلَى الْفِعْلِ أَكْبَرَ؟ وَلِذَلِكَ نَهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْمَقَامِ الْكَرِيمِ مِنْ كِتَابِهِ الْعَظِيمِ عَنْ سَبِّ أَصْنَامِ الْمُشْرِكِينَ مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ مُسْتَحَقَّةٌ لِلْسَّبِّ وَالشَّتْمِ، لَكِنْ إِذَا كَانَ سَبُّهَا يُوْدِي إِلَى انْدِفَاعِ أَوْلِيَائِهَا حَتَّى يَفْقَدُوا شَعُورَهُمْ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللَّهَ أَكْبَرَ مِنْ آلِهَتِهِمْ لَكِنْهُمْ يَعْصُونَ عَنْ ذَلِكَ بِسَبَبٍ مَا اسْتَشَارَهُمْ مِنْ سَبِّ آلِهَتِهِمْ، فَيَحْمِلُهُمْ جَهْلُهُمْ وَتَسَرُّعُهُمْ وَحِمَاqَتَهُمْ عَلَى سَبِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَعْلِيلِ النَّهْيِ عَنِ الصَّلَاةِ فِي وَقْتِ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَغُرُوبِهَا: إِنْ النَّهْيُ إِنَّمَا كَانَ لِسَدِّ الذَّرِيعَةِ وَمَا كَانَ لِسَدِّ الذَّرِيعَةِ فَإِنَّهُ يُفْعَلُ لِلْمَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الصَّلَاةَ فِي نَفْسِهَا مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ وَأَعْظَمِ الْعِبَادَاتِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تَحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةَ. فَلَيْسَ فِيهَا نَفْسُهَا مَفْسَدَةٌ تَقْتَضِي النَّهْيَ، وَلَكِنْ وَقْتُ الطُّلُوعِ وَالْغُرُوبِ الشَّيْطَانُ يَقَارِنُ الشَّمْسَ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، فَالْمُصَلِّي حِينَئِذٍ يَتَشَبَّهُ بِهِمْ فِي جِنْسِ الصَّلَاةِ، فَالْسُّجُودُ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَ مَعْبُودَهُمْ وَلَا يَقْصِدُونَ مَقْصُودَهُمْ لَكِنْ يَشَبَّهُهُمْ فِي الصُّورَةِ، فَنَهْيٌ عَنِ الصَّلَاةِ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ حَتَّى يَنْقَطِعَ التَّشَبُّهُ بِالْكَفَّارِ، وَلَا يَتَشَبَّهُ بِهِمُ الْمُسْلِمُ فِي شَرْكِهِمْ، كَمَا نُهِيَ عَنِ الْخُلُوةِ بِالْأَجْنَبِيَّةِ، وَالسَّفَرِ مَعَهَا، وَالنَّظَرِ إِلَيْهَا لَمَّا يُفْضَى إِلَيْهِ مِنَ الْفَسَادِ، وَنَهَاها أَنْ تَسَافِرَ إِلَّا مَعَ زَوْجٍ أَوْ ذِي مَحْرَمٍ، وَكَمَا نَهَى عَنْ سَبِّ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ لِئَلَّا يَسْبُوا اللَّهَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَكَمَا نَهَى عَنْ أَكْلِ الْخَبَائِثِ لَمَّا يُفْضَى إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ التَّغْذِيَةُ الَّذِي يَقْتَضِي الْأَعْمَالَ الْمَنْهِيَّ عَنْهَا، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ. ثُمَّ إِنْ مَا نَهَى عَنْهُ لِسَدِّ الذَّرِيعَةِ يَبَاحُ لِلْمَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ، كَمَا يَبَاحُ النَّظَرُ إِلَى الْمَخْطُوبَةِ، وَالسَّفَرُ بِهَا إِذَا خِيفَ ضَيَاعُهَا كَسَفَرِهَا مِنْ دَارِ الْحَرْبِ مِثْلَ سَفَرِ أُمِّ كَلْثُومٍ وَكَسَفَرِ عَائِشَةَ

لما تخلفت مع صفوان بن المعطل فإنه لم يُثَبِّتْ عنه إلا لأنه يفضي إلى المفسدة ، فإذا كان مقتضيا للمصلحة الراجحة لم يكن مفضيا إلى المفسدة اهـ . وقد ساق شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين تسعة وتسعين وجها في الاستدلال لإثبات قاعدة سد الذرائع فَلْيَضَعْ دعاة الهدى نُصْبَ أعينهم أن الله عز وجل منع المسلم أن يعمل عملا جائزا يؤدي إلى محذور ، وأنه نهاه عن كل عمل فيه مصلحة إذا كان يترتب عليه مفسدة أكبر من هذه المصلحة ، وأن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها لأن ما يؤدي إلى الشر شر ، فلو رأيت إنسانا على مفسدة وعلمت أنك لو نهيته عنها ارتكب مفسدة أكبر منها لحماقته فإنك تكف عنه حتى تعلم أنه على حال يتقبل منك ، فالأمر بالمعروف قد يقبح إذا أدى إلى ارتكاب منكر ، والنهي عن المنكر قد يقبح إذا أدى إلى زيادة المنكر ، وغلبة الظن قائمة مقام العلم في هذا الباب . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وقوله : ﴿ زينا لكل أمة عملهم ﴾ هو بتوسط تزوين الملائكة والأنبياء والمؤمنين للخير ، وتزوين شياطين الجن والإنس للشر قال تعالى : ﴿ وكذلك زينَ لكثير من المشركين قتلَ أولادِهِم شركاؤُهم لِيُرْذُوهُم وَيَلْبِسُوا عليهم دينهم ﴾ اهـ ومعنى ﴿ ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾ أي ثم مرجع الجميع ومعادهم إلى الله فيجازيهم بالخير خيرا وبالشر شرا ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ .

قال تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنَنَّ بِهَا ، قُلْ إِنَّا الْآيَاتِ عِنْدَ اللّٰهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أوّل مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ .

بعد أن أكّد الله تبارك وتعالى رسالة رسوله ونبيه محمد ﷺ وبَيَّنَّ ما اشتمل عليه القرآن الكريم والحكمة التي جاء بها رسول الله ﷺ من الهدى والنور الذي يضيء لمن تمسك به سبيل الرشاد ويبين للناس منهج سعادتهم في الدنيا والآخرة ، ويجعلهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، شرع في تأكيد عناد المكذبين ومكابرتهم وسوء سلوكهم حيث لم يكتفوا بالآية الكبرى والبينة العظمى التي أيد الله عز وجل بها رسوله محمدا ﷺ وهي القرآن العظيم الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ، فعاندوا وكابروا وتخبطوا وراوغوا وُلَجُّوا إلى التحكم على رسول الله ﷺ فطلبوا منه ﷺ أن يأتيتهم بآية يقترحونها ، وبذلوا أقصى ما عندهم من تأكيدات الأيمان بالله لئن جاءتهم آية من هذه الآيات التي يقترحونها لِيُؤْمِنَنَّ بِهَا ، وقد اقترحوا أن يفجر لهم أرض مكة أنهارا وينابيع أو يكون له جنة من نخيل وعنب أو يكون له بيت من ذهب أو يصعد إلى السماء ويرويه بأعينهم مؤكدين أنهم لن يكتفوا بمشاهدتهم لِرُقِيِّهِ حتى يأتيتهم بكتاب من السماء يقرؤونه كما اقترحوا أن يكلمهم بعض موتاهم بأن محمدا هو رسول الله ، وقد جهل هؤلاء أن الآيات بيد الله وحده ، وتناسوا ما أكّده الله عز وجل في مواضع من كتابه الكريم بأن الآيات لا يأتي بها إلا الله عز وجل وأن رسول الله ﷺ ليس بيده المجيء بالآيات ، كما أنه ليس بيده هداية قلوب قومه ، وإنما هدايتهم بيد الله وحده ، وأن المجيء بالآيات المقترحة قد يكون سببا في إهلاكهم إذا كفروا بها بعد مجيئها ، كما قال عز وجل : ﴿قال الله إني مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ

منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ، قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالهلال والملائكة قبلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴿ وقال عز وجل في هذا المقام من سورة الأنعام : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴿ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وأقسموا بالله جهداً أيانهم ﴿ أي وحلفوا بالله مؤكدين أيانهم بكل ما يستطيعون من أنواع توكيد الأيمان ، وفي هذا إشارة إلى أنهم مع شركهم بالله فإنهم يعظمون الله ولكنهم لحماقتهم وعدم صبرهم على سماع سب أصنامهم قد يندفعون لسب الله عز وجل عدواً بغير علم ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ﴿ أي قالوا نقسم بالله لئن أتتنا آية خارقة مما نقترحها على محمد لنصدقن بمجيئها أنه رسول الله ، وأن ما جاءهم به حق من عند الله ، وقد أشار الله عز وجل إلى أن المسارعة إلى تأكيد الأيمان كذا وفجورا هو دأب هؤلاء المشركين إذ كانوا يعيرون على بعض السلوك المعوج الذي يقترفه اليهود والنصارى فيقسم هؤلاء المشركون بالله جهد أيانهم أنهم لو جاءهم نذير أدنى من موسى وعيسى ليكونن أهدى من اليهود والنصارى فلما جاءهم أعظم المنذرين وشيخ المرسلين محمد ﷺ ما زادهم إلا نفورا ، كما قال عز وجل : ﴿ وأقسموا

بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكوننَّ أهدى من إحدى الأمم فلما
 جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا * استكبارا في الأرض ومكر السيئ ، ولا
 يحقُّ المكر السيئ إلا بأهله ﴿ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ قل إنما الآيات عند
 الله ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المقترحين للآيات : إن الله هو وحده القادر على
 الإتيان بالآيات . ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وما يُشعِرُكُمْ أنها إذا جاءت لا
 يؤمنون ﴾ التفات للفت الانتباه بأن هؤلاء الذين يقترحون الآيات ويقسمون
 بالله أنهم يصدقون بها إذا جاءتهم قد لعب الشيطان بهم وانقادوا له فما
 يُذَرِّبُكُمْ أنها إذا جاءتهم آمنوا بها ، فإنَّ من طبع الله على قلبه لن يؤمن مهما
 رأى من الآيات ، ولو كان هؤلاء صادقين لكفاهم ما جاءهم من آية القرآن
 البينة وحجته الظاهرة ومعجزته القاهرة . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ونُفِّلْ
 أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي
 ونحول قلوبهم وأعينهم فلا يفقهون بقلوبهم ولا يبصرون بأعينهم ما يروونه من
 الأدلة والبراهين فيستمرون على ما كانوا عليه من العناد والمكابرة ولا ينتفعون
 بها اقترحوا من الآيات إذا جاءتهم فلا يؤمنون بها كما أنهم لم يؤمنوا بما أيدنا به
 رسولنا محمدا ﷺ من الحجة العظمى وهي القرآن الكريم وما شاهدوه من
 انشقاق القمر ، حيث كانوا كلُّما شاهدوا آية أعرضوا وقالوا سحر مستمر ،
 وكذبوا واتبعوا أهواءهم فَخَذَلْنَاَهُمْ وتركناهم في ضلالهم يتحирون ويترددون ،
 عقوبة لهم على عنادهم ومكابرتهم ، فإنَّ السيئة تجلب السيئة كما أن الحسنة
 تجلب الحسنة . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : فمن عمل بما علم
 أورثه الله عِلْمَ ما لم يعلم كما قال تعالى : ﴿ والذين اهْتَدَوْا زادهم هُدًى وآتاهم
 تقواهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظُونَ به لكان خيرا لهم وأشد
 تثبيتا ﴾ وإذا لا تيناهم من لدنا أجرا عظيما * ولهديناهم صراطا مستقيما ﴿
 وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ

ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم ، والله غفورٌ رحيم ﴿ وقال تعالى : ﴿ الله
 وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ وقال تعالى : ﴿ قد جاءكم
 من الله نورٌ وكتابٌ مبين * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ
 ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم ﴾ وشواهدُ
 هذا كثيرةٌ في الكتاب والسنة ، وكذلك مَنْ أَعْرَضَ عن اتباع الحق الذي يعلمه
 تبعاً لهواه فإن ذلك يُورثُهُ الجهل والضلال ، حتى يَغْمَى قلبُهُ عن الحق
 الواضح ، كما قال تعالى : ﴿ فلما زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ، والله لا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الْفَاسِقِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا ﴾ وقال تعالى :
 ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنُجِئَنَّكُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّةِ الْكُبْرَى ﴾
 الله وما يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ
 يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ وهذا استفهام نفى وإنكار ،
 أي وما يدريكم أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ، وأنا نقول أفئدتهم وأبصارهم كما
 لم يؤمنوا به أول مرة . وعلى قراءة من قرأ «إنها» بالكسر تكون جزماً بأنها إِذَا
 جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ، ونقول أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أَوَّلَ مَرَّةٍ ، ولهذا
 قال مَنْ قال من السلف كسعيد بن جبّير : إِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةِ
 بَعْدَهَا وَإِنَّ مِنْ عِقَابِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا ، وقد ثبت في الصحيحين عن
 ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ : عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ فَإِنَّ
 الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصَّدَّقُ
 وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّى يَكْتُبَ عِنْدَ اللهِ صِدْقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ، فَإِنَّ
 الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفَجْرِ ، وَإِنَّ الْفَجْرَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ
 يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يَكْتُبَ عِنْدَ اللهِ كَذَابًا . فأخبر النبي ﷺ أَنَّ
 الصَّدَقَ أَصْلٌ يَسْتَلْزِمُ الْبِرَّ ، وَأَنَّ الْكَذِبَ يَسْتَلْزِمُ الْفَجْرَ اهـ . وقال ابن تيمية
 رحمه الله أيضاً : وما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان قوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ

أفندتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿ وهذا من تمام قوله : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ * ونُقِلَّبُ أفندتهم وأبصارهم ﴾ الآية ، فذكر أن هذا التقلب إنما حصل لقلوبهم لَمَّا لم يؤمنوا به أول مرة ، وهذا عدم الإيمان اهـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في موضع آخر : هذه تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ ، منها قوله : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ والآية بعدها أشكلت قراءة الفتح على كثير بسبب أنهم ظنوا أن الآية بعدها جملة مبتدأة ، وليس كذلك لكنها داخلة في خبر أن . والمعنى : إذا كنتم لا تشعرون أنها إذا جاءت لا يؤمنون وأنا أفعل بهم هذا لم يكن قَسَمُهُمْ صدقا بل قد يكون كذبا ، وهو ظاهر الكلام المعروف أنها أنَّ المصدرية ولو كان « ونُقِلَّبُ » الخ كلاما مبتدأ لزم أن كل من جاءته آية قُلِّبَ فؤادُهُ ، وليس كذلك ، بل قد يؤمن كثير منهم اهـ وقد قلتُ في تفسير قوله تبارك وتعالى في الآية الخامسة عشرة من سورة البقرة : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عُتُوِّهِمْ وتمرُّدِهِمْ كما فعل بنظرائهم في قوله عز وجل : ﴿ ونُقِلَّبُ أفندتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ يعني نذرهم وتركهم فيه ونُمِّلِي لهم ليزدادوا إثما على إثمهم وضلالا فوق ضلالهم وعُتُّوا على عُتُوِّهِمْ ، والطغيان مجاوزة الحد والغُلُوُّ في الكفر ، والإسرافُ في المعاصي والظلم ، ومعنى « يعمهون » أي يتيهون في الضلالة ويتحiron ويتردَّدون ولا يهتدون سبيلا ، قال في القاموس المحيط العمَّةُ التحيرُ والتردُّدُ ، وقد عمَّ بالكسر فهو عمَّةٌ وعمامةٌ ، والجمع عمَّةٌ قال رؤبة :

وَمَهْمَهٍ أَطْرَافُهُ فِي مَهْمَهٍ أَعْمَى الْهُدَى بِالْجَاهِلِينَ الْعُمَّةِ
وَأَرْضَ عَمَّاهُ : لَا أَعْلَامَ بَهَا ، وَذَهَبَتْ إِلَيْهِ الْعُمَّةُ إِذَا لَمْ يَدْرِ أَيْنَ

ذَهَبَتْ اِهـ وقال ابن منظور في لسان العرب : قال ابن الأثير: العَمَّةُ في
 البصيرة كالعمى في البصر اِهـ هذا وقد أرشد الله تبارك وتعالى العباد إلى
 أسباب فوزهم ونجاتهم بالالتجاء إليه والاعتماد عليه والانتهاز عن معاصيه
 فقال : ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله
 لكل شيء قَدْرًا﴾ وقال عز وجل : ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن
 تصيبهم فتنةٌ أو يصيبهم عذاب أليم﴾ وقال عز وجل : ﴿ وإما يَنزَغَنَّكَ مِنَ
 الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ . وقال عز وجل :
 ﴿والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستَغْفَرُوا لذنوبهم
 ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك
 جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم وجناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم
 أجر العاملين﴾ وعلى العبد أن يكثر من سؤال الله عز وجل أن يُثَبِّتَهُ بالقول
 الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة وأن يقول : يا حي يا قيوم يا بديع السموات
 والأرض يا ذا الجلال والإكرام برحمتك أستغيث فأصلح لي شأني كُلَّهُ ولا
 تكلني إلى نفسي طرفة عين . والله در القائل :

إذا كان عون الله للعبد مسعفا تأتي له من كل شيء مراده
 وإن لم يكن عونٌ من الله للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهاده
 ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال تعالى : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ * وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون * ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون * أغير الله أبتغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزلٌ من ربك بالحق فلا تكوننَّ من الممترين * وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم ﴿

بعد أن أكد الله عز وجل ما وقع فيه المكذبون المشركون من العناد والمكابرة والمراوغة حيث لم يكتفوا بالآية العظمى والحجة الكبرى ولجؤوا إلى التحكم على رسول الله ﷺ حيث طلبوا منه أن يأتيهم بآية يقترحونها وبذلوا أقصى ما عندهم من تأكيد الأيمان بالله لئن جاءتهم آية من هذه الآيات المقترحة ليؤمنن بها ، وأمر نبيه ﷺ أن يقول لهم : إنما الآيات عند الله ، وبينَّ عز وجل أن قلوب العباد بيده يُصَرِّفُها كيف يشاء فيهدي من يشاء فضلاً ويضل من يشاء عدلاً ، شرع هنا في بيان الحكمة الداعية إلى ترك الإجابة إلى ما اقترحوه ، وتأكيد كذبهم في أيمانهم الفاجرة على أبلغ وجه وآكده وأنه تعالى لو أعطاهم ما طلبوه من إنزال الملائكة وإحياء الموتى حتى يكلموهم ويبينوا لهم أن محمداً هو رسول الله حقاً وصدقاً بل لو زاد على ذلك بأن يحشر عليهم كل شيء مما طلبوه ومما لم يطلبوه قُبلاً أي مواجهة وعياناً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ثم وصى رسوله محمداً ﷺ على ما يلاقيه من أذى قومه وتكذيبهم وعنادهم وبينَّ له أن إخوانه من الأنبياء والمرسلين قد لاقوا مثل الذى يلاقيه من أذى الشياطين المتمردين من الإنس والجن ، وأن الله عز وجل ناصرهم كما

نصرهم ، وأن أهل الكتاب موقنون بأن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا ، وأكد الله عز وجل أن كلمته نافذة ، وأن شريعته تامة لا محالة ، حيث يقول عز وجل : ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾ أي ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها بل لو أننا لم تقتصر على إيتائهم ما اقترحوه ههنا من آية واحدة من الآيات بل نزلنا إليهم الملائكة وشهدوا لهم بأن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا ، وأحيينا لهم الموتى فخطبهم وأخبروهم بأن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا ، وجمعنا لهم كل الخوارق والمعجزات وشاهدوها عيانا ، وشهدت لهم بأن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا ما كانوا ليؤمنوا ويصدقوا بأن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا إلا من هدى الله عز وجل منهم وشرح صدره للإسلام وانتفع بما جاء به محمد ﷺ ، فأما من سبقت شقوته وحقت عليه كلمة العذاب ، فإنه لن يؤمن مهما رأى من الآيات كما قال عز وجل : ﴿إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ إشارة إلى أن هؤلاء المشركين ليسوا سواء ، فأكثرهم قد غلبه الجهل وانطمست بصيرته فانسدت طرق الخير عن قلبه وسمعه وبصره ، ومنهم من لم يخلق الجهل قلبه وسمعه وبصره فلا يمنع أن يزول غطاء الغفلة الذي على قلبه وسمعه وبصره فيصدق بالحق الذي جاء به محمد ﷺ ويتغير حاله ، ويقبل هدى الله إذا شاء الله عز وجل ذلك ، وقوله عز وجل ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يؤحي

بعضهم إلى بعض زُخْرَفَ الْقَوْلِ غرورًا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴿١﴾ مَسُوقٌ لمواساة رسول الله ولخضه على الصبر على ما يلاقيه بيان أن عداوة صناديد المشركين له ﷺ ليست بدعا بل هي سنة الله التي قد خلت مع جميع النبيين والمرسلين حيث جعل الله عز وجل لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا مع أن الله عز وجل قادر على ردع هؤلاء المشركين ومنعهم من أذى الأنبياء والمرسلين لكنه يبتلي عباده الصالحين ليرفع درجاتهم بصبرهم على أذى المكذبين بهم من أقوامهم، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا، وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَد قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ، إِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ مُسَلِّئُهُ بِذَلِكَ عِمَّا لَقِيَ مِنْ كَفَرَةٍ قَوْمِهِ فِي ذَاتِ اللَّهِ وَحَآثًا لَهُ عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَا نَالَ فِيهِ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ يقول: وكما ابتليناك يا محمد بأن جعلنا لك من مشركي قومك أعداء شياطين يُوحِي بعضهم إلى بعض زخرف القول ليصدوهم بمجادلتهم إياك بذلك عن أتباعك والإيمان بك وبما جئتهم به من عند ربك، كذلك ابتلينا مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ بِأَنْ جَعَلْنَا لَهُمْ أَعْدَاءً مِنْ قَوْمِهِمْ يُوْذُونَهُمْ بِالْجَدَالِ وَالْخُصُومَاتِ، يقول: فهذا الذي امتحنتك به لم تُخَصِّصْ به من بينهم وحدك، بل قد عَمَّمْتُهُمْ بِذَلِكَ مَعَكَ لِأَبْتْلِيَهُمْ وَأَخْتَبِرَهُمْ مَعَ قُدْرَتِي عَلَى مَنْعِ مَنْ أَذَاهُمْ مِنْ إِيْذَانِهِمْ، فلم أفعَل ذلك إِلَّا لِأَعْرِفَ أُولِي الْعِزْمِ مِنْهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ، يقول: فاصبر أنت كما صبر

أُولُوا الْعِزْمَ مِنَ الرِّسْلِ اهـ . وقد ذكرت في تفسير الآية الرابعة عشرة من سورة البقرة ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ أن الشيطان هو المتمرد من الإنس والجن والدواب . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ، وَإِيجَاؤُهُمْ هُوَ وَسْوَستُهُمْ وَلَيْسَ مِنْ شَرِّ الْمَوْسُوسِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَتِرًا عَنِ الْبَصَرِ بَلْ قَدْ يَشَاهِدُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِمِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ وقاسمهما إني لكمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿ وهذا كلام مَنْ يَعْرِفُ قَائِلَهُ ، لَيْسَ شَيْئًا يُلْقَى فِي الْقَلْبِ لَا يُذَرِّي مِمَّنْ هُوَ ، وَإِبْلِيسُ قَدْ أُمِرَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ ، فَلَمْ يَكُنْ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُهُ آدَمُ ، وَهُوَ وَنَسْلُهُ يَرَوْنَ بَنِي آدَمَ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُمْ ، وَأَمَّا آدَمُ فَقَدْ رَأَاهُ ، وَقَدْ يَرَى الشَّيَاطِينَ وَالْجِنَّ كَثِيرٌ مِنَ الْإِنْسِ لَكِنْ لَهُمْ مِنَ الْاجْتِنَانِ وَالِاسْتِتَارِ مَا لَيْسَ لِلْإِنْسِ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ وفي التفسير والسيرة أن الشيطان جاءهم في صورة بعض الناس وكذلك قوله : ﴿كَمِثْلَ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ اهـ ومعنى قوله عز وجل : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي يوسوس بعضهم إلى بعض وَيُزَيِّنُونَ لَهُمُ الْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةَ الْمَعَادِيَةَ لِذَيْنِ اللَّهِ بِالْأَقْوَالِ الْمَزْخُوفَةِ الْمَمْوُهِةِ الْمَزِينَةِ الَّتِي لَا طَائِلَ تَحْتَهَا سِوَى مُحَارَبَةِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ لِيَغْتَرَّ بِهَا مَنْ سَمِعَهَا فَيُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَظَاهَرَهَا تَرِياقَ وَبَاطِنَهَا سَمَ زُعَافَ زُعَاقٍ ، وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ تأكيد على

أن كل شيء بقضاء الله وقدره ومشيتته ، وأن الله عز وجل لو شاء لَهَدَى الناس جميعاً ، وحُضَّ لرسول الله ﷺ على الصبر على ما يصيبه منهم ، ولذلك قال عز وجل : ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ أي دع أذاهم وتوكل على الله الذي بيده ملكوت كل شيء واصفح عنهم وأعرض عن الجاهلين . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقتربون ﴾ عطف على غرورا المفعول لأجله أي لِيُغَرَّوْا ولتصغى ، وما بينهما اعتراض ، كأنه قيل : يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول لِيُغَرَّوْهُم به ولتميل إليه أفئدتهم وليرضوه لأنفسهم بعد ما مآلت إليه أفئدتهم وليقتروا أي وليكتسبوا بموجب ارتضائهم له ما هم مقتربون له من القبائح ، قال أبوحيان رحمه الله : ترتيب هذه المفاعيل في غاية الفصاحة لأنه أولاً يكون الخداع فيكون الميل ، فيكون الرضا فيكون الفعل أي الاقتراف ، فكلُّ واحد مُسَبَّبٌ عما قبله اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أفغير الله أبغى حَكَمًا وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مُفَصَّلًا ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه مُنَزَّلٌ من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى لنبيه ﷺ : قل لهؤلاء المشركين بالله غَيْرُهُ ، الذين يعبدون غيره ﴿ أفغير الله أبغى حَكَمًا ﴾ أي بيني وبينكم ﴿ وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مُفَصَّلًا ﴾ أي مُبَيَّنًا ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ أي من اليهود والنصارى ﴿ يعلمون أنه مُنَزَّلٌ من ربك بالحق ﴾ أي بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ كقوله : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ وهذا شرط ، والشرط لا يقتضي وقوعه ، ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : لا أشك ولا أسأل اهـ وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿ وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا ، لا مُبَدِّلَ لكلماته ، وهو السميع العليم ﴾ بشارة لرسول

الله ﷻ وللمؤمنين بكمال الدين وانتصار الإسلام وبيان بأن هذا الكتاب
 المنزل على محمد ﷺ كامل من حيث ذاته كما هو كامل من حيث إنه مُنَزَّل من
 عند الله بالحق، وإشارة إلى أنه محفوظ من التغيير والتبديل ولن يستطيع أحد
 الزيادة فيه أو النقصان منه، كما قال عز وجل: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له
 لحافظون﴾ والمراد بكلمة الله عز وجل هنا القرآن الكريم إذ قد تطلق الكلمة
 ويراد بها الكلام كما قال ابن مالك في ألفيته: وكلمة بها كلام قد يُؤم. ومعني
 قوله عز وجل ﴿صدقا وعدلا﴾ أي صدقا في الأخبار وعدلا في الأحكام فكل
 ما أخبر به القرآن الكريم فهو حق لا مريّة فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو
 العدل والميزان القسط وكل ما نهى عنه فهو الباطل، وهو لا يأمر إلا
 بالمصلحة ولا ينهى إلا عن المفسدة. ومعني ﴿لا مبدل لكلماته﴾ أي لا رادّ
 لقضائه، ولا مُغيّر لحكمه، ولا خُلّف لوعده، وكل ما أخبر به فهو كائن
 وواقع في حينه وأجله الذي أخبر الله أنه واقع فيه. وقوله تبارك وتعالى ﴿وهو
 السميع العليم﴾ قال ابن جرير رحمه الله: فإن معناه: والله السميع لما يقول
 هؤلاء العادلون بالله، المقسمون بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننّ بها،
 وغير ذلك من كلام خلقه، العليم بما تؤول إليه أيمانهم من يرّ وصدق وكذب
 وحنث وغير ذلك من أمور عبادِهِ. اهـ

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَطَعْ أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ * إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ * فَكَلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنْ كَثِيرًا لِيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ * وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ، إِنْ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ * وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفُسْقٌ ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿ .

بعد أن أرشد الله العباد إلى وجوب الاحتكام إلى الله وحده وأنه لا يجوز لأحد أن يحتكم إلى غير الله عز وجل وقد تفضل الله تبارك وتعالى فأنزل القرآن العظيم مُفَصَّلًا وَاضِحًا ، وَاضِعًا للعباد أكمل المناهج وأصول الدين وقواعد الأحكام التي لا غنى للبشر عنها ، مرشدًا لهم إلى ما يحل لهم وما يحرم عليهم ، صالحًا لكل جيل وقبيل وزمان ومكان حتى تقوم الساعة ، لا يتغير ولا يتبدل ، شرع هنا في بيان أن الناس مهما كانوا لا يستطيعون أن يضعوا لأنفسهم قانونًا ونظامًا يُصْلِحُ دنياهم وآخرتهم ، وأنهم لو وضعوا نظامًا لكان مبناه على الظنّ والخُرس ، فإنهم يخضعون لشهواتهم المتناقضة وآرائهم القاصرة ، فمن اتَّبَعَهُمْ ضَلَّ وحاد عن الصراط المستقيم ، مع أن هذه الشريعة الكافية الشافية التي جاءت من عند الله قد بعث الله عز وجل بها النبي الأمي محمد ﷺ لِيُحِلَّ للناس الطيبات ويُحَرِّمَ عليهم الخبائث وَيَضَعَ عنه إِضْرَهُمُ والأغلال التي كانت عليهم ، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿ وَإِنْ تَطَعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ

إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١﴾ تحذيرٌ من سلوك منهج لم يشرعه الله عز وجل وبيانٌ أَنَّ الهدى هو في اتباع تعاليم الإسلام مهما قَلَّ سالكوها، وأن الضلال والضياع هو في اتباع آراء الناس وأهوائهم مهما كثر سالكوها ولو كانوا أكثر أهل الأرض، أي وإن تَبَّعَ أكثر من في الأرض ممن لم يهتدوا بشريعة الله يحيروك وَيُضَيِّعُوكَ عن الصراط المستقيم، لأنهم يخضعون في أحكامهم وقوانينهم وأنظمتهم لشهواتهم المتناقضة وما تُؤَثِّرُهُ بِيئَتُهُمْ فيهم، ولا يبنون أحكامهم إلا على الظن والخرص والرجم بالغيب، ولذلك رأينا أن الأنظمة التي لا تهتدي بنور الإسلام لا تلبث أن تتكشف عوراتها وتحتاج إلى تعديل وتبديل وتغيير، والإنسانُ قد يرى الشيء حسناً ثم لا يلبث أن يراه سيئاً والله در الشاعر إذ يقول :

يُقَضَى على المرء في أيام محتته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن
وقوله تبارك وتعالى : ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وعيد لمن ينحرف عن شريعة الله ويتبع هواه أو هوى غيره من
المنحرفين عن دين الله ، وَوَعْدٌ لِمَنْ يَنْقَادَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَهَدْيِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ
وتقريرٌ لمضمون الآية السابقة وتأكيدٌ لما أفادته من التحذير، وَمَنْ فِي قَوْلِهِ عَزَّ
وَجَلَّ : ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ للاستفهام وهي مبتدأ ويضلل هو
الخبر والجملة في موضع نصب بـيَعْلَمُ المقدرة ومثله قوله تعالى : ﴿لَنَعْلَمَ أَيُّ
الْحَزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾ قال الزجاج : وقوله : ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ
يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ موضع مَنْ رَفَعَ بالابتداء ولفظها لفظ استفهام . المعنى :
إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ أَيُّ النَّاسِ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وهذا مثل قوله : ﴿لَنَعْلَمَ أَيُّ
الْحَزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾ اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَكُلُّوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ
اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ شروع في تفصيل بعض الأحكام المنزلة في
الكتاب المُفَصَّل ، المُبَيَّنَّةُ لنعمة الله على المؤمنين بما أَحَلَّ لهم من الطيبات وما

حَرَّمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْخَبَائِثِ الْمُقْتَضِيَةِ لَجَلْبِ الْمَصَالِحِ لَهُمْ وَدَفْعِ الضَّرَرِ عَنْهُمْ ،
 الْمُؤَذِّنَةِ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَسْلُكُونَ صِرَاطَ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ ، الْفَاضِحَةِ لِمَا عَلَيْهِ أَعْدَاءُ
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ السَّفَاهَةِ وَالْجَهَالَةِ وَالضَّلَالَةِ وَاتِّبَاعِ أَهْوَاءِ الَّذِينَ يَضْلُونَهُمْ
 بَغَيْرِ عِلْمٍ ، وَيُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا . وَالْفَاءُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ
 وَجَلَّ : ﴿ فَكُلُوا ﴾ هِيَ الْفَصِيحَةُ كَأَنَّهُ قِيلَ : إِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّ الْحَلَالَ هُوَ مَا أَحَلَّ
 اللَّهُ ، وَأَنَّ الْحَرَامَ هُوَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، وَأَنَّ الْجَاهِلِينَ يَحْرِمُونَ وَيَحْلِلُونَ انْقِيَادًا
 لِأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ ، فَكُلُوا يَا مَنْ تَنَادَدُوا لِأَمْرِ اللَّهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ
 الذَّبِيحَةِ الَّتِي ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهَا عِنْدَ تَذَكُّيْتِهَا ، وَلَا تَأْكُلُوا الْمَيْتَةَ الَّتِي مَاتَتْ
 حَتْفَ أَنْفِهَا وَلَا مَا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ عِنْدَ ذَبْحِهِ ، مَا دُمْتُمْ قَدْ أَيْقَنْتُمْ بِأَنَّ
 حُكْمَ اللَّهِ هُوَ خَيْرُ الْأَحْكَامِ وَأَنَّ خَبْرَهُ هُوَ أَصْدَقُ الْأَخْبَارِ ، وَأَنَّ الْجَاهِلِينَ الَّذِينَ
 يَأْكُلُونَ الْمَيْتَاتِ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَ الَّذِينَ يَضْلُونَهُمْ بَغَيْرِ
 عِلْمٍ . وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ
 فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ تَحْرِيطٌ لِلْأَكْلِ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ
 اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَإِنْكَارٌ لِأَنَّهُ يَكُونُ هُنَاكَ سَبَبٌ يَحْمِلُهُمْ عَلَى تَرْكِ الْأَكْلِ مِمَّا ذُكِرَ
 اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَيْ وَأَيُّ سَبَبٍ حَاصِلٍ لَكُمْ فِي أَنْ لَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ
 عَلَيْهِ أَوْ وَأَيُّ غَرَضٍ لَكُمْ يَحْمِلُكُمْ عَلَى أَنْ لَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ،
 وَالْحَالُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ بَيَّنَّ لَكُمْ مَا حَرَّمَهُ عَلَيْكُمْ مِنْ أَكْلِ الْمَيْتَاتِ وَالْدَمِ
 الْمُسْفُوحِ وَلَحْمِ الْخَنْزِيرِ ، وَمَا أَهْلُ بِهِ لَغَيْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَأْكُلَ شَيْئًا
 مِنْ هَذِهِ الْمَحْرَمَاتِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُضْطَرًّا لِبَقَاءِ رَمَقِهِ فَإِنَّهُ يُجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَنَاوَلَ مِنْ
 ذَلِكَ بِقَدَرِ ضَرُورَتِهِ ، وَقَدْ كَانَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أَنْ جَعَلَ الطَّيِّبَاتِ الْمُبَاحَاتِ كَثِيرَةً
 جَدًّا ، وَخَصَّرَ الْمَحْرَمَاتِ وَفَصَّلَهَا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ فِي الْآيَاتِ الْمَكِّيَةِ
 وَالْمَدْنِيَةِ ، حَيْثُ قَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْمَكِّيَةِ : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا
 عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مُسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ

أَوْ فِسْقًا أَهْلًا لغير الله به ، فمن اضْطُرَّ غير باغ ولا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ وقال عز وجل في سورة النحل وهي مكية : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهْلًا لغير الله به فمن اضْطُرَّ غير باغ ولا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَمْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ ﴿٢﴾ وقال في سورة البقرة وهي مدنية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهْلًا بِهِ لغير الله فمن اضْطُرَّ غير باغ ولا عادٍ فلا إثم عليه ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ وقال عز وجل في سورة المائدة وهي مدنية : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهْلًا لغير الله به وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَلِكَمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَثْسِرُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : إِنْ الْكِتَابَ وَالسَّنَةَ قَدْ عَلَّقَا الْحِلَّ بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ وَفِي الصَّحِيحِينَ أَنَّهُ قَالَ : مَا أَنَهَرَ الدَّمَ وَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوا . وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ لِعَدِيِّ : إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ الْمُعَلَّمُ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ فَقَتَلَ فَكُلْ ، وَإِنْ خَالَطَ كَلْبُكَ كَلَابُ أَخْرَ فَلَا تَأْكُلْ ، فَإِنَّكَ إِنَّمَا سَمَّيْتَ عَلَى كَلْبِكَ ، وَلَمْ تُسَمِّ عَلَى غَيْرِهِ ، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ الْجَنَّ سَأَلُوهُ الزَّادَ لَهُمْ وَلَدَوَاهِبَهُمْ فَقَالَ : لَكُمْ

كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عُلِفَا لِدَوَابِكُمْ .
قال النبي ﷺ: فَلَا تَسْتَنْجُوا بَهَا، فَإِنَّهَا زَادُوا إِخْوَانَكُمْ مِنَ الْجَنِّ، فَهُوَ ﷺ لَمْ
يُخَّ لِلْجَنِّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا مَا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَكَيْفَ بِالْإِنْسِ أَهـ . وَقَوْلُهُ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تَأْكِيدٌ لِلتَّنْذِيرِ
بِالْجَاهِلِينَ الَّذِينَ يُحَرِّمُونَ وَيُحَلِّلُونَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ انْقِيَادًا لِّشَهَوَاتِهِمْ وَاتِّبَاعًا لِّمَا
يُوحِيهِ إِلَيْهِمْ شَيَاطِينُهُمْ، وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَجَادِلُونَ الْمُسْلِمِينَ فِي شَأْنِ أَكْلِ
الْمَيْتَةِ وَيَزْعَمُونَ أَنَّهَا أَفْضَلُ مِنَ الْمَذْكَاةِ، وَيَزْخَرُونَ كَلَامَهُمْ بِأَنَّ الْمَيْتَةَ قَتَلَهَا اللَّهُ
وَالْمَذْكَاةَ قَتَلَهَا النَّاسُ وَمَا قَتَلَهُ اللَّهُ أَفْضَلُ مِمَّا قَتَلَهُ النَّاسُ، يَحَاوِلُونَ بِذَلِكَ
إِضْلالَ الْمُسْلِمِينَ وَالتَّغْيِيرَ بِهِمْ فَتَنَدَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْجَاهِلِينَ
مُبَيِّنًا أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ الْهَوَى وَالشَّهْوَةَ بِلا بَصِيرَةٍ وَلَا عِلْمٍ ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ
فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أَيُّ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِهَؤُلَاءِ
الضَّالِّينَ الْمُضِلِّينَ الَّذِينَ يَتَجَاوَزُونَ حُدُودَ اللَّهِ وَيَعْتَدُونَ بِتَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ
وَتَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَسَيُجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ، وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:
﴿وَذَرُّوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ، إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا
يَقْتَرِفُونَ﴾ أَمَرَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِتَرْكِ الْمَعَاصِي ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا وَسَرِّهَا
وَعَلَانِيَتِهَا سِوَاءَ كَانَتْ فِي الْمَطَاعِمِ كَالْمَيْتَةِ وَمَا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ أَوْ فِي
الْمَشَارِبِ كَالْخَمْرِ أَوْ فِي الْمَنَاحِكِ كَالزَّنا وَالطَّوَافِ عَرَاةً، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا
تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ وَكَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ
رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ وَقَدْ تَوَعَّدَ مَنْ يَكْتَسِبُ الْإِثْمَ بِالْوَعِيدِ
الشَّدِيدِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ . قَالَ
ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: يَقُولُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: إِنَّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِمَا
نَهَايَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ وَيَرْكَبُونَ مَعَاصِيَ اللَّهِ وَيَأْتُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ يَقُولُ:
سَيُجْزِيهِمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَعْمَلُونَ مِنْ مَعَاصِيهِ أَهـ . وَقَوْلُهُ

تبارك وتعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي ولا تأكلوا أيها المؤمنون مما مات حتف أنفه أو لم يذكر اسم الله عليه عند ذبحه ، وما أهل به لغير الله فَإِنَّ أكل ذلك فسق وانقيادٌ للشيطان وخروجٌ عن طاعة الرحمن ، وقوله عز وجل : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ قال الترمذي : حدثنا محمد بن موسى البصري الحرشي حدثنا زياد بن عبد الله البكائي حدثنا عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس قال : أتى أناس النبي ﷺ فقالوا : يا رسول الله أناكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل الله ؟ فأنزل الله : ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . قال ابن كثير : وقال الطبراني : حدثنا علي بن المبارك حدثنا زيد بن المبارك حدثنا موسى بن عبد العزيز حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خَاصِمُوا محمداً وقولوا له : فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح الله عز وجل بشمشير من ذهب يعني الميتة فهو حرام ! فنزلت هذه الآية : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي وإن الشياطين من فارس ليوحون إلى أوليائهم من قريش . وقال أبو داود : حدثنا محمد بن كثير أخبرنا إسرائيل حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ يقولون ما ذبح الله فلا تأكلوه وما ذبحتم أنتم فكلوه فأنزل الله : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ورواه ابن ماجه وابن أبي حاتم عن عمرو بن عبد الله عن وكيع عن إسرائيل به ، وهذا إسناد صحيح اهـ .

قال تعالى : ﴿ أومن كان ميتة فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زُيِّنَ للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ * وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ﴾ * وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نُؤْتَى مثل ما أُوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾ * فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ * وهذا صراط ربك مستقيما ، قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ﴾ .

بعد أن بيَّنَ الله تبارك وتعالى أن الناس لا يستطيعون أن يضعوا لأنفسهم نظاما وقانونا يُضِلُّحُ دنياهم وآخرتهم ، وأنهم لو وضعوا نظاما لكان مبناه الظن والخرص واتباع أهوائهم وشهواتهم ، وأن من اتبعهم على ذلك ضل عن سواء السبيل ، وأن الصراط المستقيم هو ما شرعه العليم الخبير ، وأرسل به رسله وبعث به النبي الأمي محمدا ﷺ الذي جاء بالشرعية الكاملة الشاملة التامة الصالحة لكل زمان ومكان وجيل وقبيل ، وأن الحلال هو ما أحله الله وأن الحرام ما حرَّم الله ، وحضَّ عباد الله على الأكل من المباحات الطيبات وحذرهم من المعاصي عموما ومن أكل الميتات وما لم يذكر اسم الله عليه خصوصا ونَدَّدَ بالمشرِكين الذين يجادلون المسلمين في المِيتاتِ وما لم يذكر اسم الله عليه ، شرع هنا في بيان أن المسلمين هم الأحياء حقيقة وأنهم يسلكون منهجهم على نور وبصيرة ، وأن المشرِكين وسائر الكافرين أموات ، صُمُّ وبكم في الظلمات ، قد ضلُّوا سواء السبيل ، بسبب ما زينته لهم شياطين الإنس والجن ، ثم واسبى رسوله محمدا ﷺ وبين له أنه كما جعل في قريته مكة

أكابر ورؤساء من المجرمين يدعون إلى الكفر ويصدون عن سبيل الله كأبي جهل وأبي لهب وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة وأمّية بن خلف وأمّناهم، كذلك جعل لكل نبي عدوا من المجرمين هم كبراء قومهم وهم لا يضرّون إلا أنفسهم ثم توعدّهم بالصغار عند الله والعذاب الشديد حيث يقول عز وجل: ﴿أَوْمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ والمقصود من قوله تبارك وتعالى: ﴿أَوْمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ تنفير المسلمين عن طاعة المشركين بالإشارة إلى أن المسلمين مستضيئون بأنوار الوحي الإلهي وأن المشركين مستغرقون في ظلمات الكفر والجهل، فكيف يتأتى من مسلم أن ينقاد لكافر؟ والهمزة للاستفهام المقصود منه الإنكار والنفي، والمراد وجوب الاعتصام بالرسالة والعض عليها بالنواجذ، وعدم الالتفات إلى ما يليقه الكفار من الشبه تبعاً لما يوحيه إليهم شياطينهم من زخرف القول غرورا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «قاعدة نافعة في وجوب الاعتصام بالرسالة» وبيان أن السعادة والهدى في متابعة الرسول ﷺ، وأن الضلال والشقاء في مخالفته، وأن كل خير في الوجود إما عام وإما خاص فمنشؤه من جهة متابعة الرسول وأن كل شر في العالم مختص بالعبد فسببه مخالفة الرسول أو الجهل بما جاء به، وأن سعادة العباد في معاشهم ومعادهم باتباع الرسالة، والرسالة ضرورة للعباد، لا بُدّ لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة رُوح العالم ونوره وحياته، فأبى صلاح للعالم إذا عَدِمَ الروح والحياة والنور، والدنيا مُظْلِمَةٌ ملعونة إلا ما طلعت عليه شمسُ الرسالة، وكذلك العبد ما لم تُشرق في قلبه شمسُ الرسالة، ويناله من حياتها

ورُوحَهَا فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿أَوْمَن كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ فهذا وصف للمؤمن كان مَيِّتًا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورا يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات، وَسَمَّى الله تعالى رسالته رُوحًا، والروح إذا عُدِمَ فَقَدْ فَقِدَت الحياة، قال الله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك رُوحًا من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ وَلَكِنْ جعلناه نورا نَهْدِي به من نشاء من عِبَادِنَا﴾ فذكر هنا الأصلين وهما الروح والنور، فالروحُ الحياة، والنورُ النُورُ اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تأكيد لما تقرر من أن الهدى هدى الله، فمن هداه الله زين في قلبه الإيمان وحببه إليه وكرهه إليه الكفر والفسوق والعصيان ووقفه للخيرات، ومن لم يهده الله خذله فاستهوته الشياطين وأوحت إليه زخرف القول غرورا، وانتكس، وَزُيِّنَ له سُوءُ عمله فرآه حسنا، وانصرف عن آيات الله كما قال عز وجل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ وقوله عز وجل: ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾ مواساة لرسول الله ﷺ ببيان أنه عز وجل كما جعل في قريته مكة أكابر ورؤساء من المجرمين يصدون عن سبيل الله وَيُذَبِّرُونَ الشر ضد رسول الله ﷺ والمؤمنين كذلك جعلنا لكل نبي عَدُوًّا من المجرمين يصدون عن سبيل الله وَيُذَبِّرُونَ الشر ضد رسل الله عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين بهم فَرَجَعَ سُوءَ مَكْرِهِمْ عَلَيْهِمْ ونصر الله رسله وأهلك عدوهم. كما أشار تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعا يعلم

ما تكسب كل نفس ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ﴿ وكما قال عز وجل في
 قوم صالح عليه السلام : ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض
 ولا يصلحون ﴾ قالوا تقاسموا بالله لنبيئنه وأهلّه ثم لنقولنّ لوليه ما شهدنا
 مهلك أهله وإننا لصادقون ﴾ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ﴾
 فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾ فتلك بيوتهم
 خاوية بما ظلموا ، إن في ذلك لآية لقوم يعلمون ﴿ وقوله تبارك وتعالى :
 ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ، الله أعلم
 حيث يجعل رسالته ﴾ تنبيه وتأکید على أن هؤلاء الأكابر المجرمين المجادلين
 بالباطل المغرورين الماكرين المكر السيء المقترحين للآيات قد بلغ بهم الجهل
 والحسد والغرور أنهم لو جاءتهم آية من الآيات التي يقترحونها فإنهم لن
 يؤمنوا بالرسول بل يتحكمون في رحمة الله ويطلبون أن يجيء الوحي بالرسالة
 لهم كما جاء الوحي إلى رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، وجهل هؤلاء
 الحاقدون الحاسدون المغرورون أن الرسالة ليست منصبا يحصل عليه من
 يشتهي بل هي منصب يختار الله عز وجل له صفوة عباده الصالحين وكلمة
 خلقه المظهرين الطاهرين المصطفين الأخيار ، الذين رباهم الله عز وجل على
 عينه وهبأهم لهذا المنصب الجليل ، ولذلك قال هنا : ﴿ الله أعلم حيث يجعل
 رسالته ﴾ أي هو أعلم حيث يضع رسالته ، ومن يصلح لها من خلقه ، كما
 قال عز وجل : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، إن الله سميع
 بصير ﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله
 عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى
 قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني
 هاشم . ولا شك أن الرسل كانت تبعث في نسب قومها . وقد أشار الله
 تبارك وتعالى إلى هذا التعنت في غير موضع من كتابه الكريم حيث يقول :

﴿بل يريد كُلَّ امرئٍ منهم أن يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ وقوله تبارك وتعالى :
﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾
وعيد لهؤلاء المجرمين بالخزي العظيم والعذاب الشديد الأليم يوم القيامة بين
يَدَي رَّبِّ العالمين وأحكم الحاكمين بسبب تعنتهم وتكبرهم ومكرهم السيء ،
والصَّغَارُ هو الذُّلُّ والضميم والهوان ، قال أبو اسحاق إبراهيم بن السَّريِّ
الزجاجُ : ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي هم وإن كانوا أكابر
في الدنيا سيصيبهم صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ أي مَذَلَّةٌ اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَمَنْ
يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدْ أَن يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا
حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ﴾ المقصود من الإرادة في هذا المقام الكريم هي الإرادة الكونية
القدرية ، والمراد من الهداية هنا هو التوفيق والإعانة والتسديد ، ومعنى :
﴿يُشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أي يفسح قلبه ويوسعه لقبول الحق الذي جاء به
رسول الله ﷺ ويُوَفِّقُهُ عليه ويسهله له ويزينه فيه ويفرحه به بلطفه ومعونته
حتى يستنير الإسلام في قلبه فيضيء له ويحس بحلاوته ولذته ، وتخالط
بشاشته شغاف قلبه فلا يُقَدِّمُ عليه نفسا ولا والدا ولا ولدا ولا بلدا ولا شيئا
من متاع الحياة الدنيا مهما كان . ومعنى قوله عز وجل : ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا
حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي يجعل قلبه ضيقا أشد الضيق لا يتسع
لشيء من الهدى ، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان ولا ينفذ فيه ، كأنه كُلفَ
بالصعود إلى السماء ، حيث يعجز وينقطع تَنَفُّسُهُ . قال الزجاج : الحَرَجُ في
اللغة أَضْيَقُ الضيق . وقال ابن منظور في لسان العرب : وَتَصَعَّدَ النَّفْسُ :
صَعِبَ تَحَرُّجُهُ ، وهو الصُّعْدَاءُ وقيل الصُّعْدَاءُ النَّفْسُ إلى فوق ممدود ، وقيل
هو النَّفْسُ بِتَوَجُّعٍ وهو يتنفس الصعداء ويتنفس صُعْدًا ، والصُّعْدَاءُ : هي
المشقة أيضا اهـ ولا شك أن من خذله الله عز وجل يصير صدره ضيقا أشد

الضيق إذا سمع دلائل التوحيد والرسالة والبعث بعد الموت فيثقل عليه ذلك وتضعف إرادته عن ترك ما هو عليه من الباطل الذي زُخِرَفَ في قلبه ولم ينشرح صدره إلا للكفر والضلال ويكون مثلهُ مثل من صعد في طبقات الجو العليا حيث يشعر بضيق شديد في التنفس ، وكلما صعد في جو السماء أكثر شعر بضيق أشد ، والعربُ يعرفون أن الإنسان إذا طلع جبلا فإنه كلما ازداد في الصعود ضاق تنفسه . وقد أدرك العلماء في عصرنا أن في هذه الآية معجزة من معجزات القرآن بعد أن تمكن البشر من الصعود إلى طبقات الجو العليا بالطائرات و(الصواريخ) وأدركوا يقينا أن طبقات الجو العليا أقل كثافة في الهواء من الطبقات التي هي أسفل منها ، وأنه كلما صعد الإنسان إلى طبقة أعلى شعر بضيق التنفس والخرج الشديد في الصدر. وقوله عز وجل :

﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ أي كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقا حرجا كأنها يَصْعَدُ في السماء فإنه يخذل الذين علم أنهم لن يؤمنوا فتثقل عليهم أدناس أوزارهم ، وَيُطَبِّقُ الرَأُّ على قلوبهم ، فلا ينفكون عن أسباب عذابهم وشقوتهم ، وَيَضِيقُونَ بالحق ، ولا تنشرح صدورهم للإسلام . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وهذا صراطُ ربك مستقيما ، قد فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره : وهذا الذي بَيَّنَّا لك يا محمد في هذه السورة وغيرها من سور القرآن هُوَ ﴿صراطُ ربك﴾ يقول : هو طريق ربك ودينه الذي ارتضاه لنفسه دينا ، وجعله مستقيما لا اعوجاج فيه ، فاثْبُتْ عليه ، وَحَرِّمْ ما حرَّمته عليك ، وأحلل ما أحلته لك فقد بينا الآيات والحُجَجَ على حقيقة ذلك وصحته ﴿لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ يقول : لمن يتذكر ما احتج الله به عليه من الآيات والعبر فيعتبر بها ، وخص بها الذين يتذكرون لأنهم هم أهل التمييز والفهم ، وأولوا الحجى والفضل اهـ .

قال تعالى : ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ *
 ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من
 الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا، قال النار
 مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم * وكذلك نولي
 بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون * يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم
 رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا شهدنا
 على أنفسنا وغررتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين *
 ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون * ولكل درجات مما
 عملوا ، وما ربك بغافل عما يعملون﴾ .

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى أن دين الإسلام هو صراط الله المستقيم ، وأن
 أهل الفهم والوعى والعقل هم الذين يعقلون عن الله ورسوله وتنفعهم
 الذكرى شرع هنا في بيان مآل من تمسك بصراط الله المستقيم ومآل من انقاد
 لشياطين الجن والإنس ، وجعل الله على قلوبهم الرجس ، حيث يقول عز
 وجل في مآل السعداء : ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ﴾ ثم يقول في مآل الأشقياء : ﴿ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد
 استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض
 وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ، قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله
 إن ربك حكيم عليم﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ولكل درجات مما عملوا وما
 ربك بغافل عما يعملون﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ
 وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي للمتبعين دين الإسلام ، السالكين صراط
 الله المستقيم دار السلام وهي الجنة المعدّة لهم عند ربهم جزاء لهم بما كانوا
 يعملون من طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ التماساً لرضوان الله ورحمته ،

والله عز وجل وَلِيُّ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ في الدنيا والآخرة، يشبّتهم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والذين يتولاهم الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، فهم في رعاية الله وعنايته وتأييده ونصره كما قال عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ وإنما سميت الجنة دار السلام لسلامة أهلها من العاهات والآفات والأمراض والأوصاب، كما روى مسلم من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادي مناد: إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا. وجميع حالاتها مقرونة بالسلام، حيث يقول عز وجل: ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلامٌ عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار﴾ وكما قال عز وجل: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ وقد امتنَّ الله تبارك وتعالى على عباده بأنه يدعوهم إلى الجنة دار السلام حيث يقول: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ومعنى قوله: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾ أي ويوم يحشر هؤلاء المشركين المغرورين مع أوليائهم من شياطين الجن والإنس الذين كانوا يوحون إليهم زخرف القول غرورا ليجادلوا به المؤمنين فيما حرمه الله من الميتة، فيجمعهم

جميعا في موقف القيامة ويقول لشياطين الجن موبخا لهم : يا معشر الجن قد
 أضللتم كثيرا من الإنس واستكثرتهم من إضلالهم وإغوائهم ، كما قال عز
 وجل : ﴿ أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ
 * وَأَنْ اعْبُدُونِي ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ
 تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا
 اسْتَمِعْ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ أي وقال أولياء
 شياطين الجن الذين أطاعوهم من الإنس في التكذيب بدين الله واتبَعُوهم في
 مجادلة المؤمنين ومحاولة صدهم عن سبيل الله معتردين إلى الله عز وجل يوم
 القيامة حين لا تنفع الظالمين معذرتهم نادمين حين لا ينفع الندم : ﴿ رَبَّنَا
 اسْتَمِعْ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ أي اندفعنا في التمتع
 بما يوحيه كل واحد منا إلى صاحبه مغترين بذلك حتى صرنا نتلذذ بطاعة
 بعضنا لبعض ، ونسارع إلى هواه غير ناظرين إلى عواقب ما نحن عليه من
 المتاع الزائل القليل وعِشْنَا عَلَى ذَلِكَ مَدَّةَ حَيَاتِنَا الدُّنْيَا الَّتِي قَدَّرْتَ أَجَلَنَا
 فِيهَا ، حَتَّى فَارَقْنَا ذَلِكَ بِالْمَوْتِ ، قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ الْمَحِيطِ :
 وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَتَاعَ وَالتَّمَتُّعَ وَالِاسْتِمْتَاعَ وَالتَّمَتُّعَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ ،
 وَمَعَانِيهَا وَإِنْ اخْتَلَفَتْ رَاجِعَةٌ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ ، قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : فَأَمَّا الْمَتَاعُ فِي
 الْأَصْلِ فَكُلُّ شَيْءٍ يُتَمَتَّعُ بِهِ ، وَيُتَبَلَّغُ بِهِ وَيُتَزَوَّدُ وَالْفَنَاءُ يَأْتِي عَلَيْهِ أَهْدَى وَقَدْ أَشَارَ
 اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى حِرْصِ الْجَاهِلِينَ عَلَى الْإِسْتِمْتَاعِ بِحُظُوظِهِمْ الْخَسِيسَةِ مِنْ
 الشَّهَوَاتِ الْفَانِيَةِ وَالتَّهَائِهِمْ بِهَا عَنِ النَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ الْحَقَّةِ حَيْثُ يَقُولُ عَزَّ
 وَجَلَّ : ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا
 فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
 بِخَلَاقِهِمْ وَخُضِعْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا

إلا ما شاء الله ﴿ هذا خبر من الله تبارك وتعالى عما هو قائل لشیاطین الجن وأولیائهم من الإنس يوم القيامة ، وأخرج الخبر عما هو كائن مُخْرَجَ الخبر عما كان لتقدم الكلام قبله بمعناه ولتحقق وقوعه ، أي قال الله لأولیاء الجن من الإنس ولشیاطینهم من الجن الذين تقدم خبره عنهم : ﴿ النار مثواکم ﴾ أي نار جهنم هي مقر إقامتکم الذي تثوون فيه أي تُقيمون فيه ﴿ خالدين فيها ﴾ أي لا یثنین فيها غیر مخرجین منها ، وقوله عز وجل : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ تنبيه إلى أنه ليس كل من یدخل جهنم یخلد فيها لأنه لا یخلد فيها إلا من مات على الشرك الأكبر ، ولا شک أن طاعة شیاطین الجن والإنس تكون في الشرك بالله عز وجل وفيما دون الشرك من المعاصی كالزنا والسرقة وشرب الخمر وغير ذلك من الفواحش وکبائر السيئات ، ولما كان الخلود الأبدي السرمدي في النار إنما یكون لمن مات على الشرك الأكبر ، أما من مات من أهل الکبائر على الإیمان وأوبقته سيئاته في نار جهنم فإنه لا یخلد فيها وإنما یخرج منها بعد أن تمتحشه النار ، ویقبل الله عز وجل فيه شفاعۃ الشافعين أو یخرجه بمحض فضله فقد روى البخاري من حديث عمران بن حصین قال : قال رسول الله ﷺ : ینخرج أقوام من النار بشفاعة محمد ﷺ فیدخلون الجنة ویُسَمَّونَ الجهنميين . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعید الخدری رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يقول الله تعالى : من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إیمان فأخرجوه فیخرجون قد امتحشوا وعادوا حمما فیلْقَوْنَ في نهر الحياة ، فینبتون كما تنبت الحبة في حمیل السیل ، ألم تروا أنها تخرج صفراء ملتوية . وقوله عز وجل : ﴿ إن ربک حکیم علیم ﴾ تأکید على أنه عز وجل یری من یشاء فضلا ویضل من یشاء عدلا وأن کل شیء یجری بمشیئته وحکمته وعلمه ومن ذلك إحلاله المؤمنین دار السلام وعقابه للمجرمین بالعذاب الغرام ، وقوله

تبارك وتعالى : ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون﴾ إلى قوله : ﴿ولكل درجات مما عملوا ، وما ربك بغافل عما يعملون﴾ تهيب من الظلم العظيم وهو الشرك بالله الذي لا يغفره الله إلا بتوبة منه ، وقد حرم الله الجنة على من مات مشركا ، وإشارة إلى أن الإصرار على المعصية يجلب المزيد من المعاصي ، وتأكيذ على أن من يشاقق الرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين يخذله الله ويؤليه ما تولى ، وتنبيه على عموم مشيئة الله وحكمته وعلمه وعدله ورحمته ، ولذلك أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، ليقطع عذر الكافرين حتى لا يقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير ، وتقرير بأن الله عز وجل لا تخفى عليه خافية من عمل عباده مهما كان ، وأنه يجزي كل عامل بما عمل ، ولا يظلم ربك أحدا ، ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون﴾ أي وهكذا نكل بعض الظالمين إلى بعض خذلانا منا لهم ، جزاء وعقوبة على إصرارهم على المعاصي حتى صار بعضهم يوحى إلى بعض زخرف القول غرورا ، ويستمتع بعضهم ببعض ، حتى جعل الله مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، وقوله عز وجل : ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ تقرير للجن والإنس الذين كفروا يعلنونه في عرصات القيامة ، يقرون فيه بأن الله عز وجل أرسل إليهم الرسل وأنزل الكتب المشتملة على الترغيب والترهيب ، وبيان الحق من الباطل ، والمعاد والحشر ، ومآل المؤمنين والكافرين يوم القيامة ، كما يعلنون في هذا الموقف العصيب الرهيب أنهم غرتهم الحياة الدنيا بشهواتها الفانية وشياطينها الذين زخرفوا لهم القول غرورا حتى كفروا بالله وكذبوا المرسلين . والاستفهام في قوله عز وجل : ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ للتقرير ، وقوله عز وجل : ﴿رسل منكم﴾ أي منذرون تعرفون

لسانهم وتفهمون كلامهم كما قال عز وجل : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ وقد أشار القرآن الكريم في غير موضع إلى أن الجن كانوا ملزمين بالإيمان بالأنبياء والرسل الذين بعثهم الله عز وجل إلى الإنس حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ وإذ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ * قالوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدَقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ * يا قومنا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ * وَمَنْ لَا يُجِيبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ * ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ أي إنما أرسلنا الرسل وأنزلنا الكتب ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيٍّ عن بينة فمن انحرف عن الصراط المستقيم وأخذناه بذنوبه لم نكن ظالمين له وإنما هو الذي ظلم نفسه ، وما عَذَّبْنَا أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْ زَالَ الْكِتَابُ لِلنَّبِيِّهِ وَالتَّذْكِيرِ وَإِزَالَةِ الْغَفْلَةِ ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي ولكل عامل من الجن أو من الإنس منازل في الآخرة يُنَزِّلُهُ اللَّهُ عز وجل فيها بحسب عمله من الطاعة أو المعصية وليس الله عز وجل بغافلٍ ولا ساهٍ ولا لاهٍ عما يعملُه عباده ، كما قال عز وجل في وصف منكري البعث : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ * ولكلِّ درجاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴾ .

قال تعالى : ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلَفْ مِنْ بَعْدَكُمْ مَا يَشَاءُ ، كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ * إِنْ مَا تُوعِدُونَ لِآيَاتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

بعد الترغيب في الإيمان ببيان مآل السعداء ، والترهيب من الكفر ببيان مآل الأشقياء ، شرع الله عز وجل هنا في تأكيد غِنَاهُ عز وجل عن عباده ، وأنه من أجل اتصافه عز وجل بالرحمة أرسل الرسل وأنزل الكتب وأمهل العصاة فلم يعاجلهم بالعقوبة مع قدرته على إبادتهم والمجيء بغيرهم ، كما أكد أن القيامة حقٌ ، وأن الله عز وجل لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ، ومهما تفرقت أجزاء الناس في الأرض بعد موتهم فإن جمعهم وبعثهم سهل عليه يسير ، ثم أمر نبيه ﷺ أن يواجه الكفار بتشديد التهديد وتكرير الوعيد بأنهم إذا استمروا على ما هم عليه من الكفر فلن يفلحوا ، وسيرون ما يحل بهم من الخزي في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وأنه ﷺ سيستمر على ما هو عليه من دين الإسلام والدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وستكون له وللمؤمنين عقبى الدار وفي ذلك يقول : ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلَفْ مِنْ بَعْدَكُمْ مَا يَشَاءُ ، كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ * إِنَّ مَا تُوعِدُونَ لِآيَاتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أي وربُّكَ يا محمد الذي ربَّكَ على عينه واصطفاك لرسالته هو الغني عن جميع خلقه من جميع الوجوه لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم لأنه بيده حياتهم ومماتهم وضرهم

ونفعمهم وأرزاقهم وأقواتهم وهو مع ذلك رحيم بهم ، يشيهم على إحسانهم إن أحسنوا ، ويجزيهم على العمل الصالح القليل بالأجر العظيم الجليل ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلَفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ ، كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ أي هو عز وجل قادر على إهلاك المكذبين واستبدالهم بقوم صالحين يخلفونهم في الأرض يعملون بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ، وهذا سهل على الله يسير كما أهلك القرون الأولى المكذبين ، وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ ، وجاء بالمعاصرين من سلالة هؤلاء الناجين ، وهذا شبيه بقوله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ وبقوله عز وجل : ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ وبقوله عز وجل : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ مَا تَوْعَدُونَ لَأْتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي إِنَّ الَّذِي تُوعَدُونَهُ مِنْ اضمحلال الكفر وإذلال أهله وانتصار الإسلام وإعزاز أهله ، ومن القيامة والحساب والعقاب والثواب وتفاوت درجات المؤمنين ودركات الكافرين لواقع لا محالة ، ولا ريب فيه ولا شك ولن يستطيع أحدٌ مَهْمَا كَانَ أَنْ يُعْجِزَ اللَّهَ وَلَنْ يَتِمَّ كَافِرٌ أَبَدًا أَنْ يَفْلَتَ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ ، وَلَنْ يَضِيْعَ عَمَلٌ عَامِلٍ مَهْمَا كَانَ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمُوتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ الْخَلْقِ وَمَجَازَاتِهِمْ وَإِنْ صَارُوا تَرَابًا وَرَفَاتًا ، وَهُوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وَاللَّهُ غَنِيُّ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وكما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا

كيف يُبدئ الله الخلقَ ثم يعيده، إن ذلك على الله يسير * قل سيروا في
 الأرض فانظروا كيف بدأ الخلقَ، ثم الله ينشئ النشأةَ الآخرةَ، إن الله على كل
 شيء قدير * يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تُقَلَّبُونَ * وما أنتم
 بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير *
 والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب
 أليم * وكما قال عز وجل: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآتٍ، وهو
 السميع العليم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إنما توعدون لصادق * وإن الدين
 لواقع﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل
 فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون﴾ تهديدٌ
 شديدٌ، ووعدٌ أكيدٌ، وتحدُّ لهؤلاء المكذبين وإبرازٌ لعدم المبالاة بهم،
 بالإعلان لهم بأنه ﷺ ثابتٌ على الحق الذي جاء به من عند الله، وأنه ﷺ في
 غاية الوثوق بانتصار الإسلام واضمحلال الكفر. وهذا شبيه بموقف شعيب
 عليه السلام فيما ذكره الله عز وجل عنه حيث يقول: ﴿ويا قوم اعملوا على
 مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذبٌ
 وارتقبوا إنى معكم رقيب﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن المؤمنين واثقون
 في نصر الله مطمئنون لما وعد الله عز وجل به رسوله ﷺ حيث يقول تبارك
 وتعالى: ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا
 إنا منتظرون﴾ والمقصودُ من الأمر في قوله: ﴿اعملوا على مكانتكم﴾
 التهديد، ومعنى ﴿على مكانتكم﴾ أي على غاية تمكنكم واستطاعتكم في
 بذل كل ما تستطيعون، فالمكانة مصدر مكن إذا تمكن أبلغ التمكن، وهذا
 غاية في عدم المبالاة بهم وبكيدهم، ولا يُراد من مثل هذا الأمر طلبُ الفعل
 لأن الأمر قد يرد لطلب الفعل نحو قوله عز وجل: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا
 الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ وكقوله عز وجل: ﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم

خيرا ﴿ وقد يكون الأمر للإباحة كقوله عز وجل : ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾
 وتأتي هذه الصيغة للإكرام نحو قوله عز وجل : ﴿ ادخلوها بسلام آمين ﴾
 كما ترد صيغة الأمر للإهانة كقوله عز وجل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
 الْكَرِيمُ ﴾ وتأتي للتهديد كقوله عز وجل : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ وكقوله عز
 وجل : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ وكقوله عز وجل هنا :
 ﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ وتأتي صيغة الأمر أيضا للتعجيز نحو قوله عز
 وجل : ﴿ قل كونوا حجارة أو حديدا * أو خلقا مما يكبر في صدوركم ﴾ وتأتي
 للتسخير كقوله عز وجل : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ وتأتي للتكوين كقوله عز
 وجل : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ وتأتي للتسوية كقوله
 عز وجل : ﴿ اصبروا أو لا تصبروا ﴾ وتأتي للتمنى كقول الشاعر :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل
 وتأتي للاحتقار كقوله عز وجل : ﴿ قال لهم موسى ألقُوا ما أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴾
 وتأتي بمعنى الخبر الماضي كقول رسول الله ﷺ : إذا لم تستح فاصنع ما شئت
 أي صنعت ما شئت وكقوله عز وجل : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ أي
 ما أسمعهم وما أبصرهم ، وتأتي للتعجيب كقوله عز وجل : ﴿ انظر كيف
 ضربوا لك الأمثال فَضَّلُوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ وتأتي للتكذيب كقوله عز
 وجل : ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ ، وتأتي للاعتبار كقوله
 عز وجل ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ وتأتي للمشورة كقوله : ﴿ فانظر
 ماذا ترى ﴾ وبهذا يتضح أن صيغة الأمر قد ترد لغير طلب الفعل كما في قوله
 عز وجل هنا : ﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ فليس لأحد أن يدَّعي أن قوله عز
 وجل : ﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ دليل على جواز الثبات على الكفر قال
 الزجاج رحمه الله : فإن قال قائل : فكيف يجوز أن يأمرهم النبي ﷺ أن يقيموا
 على الكفر فيقول لهم : ﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ فإنما معنى هذا الأمر المبالغة

في الوعيد، لأن قوله لهم: ﴿ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ قد أعلمهم أن من عمل بعملهم في النار مَصِيرُهُ، فقال لهم: أقيموا على ما أنتم عليه إن رضيتم العذاب بالنار اهـ. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله: وقوله تعالى ذكره لنبيه: قل لقومك: ﴿ يا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ أمر منه له بوعيدهم وتهذهم لا إطلاق لهم في عمل ما أرادوا من معاصي الله اهـ والمخاطبون يعلمون علم اليقين أن قوله لهم: ﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ ليس إذنا لهم بالاستمرار على الكفر وأنهم موقنون بأن هذا الأمر للتهديد كما قال لهم في سورة الكهف: ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ لأنه قال لهم بعدها مباشرة: ﴿ إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمُهل يشوي الوجوه، بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾ فلا يخطر ببال عاقل أن قوله ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ إذن وتخيير بين الإيمان والكفر، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ تنبيه على كمال وثوق رسول الله ﷺ من نصر الله عز وجل له وللمؤمنين وأن الكافرين سيصيبهم الخزي والذل والهوان في الدنيا والآخرة، وأنهم لن يفلحوا لأنهم قد ارتكبوا أفحش الظلم حيث أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وسيعلمون أن محمدا هو الحق وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، كما قال عز وجل: ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله عز وجل: ﴿ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي أتكون لي أو لكم، وقد أنجز الله موعوده لرسوله ﷺ أي فإنه تعالى مَكَّنُهُ في البلاد، وحَكَّمَهُ في نواصي مخالفه من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذَّبه من قومه وعاداه وناوَاه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب وكذلك اليمن

والبحرين وكل ذلك في حياته ، ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه رضي الله عنهم أجمعين كما قال الله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم وهم اللعنة وهم سوء الدار . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ وقال تعالى إخباراً عن رسوله : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ الآية . وقد فعل الله ذلك بهذه الأمة المحمدية ، وله الحمد والمنة أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا اهـ .

قال تعالى : ﴿وجعلوا لله مما درأ من الحرث والأنعام نصيبًا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون ﴾ وكذلك زَيْنٌ لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ وقالوا هذه أنعامٌ وحرثٌ حِجْرٌ لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علمٍ وحرموا ما رزقهم الله افتراءً على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾ .

بعد أن أكد تبارك وتعالى غناه عز وجل عن عباده ، وأنه من أجل اتصافه عز وجل بالرحمة أرسل الرسل وأنزل الكتب وأمهل العصاة فلم يعاجلهم بالعقوبة مع قدرته على إبادتهم والمجيء بغيرهم وأكد أن القيامة حق وأمر نبيه ﷺ أن يواجه الكفار بتشديد التهديد وتكرير الوعيد بأنهم إذا استمروا على كفرهم فلن يفلحوا وسيرون ما يحل بهم من الخزي في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وأن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة ستكون لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ، شرع هنا في بيان ضلال المشركين من قريش وجهلهم وسفاهتهم فذكر عز وجل صوراً من أفعالهم وأقوالهم تبرهن على أنهم لم يرضوا أن عدلوا بمن خلقهم ورزقهم وأنعم عليهم بالنعم التي لا تحصى حيث عبدوا أوثاناً وأصناماً لا تضرهم ولا تنفعهم وجعلوهم شركاء لله حتى فضّلوا هذه الأصنام على خالقهم ورازقهم رب العالمين وحتى أطاعوا شركاءهم وشياطينهم في قتل أولادهم وتحريم ما أحل الله وتحليل ما حرّم الله ، وفي ذلك يقول عز

وجل : ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا الله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾ إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿قد ضلُّوا وما كانوا مهتدين﴾ وقد أشار ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن رضي الله عنهما إلى أن المؤمن إذا أراد أن يعرف ما كان عليه أهل الجاهلية من الجهل والسفاهة والضلالة ليشكر الله الذي أخرجه من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام فليقرأ هذه الآيات .

فقد قال البخاري في صحيحه حدثنا أبو النعمان حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا سَرَّكَ أن تَعْلَمَ جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام : ﴿قد خَسِرَ الذين قتلوا أولادهم سَفَهًا بغير علم﴾ إلى قوله : ﴿قد ضلُّوا وما كانوا مهتدين﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا﴾ أي وعَيَّنُوا لله عز وجل قسما ونصيبا مما خلقه وحده لهم وبرأه من الزروع والثمار ومن المواشي ، وعَيَّنُوا لأصنامهم وأوثانهم نصيبا من هذا الذي خلقه الله وذراه وبرأه لهم ، وقد دلَّ على هذا المحذوف قوله عز وجل : ﴿فقالوا هذا الله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾ والإشارة في قوله : ﴿هذا الله﴾ للنصيب الذي عينوه لله من الحرث والأنعام والإشارة في قوله : ﴿وهذا لشركائنا﴾ للنصيب الذي عينوه لأصنامهم وأوثانهم الذين جعلوهم شركاء لله عز وجل ، ومعنى ﴿بزعمهم﴾ أي بدعواهم التي زعموها بلا بينة ولا برهان وبقولهم الذي لا حقيقة له . ومعنى قوله عز وجل : ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم﴾ ، ساء ما يحكمون﴾ قال ابن جرير رحمه الله : حدثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد قال : حدثنا عتاب بن بشير عن خَصِيف عن عكرمة عن ابن عباس : ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله﴾ الآية . قال : كانوا إذا أدخلوا الطعام فجعلوه حُزْمًا جعلوا منها لله سَهْمًا ، وسهما لأهتهم ، وكان إذا هبت الريح من نحو

الذي جعلوه لأهنتهم إلى الذي جعلوه لله رَدُّوهُ إلى الذي جعلوه لأهنتهم ، وإذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لله إلى الذي جعلوه لأهنتهم أَقْرُوهُ ولم يَرُدُّوهُ ، فذلك قوله : ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ اهـ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لَكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِم دِينَهُمْ ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يَفْتَرُونَ﴾ أي وكما لعبت الشياطين بعقول هؤلاء الجاهلين فظهر من سخافة عقولهم وسفاهة آرائهم أَنَّ جعلوا لأصنامهم نصيبا من الحرث والأنعام التي خلقها الله عز وجل وحده لا شريك له وجعلوا لله عز وجل منها نصيبا وَحَرَّصُوا على صيانة نصيب أصنامهم ولم يَحَرِّصُوا على صيانة النصيب الذي جعلوه لله ، كذلك لعبت الشياطين بعقولهم فَحَسَّنَتْ لهم قتل أولادهم من الفقر أو خشية الفقر وَوَأَدَّ بناتهم خشية العار ، وقد جهل هؤلاء أَنَّ الشياطين فعلت بهم ذلك القبيح وأوقعتهم في هذه الجريمة المناقضة للفطرة ليهلكوهم وَلِيَخْلِطُوا عليهم دينهم ، وقد خذلهم الله عز وجل ولو أراد إرادة كونية عدم هذا الفعل منهم ما فعلوه ، فَدَعَهُم يا محمد فسيحكم الله عز وجل بينك وبينهم وسيجزئهم على ما يفترونه ويختلقونه من الكذب على الله تبارك وتعالى ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : يقول تعالى : وكما زينت الشياطينُ لهؤلاء أَنَّ يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق ووَادَّ البناتِ خشية العار اهـ وقد حَذَّرَ الله تبارك وتعالى من هذه الجريمة في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل في الوصايا العشر الواردة في هذه السورة المباركة : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ ويقول في سورة الإسراء : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ وقال عز وجل : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ

ما بُشِّرَ به ، أَيْمِسْكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُشُّهُ فِي التَّرَابِ ، أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١﴾
 وقال عز وجل : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ ووصف رسول
 الله ﷺ جريمة قتل الولد التي كان يرتكبها أهل الجاهلية بأنها من أكبر
 الكبائر فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله
 يعني ابن مسعود رضي الله عنه قال : سألت النبي ﷺ : أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ
 عِنْدَ اللَّهِ ؟ قَالَ : أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلْقُكَ ، قُلْتُ : إِنْ ذَلِكَ لِعَظِيمٍ ،
 قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ ، قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟
 قَالَ : أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ
 حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مِنْ نَشَاءِ بَزْعَمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا
 يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءَ عَلَيْهِ ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بيان
 لقصبة ثالثة من قبائح وجهالة وسفاهة مشركي قريش ومن سلك سبيلهم
 من الكفار ، حيث كانوا ينقادون لشياطينهم في لعبها بعقولهم ويفترون
 الكذب على الله عز وجل فيزعمون أن الله عز وجل حرَّم أن يطعم منها شيئاً إلا بإذنهم ، كما
 افتروا على الله عز وجل فزعموا أنه تبارك وتعالى حرَّم عليهم ركوب بعض
 الأنعام وبعض الزروع فلا يحل لأحد أن يطعم منها شيئاً إلا بإذنهم ، كما
 افتروا على الله عز وجل فزعموا أنه تبارك وتعالى حرَّم عليهم ركوب بعض
 الأنعام كذباً على الله وتحكما فاسداً كما حرَّموا ذكر اسم الله عز وجل على
 بعض أنعامهم لا إِنْ أَوْلَدُوها ولا إِنْ رَكَبُوها ولا إِنْ حَلَبُوها ولا إِنْ حَمَلُوا عَلَيْها
 ولا إِنْ نَحَرُوها انقياداً لشياطينهم واتباعاً لأهوائهم مع دعواهم أن الله هو
 الذي أمرهم بذلك ، وهم يفترون على الله ، ولذلك قال تبارك وتعالى :
 ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي سيعاقبهم الله عز وجل بسبب ما اقترفوه
 من الافتراء على الله والكذب عليه ، وقد وَبَّخَ الله تبارك وتعالى المشركين
 الجاهلين في غير موضع من كتابه الكريم على جرأتهم على الله في التحريم
 والتحليل انقياداً لشياطينهم وانغماساً في جهلهم حيث يقول تبارك وتعالى :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لَذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ بيان لمزيد من قبائح المشركين بافتراءهم على الله حيث تحكموا بأرائهم الفاسدة ومذاهبهم الكاسدة فحرموا ما في بطون بعض الأنعام على النساء وأباحوه للرجال إن خرج حيا ، أما إذا خرج ميتا فيباح أكله للرجال والنساء ، وهذا دين ما أنزل الله به من سلطان ، وقول على الله بغير حق ولذلك قال عز وجل : ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر : يقول جل ثناؤه : ﴿سَيَجْزِي﴾ أي سيثيب ويكافئ هؤلاء المفتريين عليه الكذب في تحريمهم ما لم يحرمه الله وتحليلهم ما لم يحلل الله وإضافتهم كذبهم في ذلك إلى الله ، وقوله ﴿وَصَفَّهُمْ﴾ يعني بوصفهم الكذب على الله وذلك كما قال جل ثناؤه في موضع آخر من كتابه ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ والوصف والصفة في كلام العرب واحد ، وهما مصدران مثل الوزن والزنة اهـ وقوله عز وجل : ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره : قد هلك هؤلاء المفترون على ربهم الكذب ، العادلون به الأوثان والأصنام ، الذين زين لهم شركاءهم قتل أولادهم وتحريم ما أنعمت به عليهم من أموالهم ، فقتلوا طاعة لها أولادهم وحرموا ما أحل الله لهم وجعله لهم رزقا من أنعامهم ﴿سَفَهًا﴾ منهم . يقول : فعلوا ما فعلوا من ذلك جهالة منهم بما لهم وعليهم ، ونقص عقول وضعف أحلام منهم ،

وَقَلَّةٌ فَهُمْ بِعَاجِلِ ضُرِّهِ وَآجِلِ مَكْرُوهِهِ مِنْ عَظِيمِ عِقَابِ اللَّهِ عَلَيْهِ لَهُمْ ﴿۱﴾ افْتِرَاءٌ عَلَى اللَّهِ ﴿۲﴾ يَقُولُ: تَكْذُوبًا عَلَى اللَّهِ وَتَحَرُّصًا عَلَيْهِ الْبَاطِلِ ﴿۳﴾ قَدْ ضَلُّوا ﴿۴﴾ يَقُولُ: قَدْ تَرَكُوا مَحَجَّةَ الْحَقِّ فِي فَعْلِهِمْ ذَلِكَ وَزَالُوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿۵﴾ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿۶﴾ يَقُولُ: وَلَمْ يَكُنْ فَاعِلُوا ذَلِكَ عَلَى هُدًى وَاسْتِقَامَةٍ فِي أَفْعَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَفْعَلُونَ قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَا كَانُوا مُهْتَدِينَ لِلصَّوَابِ فِيهَا وَلَا مُوَفِّقِينَ لَهُ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الَّذِينَ ذَكَرَ اللَّهُ خَبَرَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿۷﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴿۸﴾ الَّذِينَ كَانُوا يَنْحَرُونَ الْبَحَائِرَ وَيُسَيِّبُونَ السَّوَابِ وَيَتَدُونَ الْبَنَاتِ أَهـ.

قال تعالى : ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشاتٍ وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين ﴾ * ومن الأنعام حمولة وفرشاً ، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ﴾ .

بعد أن ساق عز وجل صوراً من قبائح أفعال المشركين وأقوالهم التي تبرهن على أنهم لا يعقلون ، وأنهم يفترون على الله الكذب ، وأنهم خسروا أنفسهم وضلوا وما كانوا مهتدين شرع هنا في بيان أنه عز وجل هو الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التي اجترأ هؤلاء المشركون فحرموا منها ما شاءوا وأحلوا ما شاءوا بآرائهم الفاسدة مع العلم بأنهم لو سألتهم لأقروا بأن الله هو وحده الخالق المنشئ لها ، لكنهم اتبعوا خطوات الشيطان وانقادوا له ، فألقى بهم في مهامه الضلال والضَّياع ، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين﴾ قال الفخر الرازي في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات﴾ الآية : اعلم أنه تعالى جعل مدار هذا الكتاب الشريف على تقرير التوحيد والنبوة والمعاد وإثبات القضاء والقدر ، وأنه تعالى بآلَع في تقرير هذه الأصول ، وانتهى الكلام إلى شرح أحوال السعداء والأشقياء ، ثم انتقل منه إلى تهجين طريقة من أنكر البعث والقيامة ، ثم أتبعه بحكاية أقوالهم الركيكة ، وكلماتهم الفاسدة ، في مسائل أربعة ، والمقصودُ التنبيهُ على ضعف عقولهم ، وقلة محصولهم ، وتنفير الناس عن الالتفات إلى قولهم ، والاعتراض بشبهاتهم ، فلما

تَمَّ هذه الأشياء عاد بعدها إلى ما هو المقصود الأصلي ، وهو إقامة الدلائل على تقرير التوحيد ، فقال : ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات ﴾ واعلم أنه قد سَبَقَ ذكرُ هذا الدليل في هذه السورة ، وهو قوله : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خَضِراً نَخْرُجُ مِنْهُ حَبّاً متراكباً ومن النخل من طلعها قِنَوانٌ دانيةٌ وجناتٍ من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغيرَ متشابهه ، انظروا إلى ثمره إذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إن في ذلكم لآياتٍ لقوم يؤمنون ﴾ فالآية المتقدمة ذكر تعالى فيها خمسة أنواع ، وهي الزرع والنخل وجنات من أعناب والزيتون والرمان ، وفي هذه الآية التي نحن في تفسيرها ذكر هذه الخمسة بأعيانها ، لكن على خلاف ذلك الترتيب لأنه ذكر العنب ثم النخل ثم الزرع ثم الزيتون ثم الرمان ، وذكر في الآية المتقدمة ﴿ مشتبهاً وغيرَ متشابهه ﴾ وفي هذه الآية ﴿ متشابهها وغيرَ متشابهه ﴾ ثم ذكر في الآية المتقدمة ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ فأمر تعالى هناك بالنظر في أحوالها والاستدلال بها على وجود الصانع الحكيم ، وذكر في هذه الآية ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ فأذن في الانتفاع بها ، وأمرَ بصرف جزء منها إلى الفقراء ، فالذي حصل به الامتياز بين الآيتين أنَّ هناك أمراً بالاستدلال بها على الصانع الحكيم ، وهاهنا أذن في الانتفاع بها ، وذلك تنبيه على أن الأمر بالاستدلال بها على الصانع الحكيم مُقَدَّمٌ على الإذن في الانتفاع بها ، لأنَّ الحاصل من الاستدلال بها سعادةٌ روحانيةٌ أبديةٌ ، والحاصل من الانتفاع بهذه سعادةٌ جسمانيةٌ سريعةٌ الانقضاء ، والأولُ أولى بالتقديم ، فلهذا السبب قدَّم الله تعالى الأمرَ بالاستدلال بها على الإذن بالانتفاع بها اهـ .

والمعروشات هي الأعناب وغيرها من الأشجار المرفوعات على ما يحملها من عريش ونحوه ، وغير المعروشات هي ما لم ترفع على عريش لعدم

حاجتها له وفي هذا لفت انتباه الناس إلى كمال قدرة الله وعلمه وحكمته حيث أخرج للناس من المعروشات وغير المعروشات الثمار التي تفضل الله عز وجل فأنعم بها على عباده لغذائهم وفاكهتهم وأدويتهم وسائر حاجاتهم ، ومن عجائب آيات الله في أغصان شجرة العنب وهي تنمو وتمدد فوق عريشها أنه يخرج منها خيوط دقيقة ، ذات قرون تلتف في منظر عجيب دقيق حول أعواد العريش ليستمسك بها الغصن حتى لا يسقط على الأرض ، فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ والنخل والزروع مختلفا أكُله ﴾ أي وأنشأ النخل والزروع وخلق لكم في النخل والزروع ثمرًا مختلفًا في هيئته وكيفيته ولونه وطعمه وفائدته ومنها ما يُدَخَّرُ ومنها ما لا يصلحُ للادخار ، والأكل هو الثمر الذي يؤكل ، وقوله عز وجل : ﴿ والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ﴾ أي وأنشأ الزيتون والرمان وقد أودع هذه المنشآت من الطبائع ما يشهد بأنها من آيات الله الدالة على بديع صنعه وجليل حكمته حيث يكون منها ما هو متشابه في اللون والشكل وهو مختلف في الطعم واللذة ، وقد تشابه أوراقه ولا يتشابه ثمره كالزيتون والرمان ، ومن المعلوم أنك قد تأخذ عنقودين من عنب أو رمانتين متشابهين في الصورة واللون والشكل ثم تجدهما مختلفين في الحلاوة والحموضة ، فبعضها حلو وبعضها حامض وبعضها مُز أي بين الحامض والحلو . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ كُلُوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين ﴾ هذا تنبيه من الله تبارك وتعالى لعباده أن يُحِلُّوا ما أحل الله تعالى لهم وأن يحرموا ما حرم الله عليهم ، وفي قوله عز وجل ﴿ إذا أثمر ﴾ إباحة لأصحاب الزروع والأشجار أن يأكلوا من ثمر مزارعهم وبساتينهم متى أثمرت هذه البساتين ، ولا حظر عليهم في ذلك حتى لا يخطر على بال واحد منهم أنه لا يجوز الأكل منها قبل إعطاء المساكين ، لأنه إنما يجب التصديق

على المساكين منها بعد حصادها ولذلك قال عز وجل : ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ والظاهر أن هذا الحق كان شيئاً قد فرضه الله عز وجل في أول الإسلام على أهل الثمار لمن حضرهم يوم الحصاد من المساكين والفقراء وذوي القربى ، ولم يكن مُقَدَّرًا بمقدار معين . والمقصود منه تطييب نفوس من حضرهم يوم الحصاد من المحتاجين ، وتدريب قبل فرض الزكاة المقدرة المعينة التي جعلها الله عز وجل ركناً من أركان الإسلام وحدد الإسلام أنصاءها ومصارفها ، والظاهر كذلك أن إعطاء المساكين يوم الحصاد والصرام شريعة سابقة كما أشار الله تبارك وتعالى حيث يقول : ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَشْنُونَ فُطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَاَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخافتُونَ * أَن لا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ * وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ . إلى قوله عز وجل : ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ كان ذلك فرضاً فرضه الله على المؤمنين في طعامهم وثمارهم التي تُخْرِجُهَا زُرُوعُهُمْ وَغُرُوسُهُمْ ثم نسخه الله بالصدقة المفروضة والوظيفة المعلومة من العُشْر ونصف العُشْر ، وذلك أن الجميع مجتمعون لا خِلافَ بينهم : أن صدقة الحرث لا تؤخذ إلا بعد الدِّياس والتنقية والتذرية ، وأن صدقة التمر لا تؤخذ إلا بعد الإجازة ، فإذا كان ذلك كذلك ، وكان قوله جل ثناؤه : ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ يُنْبِئُ عن أنه أمر من الله جل ثناؤه بإيتاء حقه يوم حصاده ، وكان يوم حصاده هو يوم جَدِّه وقطعه ، والحبُّ لا شك أنه في ذلك اليوم في سنبله ، والتمر وإن كان ثمر نخل أو كَرِّمٍ غيرِ مُسْتَحْكَمٍ جُفُوفُهُ وَيُسُّهُ ، وكانت الصدقة من الحبِّ إنما تؤخذ بعد دِياسه وتذريته وتنقيته كَيْلًا ، والتمر إنما تؤخذ صدقته

بعد استحكام يُنْسِيهِ وجفافه كَيْلًا عُلِمَ أن ما يؤخذ صدقة بعد حين حصده غيرُ الذي يجب إيتاؤه المساكين يوم حصاده، فإن قال قائل : وما تنكر أن يكون ذلك إيجابا من الله في المال حقا سوى الصدقة المفروضة؟ قيل : لأنه لا يخلو أن يكون ذلك فرضا واجبا أو نفلا، فإن يكن فرضا واجبا فقد وجب أن يكون سبيلُهِ سبيل الصدقات المفروضات التي من فَرَطَ في أدائها إلى أهلها كان بربه آثما ولأمره مخالفا، وفي قيام الحجة بأن لا فرض لله في المال بعد الزكاة يجب وجوب الزكاة سوى ما يجب من النفقة لمن يلزم المَرْء نفقته ما ينبئ عن أن ذلك ليس كذلك، أو يكون ذلك نَفْلًا، فإن يكن ذلك كذلك فقد وجب أن يكون الخيارُ في إعطاء ذلك إلى رب الحرث والثمر، وفي إيجاب القائلين بوجوب ذلك ما ينبئ عن أن ذلك ليس كذلك، وإذا خرجت الآية من أن يكون مرادا بها النذب وكان غير جائز أن يكون لها مَخْرَجٌ في وجوب الفرض بها في هذا الوقت عُلِمَ أنها منسوخة اهـ وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين﴾ تحذير من التبذير في الأموال بإنفاقها في غير الوجوه المشروعة ومنعها من مستحقها، وتنبيه على رعاية الاقتصاد في السلوك، قال ابن الأعرابي : السرف تجاوز ما حُدَّ لك اهـ وقد كان رسول الله ﷺ يحض على الاقتصاد لأنه أيسر طرق الوصول إلى المأمول من الخير والبر، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : إن الدين يُسْرٌ، ولن يُشَادَّ الدِّينَ أحدٌ إلا غلبه، فَسَدِّدُوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغُدوةِ والرَّوْحَةِ وشيء من الدُّلْجَةِ . وفي رواية له : سَدِّدُوا وقاربوا واغْدُوا وزُوحُوا، وشيء من الدلجة، ، الْقَصْدُ، الْقَصْدُ تَبْلُغُوا . كما روى مسلم من حديث جابر بن سَمُرَةَ رضي الله عنهما قال : كنت أصلي مع النبي ﷺ الصلوات، فكانت صلاته قَصْدًا، وَخُطْبَتُهُ قَصْدًا . وقد نَبَّهَ الله تبارك وتعالى إلى الاقتصاد في الأكل والشرب وحذَّر من الإسراف في غير هذه الآية

كذلك حيث يقول في سورة الأعراف : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ وكما قال في سورة الإسراء : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ إلى أن يقول : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ . وكما قال في وصف عباده الصالحين : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءُ ، كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي وأنشأ من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم حمولة أي قوية تستطيع حمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ، وفرشأ أي ضعيفة لا تستطيع حمل الأثقال لكنكم تنتفعون بلحمها وألبان ذوات اللبن منها وتتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ، فَتَمَتَّعُوا بِالْأَكْلِ مِنْهَا وَاشْكُرُوا اللَّهَ الَّذِي رَزَقَكُمْوَهَا ، وَلَا تَنْقَادُوا لِلشَّيْطَانِ فَتَحْرَمُوا أَوْ تَحْلُلُوا تَبَعًا لِمَا يَزْخِرْهُ لَكُمْ لِأَنَّهُ عَدُوٌّ ظَاهِرٌ الْعَدَاوَةَ لَكُمْ .

قال تعالى : ﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين، قل
الذكّرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئوني بعلم إن
كنتم صادقين ﴾ * ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين، قل ء الذّكرين حرم أم
الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا،
فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم، إن الله لا
يهدي القوم الظالمين ﴾ * قل لا أجد في ما أوحى إليّ محرّماً على طاعم يطعمه
إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير
الله به، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم ﴿.

بعد أن بيّن عز وجل أنه هو الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام
التي اجترأ هؤلاء الجاهلون المشركون فحَرَّمُوا منها ما شاءوا وأحلوا ما شاءوا
بآرائهم الفاسدة زاعمين أن الله تعالى هو الذي حرّمها عليهم افتراءً على الله،
وانقياداً للشيطان، شرع هنا في إفحام هؤلاء الجاهلين المشركين وتقريعهم
بتحريم المواد التي تَقَوَّلُوا فيها على الله عز وجل وبيان أنه لا سند لهم في تحريم
ما حرّموا إلا الافتراء على الله، ونفى أن يكون للمشركين علم أو مشاهدة
بتحريم شيء منها، فقد ذكر في الآية السابقة أنه خلق من الأنعام حمولة
وفرشاً، وفَصَّلَ هنا الحمولة والفرش إلى ثمانية أزواج أي أنواع وهي لا تخلو
عن أن تكون في بطون أمهاتها أو انفصلت عنها حية أو ميتة، وأمر نبيه محمداً
ﷺ بتقريع المشركين وإفحامهم على طريقة الاستفهام الإنكاري التوبيخي
بتوجيه السؤال لهم عن كل مادة من مواد افترائهم حيث كانوا يجرمون ذكور
الأنعام تارة وإنائها تارة أخرى كما كانوا يجرمون ما في بطون الأنعام في حال
ويحلونها في حالة أخرى، كما كانوا يخصون ببعضها الرجال دون النساء
ويبيحونها للنساء مع الرجال تارة أخرى، وكرر الأمر بذلك للمبالغة في

التبكيك والتقريع والإلزام والإفحام حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ثمانية أزواج﴾ إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ومعنى ﴿ثمانية أزواج﴾ أي ثمانية أفراد أي أنواع . قال ابن سيده : الزوج : الفرد الذي له قرين اهـ فيطلق لفظ الزوج على المفرد إذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه ويحصل منهما النسل ، وكذا يطلق على الاثنين ، والمراد هنا : الإطلاق الأول . وقوله ﴿من الضأن اثنين ومن المعز اثنين﴾ إلى قوله ﴿ومن البقر اثنين﴾ بدل تفصيلي من ﴿ثمانية أزواج﴾ والضأن : ذوات الصوف من الغنم . والمراد بقوله : ﴿من الضأن اثنين﴾ الكبش والنعجة يعني الذكر والأنثى والمعز : ذوات الشعر من الغنم . والمراد بقوله : ﴿ومن المعز اثنين﴾ التيس والعنز يعني الذكر والأنثى ، والضأن اسم جمع وكذلك المعز ، وقدم هذه الأربعة في التفصيل مع تأخر أصلها وهو الفرش في الإجمال لكونها عرضة للأكل الذي هو مُعْظَم ما يتعلق به الحل والحرمة وهو السر في الاقتصار على الأمر بالأكل من غير تعرض للمنافع الأخرى كالحمل والركوب التي حرّموها في السائبة والوصيلة والبحيرة والحامي . والهمزة في قوله : ﴿قل الذّكرين حرّم أم الاثنين﴾ للإنكار ، والمقصود إنكار التحريم لكنه أورده في صورة إنكار المفعول ليطابق ما كانوا يدّعون من التفصيل في المفعول ، فإذا أنكر المفعول كان إنكاراً للفعل بطريق برهاني ، والمراد بالذكرين : الكبش والتيس ، والمراد بالأنثيين : النعجة والعنز ، وانتصاب الذكرين بحرّم ، وقد عطف عليه الأنثيين ، وأمّا في قوله تعالى : ﴿أمّا﴾ اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ عبارة عن أم العاطفة ، وما الموصولة ، وقد حصل الإدغام بسبب التقاء ميم أم ساكنة مع ما بعدها ، ومعنى : ﴿اشتملت﴾ أي احتوت ، وأرحام جمع رحم وهو محل الجنين . ومعنى : ﴿أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ أي أم حرّم الذي اشتملت عليه أرحام

أنثى الضأن وأنثى المعز من الأجنة ، ومعنى : ﴿نبئوني بعلم إن كنتم صادقين﴾ أي أخبروني بأمر تستيقنونه عن سبب التحريم ، والأمر للتعجيز ، أي قل يا محمد لمن حرّم بعض الذكور تارة وبعض الإناث تارة أخرى : من أين جاء التحريم ؟ فإن كان من جهة الذكورة فجميع الذكور إذن حرام ، وإن كان التحريم لعله الأنوثة فجميع الإناث إذن حرام ، وإن كان التحريم بسبب اشتغال الرحم فجميع الذكور والإناث إذن حرام فمن أين جاء التخصيص ؟ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين﴾ أي وأنشأ من الإبل اثنين هما الذكر والأنثى أي الجمل والناقة وأنشأ من البقر اثنين هما الذكر والأنثى أي الثور وأنثاه ، وأم في قوله تبارك وتعالى : ﴿أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا﴾ هي أم المنقطعة التي تردّ بمعنى بل التي للإضراب والهمزة التي للإنكار ، والإضراب في بل إضرابٌ للانتقال من توبيخهم بنفي العلم عنهم إلى توبيخهم بنفي حضورهم وقت الإيصاء بالتحريم المزعوم ، ومعنى ﴿شهداء﴾ أي حاضرين ، ومعنى : ﴿وصاكم الله﴾ أي عهد إليكم . والإشارة في قوله عز وجل : ﴿بهذا﴾ لما زعموه من تحريم ما حرموه وادّعوا أن الله هو الذي حرّمه عليهم ، وقد سبق هذا الكلام الكريم لتبكيّتهم وإفحامهم وقطع كل شبهة لديهم وإلزامهم بما لا فرار لهم من الإقرار على أنفسهم بأنهم مفترون كاذبون ، ولما كان الكذب على الله عز وجل هو أقبح الكذب وأفحشه أردف تبارك وتعالى هذا البيان بقوله : ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليُضِلَّ الناسَ بغير علم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ والفاء في قوله تعالى : ﴿فمن أظلم﴾ هي الفصيحة ، ومن استفهام إنكاري أي فلا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم . ولم يقل : فمن أظلم منكم ، وقال : ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم﴾ ليثبت لهم هذه الأوصاف القبيحة ، وهي

أنهم ظالمون مفترّون كاذبون ضالّون مضلون جاهلون، وَلِيَعْمَهُمْ ومن على شاكلتهم كذلك أيضا ومعنى قوله هنا: ﴿افترى على الله كذبا﴾ أي حرّم ما لم يحرمه الله ونَسَبَ ذلك التحريم إلى الله افتراءً عليه. والهداية في قوله عز وجل: ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ هي هداية التوفيق والإعانة والتسديد، لا هداية البيان. قال ابن جرير رحمه الله: وأما قوله: ﴿أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم﴾ فإنه أمرٌ من الله جل ثناؤه نبيّه ﷺ أن يقول لهؤلاء الجهلة من المشركين الذين قَصَّ قصصهم في هذه الآيات التي مضت، يقول له عزّ ذكره: قل لهم يا محمد: أيّ هذه سألتكم عن تحريمه حرّم ربكم عليكم من هذه الأزواج الثمانية؟ فإن أجابوك عن شيء مما سألتهم عنه من ذلك، فقل لهم: أَخْبَرَا قَلْتُمْ: «إن الله حرّم هذا عليكم»، أَخْبَرَكُمْ به رسول عن ربكم أم شَهِدْتُمْ ربكم فرأيتموه، فَوَصَّاكُمْ بهذا الذي تقولون وتُزَوِّرُونَ على الله؟ فإن هذا الذي تقولون من أخباركم عن الله أنه حرام بما تزعمون على ما تزعمون، لا يُعْلَمُ إلا بوحي من عنده مع رسول يرسله إلى خلقه، أو بسماع منه، فَبَإَيِّ هَٰذَيْنِ الوجهين علمتم أن الله حرّم ذلك كذلك، برسول أرسله إليكم فأنبئوني بعلم إن كنتم صادقين؟ أم شهدتم ربكم فأوصاكم بذلك، وقال لكم: حَرَّمْتُ ذلك عليكم، فسمعتم تحريمه منه، وَعَهْدُهُ إليكم بذلك؟ فإنه لم يكن واحداً من هذين الأمرين، يقول جل ثناؤه: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ يقول: فمن أشدّ ظلماً لنفسه وأبعد عن الحق ممن تَحَرَّصَ على الله قِيلَ الكذب، وأضاف إليه تحريم ما لم يُحَرِّمْ وتحليل ما لم يُحَلِّلْ ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بغير علم﴾ يقول: ليصدّهم عن سبيله ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يقول: لا يُوقِّقُ الله للرشد من افترى على الله وقال عليه الزور والكذب وأضاف إليه تحريم ما لم يُحَرِّمْ، كُفِّرَا بالله، وجحوداً لنبوة نبيه محمد

ﷺ اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أَوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ
 يَطْعَمُهُ﴾ الآية رَدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ حَرَّمُوا بَعْضَ الْأَنْعَامِ كَالْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ
 وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِي، وَبَيَانٌ لِمَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِتَأْكِيدِ افْتِرَاءِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى
 اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنَّهُمْ حَرَّمُوا مَا لَمْ يَحْرِمَهُ اللَّهُ، وَالتَّعْبِيرُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ﴾
 وَبِقَوْلِهِ: ﴿فِيهَا أَوْحِيَ إِلَيَّ﴾ لِلإِذْنِ بِأَنَّ مَنَاطَ الْحَلِّ وَالْحَرَمَةِ هُوَ الْوَحْيُ،
 وَمَعْنَى ﴿طَاعِمٍ﴾ أَيَّ آكَلٍ وَهُوَ يَشْمَلُ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى فِيهِ رَدُّ عَلَى قَوْلِهِمْ:
 ﴿وَحَرَّمَ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ وَالتَّقْيِيدُ بِقَوْلِهِ: يَطْعَمُهُ لزيادة التقرير، وَقَوْلُهُ ﴿إِلَّا أَنْ
 يَكُونَ مَيْتَةً﴾ الْإِسْتِثْنَاءُ مِنْ مَوْصُوفٍ ﴿مُحَرَّمًا﴾ الْمَحْذُوفِ وَالتَّقْدِيرُ: لَا أَجِدُ
 حَيَوَانًا مِنَ الْأَزْوَاجِ الثَّمَانِيَةِ مُحَرَّمًا إِلَّا حَيَوَانًا مُتَصِفًا بِالمَوْتِ وَإِلَّا الدَّمَ الْمُسْفُوحَ
 وَلَحْمَ الْخَنْزِيرِ وَمَا ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ. وَالْمُرَادُ بِالمُسْفُوحِ هُوَ الدَّمُ السَّائِلُ مِنَ
 الذَّبِيحَةِ، وَالتَّقْيِيدُ بِاللَّحْمِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ﴾ لِلإِشَارَةِ إِلَى
 أَنَّهُ نَجَسٌ الْعَيْنُ لَا تَحْلَهُ التَّذْكِيَةُ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنَّهُ رَجَسٌ﴾
 لِللَّحْمِ الْخَنْزِيرِ، وَالْجُمْلَةُ اعْتِرَاضِيَّةٌ لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ قَدْ سَقَتْ لَتَعْلِيلِ
 تَحْرِيمِ لَحْمِ الْخَنْزِيرِ، وَالرَّجَسُ: الْخَبِيثُ النَجَسُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْخَنْزِيرَ خَبِيثٌ
 لِدَاثِهِ، وَضَرَرُهُ وَأَكْلُهُ النَجَاسَاتِ. وَقَدْ أَثْبَتَ التَّحْلِيلُ أَنَّهُ أَكْبَرُ أَسْبَابِ
 الْإِصَابَةِ بِالدُّودَةِ «الشَّرِيطِيَّةِ» لِأَكْلِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ فَسَقًا﴾ عَطَفَ عَلَى ﴿لَحْمِ
 خَنْزِيرٍ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ صِفَةٌ لِقَوْلِهِ: ﴿فَسَقًا﴾ وَالْمُرَادُ بِهِ مَا ذَبَحَ
 لِغَيْرِ اللَّهِ مِنَ الْقَرَابِينَ، وَاسْمِي فَسَقًا لِتَوَغُّلِهِ فِي الْخُرُوجِ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَقَدْ
 تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الثَّالِثَةِ وَالسَّبْعِينَ بَعْدَ الْمِائَةِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَا يَبِينُ الْمُرَادَ
 مِنْ أَلْفَاظِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، كَمَا سَقْتُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ التَّاسِعَةِ عَشْرَةَ بَعْدَ
 الْمِائَةِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ مَا يَشْبَهُ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ،
 وَالْحَصْرُ فِي الْمَحْرَمَاتِ الْأَرْبَعِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَشَبِيهَاتِهَا مِنَ الْآيَاتِ
 الْكَرِيمَةِ الْمُبَارَكَةِ هُوَ حَصْرُ نَسْبِيٍّ لَا يَنَافِي أَنْ يَرُدَّ بَعْدَهُ تَحْرِيمُ شَيْءٍ سِوَاهُ. وَقَدْ

نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطير
وعن أكل الحمر الأهلية فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث
أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل كل ذي ناب
من السباع، كما روى مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول
الله ﷺ نهى عن كل ذي ناب من السباع وعن كل ذي مخلب من الطير. كما
روى البخاري ومسلم من أحاديث علي وابن عمر وجابر بن عبد الله والبراء
وابن أبي أوفى وأبي ثعلبة وأنس بن مالك رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ نهى
عن الحمر الأهلية.

قال تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْخَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ * سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آبائنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ * قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ .

بعد أن أفحم الله تبارك وتعالى المشركين الجاهلين فيما تَقَوَّلُوا على الله تبارك وتعالى وبيّن أنه لا سند لهم في تحريم ما حَرَّمُوا إلا الافتراء على الله ونفى أن يكون للمشركين علم أو مشاهدة بتحريم شيء منها ، وَحَصَرَ المحرمات التي ثبت تحريمها على الناس كافة ، شرع هنا في ذكر ما حَرَّمه الله عز وجل على اليهود خاصة عقوبة لهم بسبب بغْيِهِمْ وظلمهم ، ثم وصى رسوله ﷺ ورغب في الاستجابة له ، ورهب من الإعراض عنه ، ثم ذكر عز وجل فَنَّا آخر من فنون كفر أهل الجاهلية وأخبر عنه قبل وقوعه منهم فوقع كما أخبر به عز وجل حيث حكى عنهم أنهم سيعتذرون عن كفرياتهم وافتراءاتهم فيقولون : لو شاء الله ما أشركنا ولا آبائنا ولا حَرَّمنا من شيء ، وبيّن تبارك وتعالى أن حجّتهم داحضة وأن حجة الله هي البالغة حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ وعلى الذين هادُوا حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ﴾ إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿ قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ والمراد بالذين هادوا : اليهود ، وقدم الجار والمجرور للدلالة على الحصر ، والجملة معطوفة على مضمون الآية السابقة ، أي لا أجد محرماً إلا هذا وإلا ما حَرَّمه الله على اليهود خاصة بسبب ظلمهم وبغْيِهِمْ . والمراد بذِي الظفر : ما له إصبع غير مشقوق من دابة أو طائر

كالبعير والنعامة والوزَّ والبط . وقوله عز وجل : ﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ أي وحرمنا على اليهود شحوم البقر والغنم إلا ثلاثة أنواع من هذه الشحوم فالأول هو الشحم الذي حملته ظهور البقر والغنم وعلق بها . والثاني هو شحم الحوايا وهي الأمعاء والمصارين والثالث هو الشحم المختلط بعظم البقر أو الغنم ، وما عدا هذه الأنواع الثلاثة فقد حرمه الله على اليهود عقوبة لهم كشحم البطن ، وشحم الكلى ، وهذا الذي حَرَّمَهُ اللهُ عز وجل على اليهود بسبب بغيتهم هو غير الذي حَرَّمَهُ إسرائيل على نفسه ، المذكور في قوله تبارك وتعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ﴾ والإشارة في قوله عز وجل : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ﴾ للتحريم الذي ألزم الله عز وجل به بني إسرائيل عقوبة لهم ، أي هذا الذي حرّمنا على الذين هادوا من الأنعام والطيور ذوات الأظافر غير المنفرجة ومن شحوم البقر والغنم قد حرّمناه عليهم عقوبة مِنَّا لهم وجزاء عاجلا على أعمالهم السيئة من الظلم والبغي ، كما قال عز وجل : ﴿ فَبَطَلْهُمْ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ ثُبُّوا عَنْهُ وَأَكَلَهُمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : يقول : وإنا لصادقون في خبرنا هذا عن هؤلاء اليهود عما حرّمنا عليهم من الشحوم ولحوم الأنعام والطيور التي ذكرنا أنّا حرّمنا عليهم ، وفي غير ذلك من أخبارنا ، وهم الكاذبون في زعمهم أن ذلك إنما حَرَّمَهُ إسرائيل على نفسه وأنهم إنما حرموه لتحريم إسرائيل إياه على نفسه اهـ وقد أخبر رسول الله ﷺ أن بني إسرائيل لما حَرَّمَ اللهُ عليهم الشحوم احتالوا فَجَمَلُوهَا ثُمَّ بَاعُوهَا وَأَكَلُوا ثَمَنَهَا ، فقد روى البخاري من حديث عمر رضي

الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قاتل الله اليهود ، حُرِّمَتْ عليهم الشحوم
 فَجَمَلُوهَا فباعوها . كما أخرج البخاري من حديث جابر بن عبد الله
 رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : قاتل الله اليهود ، إن الله لما حَرَّمَ
 شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه ، وفي لفظ للبخاري من حديث جابر
 ابن عبد الله رضي الله عنهما : سمعت النبي ﷺ قال : قاتل الله اليهود ، لما
 حَرَّمَ الله عليهم شحومها جملوها ثم باعوها فأكلوها . ومعنى جملوها أي
 أَذَابُوهَا ، وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله أن رسول
 الله ﷺ قال : قاتل الله اليهود ، إن الله عز وجل لما حَرَّمَ عليهم شحومها
 أجملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه ، وفي رواية لمسلم من حديث عمر رضي الله عنه
 أن رسول الله ﷺ قال : لعن الله اليهود ، حُرِّمَتْ عليهم الشحوم فجملوها
 فباعوها ، كما روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : قاتل
 الله اليهود حَرَّمَ الله عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها . وفي لفظ لمسلم من
 حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قاتل الله اليهود ، حُرِّمَتْ عليهم
 الشحم ، فباعوه وأكلوا ثمنه . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنْ كَذِبُوكُمْ فَقُلْ رِبِّكُمْ
 ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرِمِينَ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله :
 يقول تعالى : فَإِنْ كَذِبُوكُمْ يَا مُحَمَّدُ مَخَالِفُوكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَمَنْ شَابَهُهُمْ
 فَقُلْ : ﴿ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة
 واتباع رسوله ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرِمِينَ ﴾ ترهيب لهم في مخالفتهم
 الرسول خاتم النبيين ، وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في
 القرآن كما قال تعالى في آخر هذه السورة : ﴿ إِنْ رَبُّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ
 لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وقال : ﴿ وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنْ رَبُّكَ
 لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ
 عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدُ

العقاب ﴿وقال: ﴿إِنْ بَطَّشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٍ﴾ * إنه هو يُبْدِي وَيَعِيد * وهو الغفور الودود﴾ والآيات في هذا كثيرة جداً. اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حَرَمْنَا من شيء، كذلك كَذَّبَ الذين من قبلهم حتى ذاقوا بَأْسَنَا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تَخْرُصُونَ﴾ بيانٌ لجهل المشركين وأنهم لم يعرفوا الله عز وجل إذ ظنُّوا أن مُجَرَّدَ صدور الشرك منهم وتحريم ما حَرَّموا يكفيهم في الدلالة على مشروعية ما صنعوا زعمًا منهم أن مشيئة الله بصدور الفعل منهم تقتضي رِضَى الله عن عملهم، وخلطوا بين مشيئة الله ورضاه، وحسبوا أنَّ ما شاءه هو راض عنه، والحال ليس كذلك فإن المشيئة هي الإرادة الكونية القدرية وليست ملازمة للإرادة الشرعية التي تدل على رضى الله ومحبته، وهو لا يأمر إلا بما يحب ويرضى، وهو لا يرضى لعباده الكفر، والواقع الصحيح أن الاحتجاج بقدر الله ومشيئته ينبغي أن يلاحظ فيه أمران: فالقَدَرُ إما أن يقترن بمصائب أو أن يقترن بمعايب، إذ قد يرتكب الإنسان جريمة كالشرك أو الزنا أو السرقة أو القتل أو شرب الخمر، فإذا قيل له: لِمَ فعلتَ ذلك؟ قال: قَدَرُ الله أو مشيئةُ الله أو قضاءُ الله، ونسب جريمته إلى القدر والمشيئة. وهذا خطأ فإنه لا يصح الاحتجاج بالقَدَر على ارتكاب المعاييب، لأن الله لم يبين له القَدَرُ قبل ارتكابه الجريمة ولم يأذن له في ارتكابها، أما إذا أصيب إنسان بمصيبة من المصائب التي لم يقع فيها بإرادته واختياره كالمرض أو الفقر أو كأن ينقلب وهو نائم على شخص فيقتله أو تنفلت منه حصاة أو نحوها على شخص بدون قصد فتصيبه أو تغلبه عينه رغم أنه فينام عن الصلاة فإن له أن يحتج في كل هذه المصائب بالقدر ويقول: قَدَرُ الله وما شاء فعل، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلتُ كان كذا وكذا ، ولكن قل : قَدَّرَ الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان . وهؤلاء المشركون لم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد وإنما ذكروها على جهة التكذيب للرسول ﷺ لما نهاهم عن الشرك وأخبرهم أن الله منع من الشرك وأنه لم يحرم ما حرموه ولذلك ردَّ الله عز وجل عليهم بقوله : ﴿كذلك كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ أي كذلك كذبت الأمم السابقة الرسل حتى حلت بالمكذبين عقوبة الله ، كما قال عز وجل : ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ولا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم إن هم إلا بَغِيضُونَ * أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ولذلك قال هنا : ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تَخْرُصُونَ﴾ أي هل عندكم من كتاب عن الله عز وجل بأنه راض عن شرككم وتحريم ما تحرمون فإن كان عندكم علم فأبرزوه لنا وأظهروه وبينوه ، والواقع أنكم لا علم عندكم بما تقولون وتفعلون فأنتم لا تتبعون في شرككم وتحريم ما تحرمون إلا الوهم والخيال والرأي الفاسد ، وما أنتم إلا تفترون على الله فيما ادعيتموه . قال ابن كثير رحمه الله : وقولُه تعالى : ﴿قل فله الحجةُ البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿فله الحجة البالغة﴾ أي له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى

وإضلال من ضل ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ فكُلُّ ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ وقال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ وقوله ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأَمَلَانَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ اهـ.

قال تعالى : ﴿قُلْ هَلْمْ شَهِدَاءُكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ * قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَالِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا نَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَالِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ * وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَالِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

بعد أن قطع الله جميع شبه الكفار الذين افتروا على الله وأفحمهم حيث أثبت أن الله عز وجل لم يرسل إليهم وحيا بما زعموا ، ولم يكلمهم مشافهة ، طَالَبَهُمْ هنا بإحضار شهودهم على ما زعموا إن كان لديهم شهود ، ليبين أنهم ليس لديهم شهود ألبتة حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿قُلْ هَلْمْ شَهِدَاءُكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ * أي قل يا محمد لهؤلاء السفهاء الجاهلين المشركين الذين جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ولأوثانهم نصيبا وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء وأنعام حُرِّمَتْ ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ، وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن مِيتة فهم فيه شركاء ، وقد انقطعوا عن أن يُشْبِتُوا أن الله أوحى إليهم أو شافهم بذلك التحريم والتحليل ، قل لهم : هاتوا شَهِدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ

عليكم ما تزعمون أنه حَرَّمَ عليكم ما حرَّمتموه من الحرث والأنعام ، فإن اجترءوا وجاءوك بشهود يشهدون أن الله هو الذي حَرَّمَ عليهم فلا تكثر لهم ولا تبال بشهادتهم فإنهم يكونون شهوداً كذبةً فجرة لا تقبل لهم شهادة . ولا تتأثر بهم فإنَّ أمورهم مبنية على الكذب والهوى وهم لا يؤمنون بقدره الله على بعث الموتى وهم يعدلون بربهم الأوثان والأصنام ، وليس في قوله عز وجل : ﴿فلا تشهد معهم﴾ ما يدل على أن رسول الله ﷺ قد تنأتى منه الشهادة معهم ، فإنه ﷺ معصوم من ذلك ، بل المراد تحذير أمته من أن يتأثروا بشهادة هؤلاء وأمثالهم لو شهدوا بالباطل المقطوع ببطلانه . قال ابن جرير رحمه الله : قال الله لنبيه : ﴿فإن شهدوا﴾ يقول : يا محمد فإن جاءوك بشهداء يشهدون أن الله حَرَّمَ ما يزعمون أن الله حَرَّمه عليهم ﴿فلا تشهد معهم﴾ فإنهم كذبةٌ وشهودٌ زور في شهادتهم بما شهدوا به من ذلك على الله ، وخاطَبَ بذلك جل ثناؤه نبيّه ﷺ ، والمرادُ به أصحابه والمؤمنون به ﴿ولا تتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا﴾ يقول : ولا تُتَابِعُهُمْ على ما هم عليه من التكذيب بوحي الله وتنزيله في تحريم ما حَرَّمَ وتحليل ما أحل لهم ، ولكن اتبع ما أوحى إليك من كتاب ربك الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿والذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ يقول : ولا تتبع أهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة فَتَكْذِبَ بما هم به مكذبون من إحياء الله خلقه بعد مماتهم ، ونَشْرِهِ إِيَّاهُمْ بعد فنائهم ، ﴿وهم بربهم يعدلون﴾ يقول : وهم مع تكذيبهم بالبعث بعد الممات ، وجُحُودِهِمْ قيام الساعة ، بالله يعدلون الأوثان والأصنام ، فيجعلونها له عِدْلاً ، ويتخذونها له نِدْلاً ، يعبدونها من دونه اهـ .

وقال القاضي أبو بكر ابن العربي : وليس في الآية الرضا بالشهادة ثم الإنكار ، إنما فيها طلبُ الدليل واستدعاءُ البرهان على الدعوى ، فإن العرب نَحَكَمَتْ بالتحريم والتحليل ، فقال الله لنبيه : قل لهم : هاتوا شهداءكم بأن

هذا من عند الله أي حجتكم حتى نسمعها وننظر فيها . فإن قيل : فما فائدة قوله : ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾ ؟ قلنا : هذا تحذير من الله لنبیه لتَعْلَمَ أَمَّتُهُ المعنى ، فإن قال شهداؤهم مثل ما يقولون فلا تقله معهم ، فهذا دليل على أن الشاهد إذا قال ما قام الدليل على بطلانه فلا تقبل شهادته اهـ وبعد أن أظهر عجزهم عن إخراج شيء يمكن أن يستدلوا به على تحريم ما حرّموا ، وبعد أن بيّن ما حرّمه الله عز وجل من الأطعمة على الناس عموما وعلى اليهود خصوصا شرع هنا في بيان ما حرّمه الله عز وجل من محرمات العقائد والسلوك بأسلوب حكيم حيث أمر نبيّه ﷺ أن يقول لهم : تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ ربكم عليكم ، وَذَكَرَ الوصايا العشر التي أطبق جميع النبيين والمرسلين على وصية أهمهم بمراعاتها والقيام بحققها ، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ذلّكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ وهذه الوصايا العشر التي وصت بها هذه الآيات الثلاث قد وصى بها جميع النبيين والمرسلين ، وقد ذكر عبد الله بن مسعود رضی الله عنه أن من سره أن ينظر إلى صحيفة رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هذه الآيات مشيرا بذلك إلى أنها محكمات لم ينسخ منها شيء وهن محرمات على بني آدم كلهم ، فقد قال الترمذي في التفسير من جامعه : حدثنا الفضل بن الصّبّاح البغدادي حدثنا محمد بن فضيل عن داود الأودي عن الشعبي عن علقمة عن عبد الله قال : من سرّه أن ينظر إلى الصحيفة التي عليها خاتم محمد ﷺ فليقرأ هذه الآيات : ﴿قل تعالوا أتْلُ مَا حَرَّمَ ربكم عليكم﴾ الآية إلى قوله : ﴿لعلكم تتقون﴾ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب اهـ .

وهذه الوصايا العشر هي تحريم الشرك بالله ، وتحريم الإساءة إلى الوالدين وتحريم قتل الأولاد من إملاق ، وتحريم الفواحش الظاهرة والباطنة ، وتحريم

قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وتحريم أكل مال اليتيم، وتحريم بخس الكيل والميزان، وتحريم قول الزور، وتحريم نقض العهد، وتحريم الخروج عن صراط الله المستقيم، وقد أورد الله تبارك وتعالى خمس وصايا منها بصيغة النهي عنها وأورد أربع وصايا منها بصيغة الأمر المراد به النهي عن ضده، وجمع في الوصية العاشرة بين الأمر والنهي حيث قال فيها: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْشَرُوا بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وقد اشتملت هذه الصيغ على ألوان من الفصاحة والبلاغة والبيان ومراعاة مقتضيات الأحوال ما يعجز عن التعبير عنه أرباب الفصاحة وأساطين البيان، وقد بدأ هذه الوصايا بتحريم الشرك لأنه من مات وهو يشرك بالله فقد حَرَّمَ الله عليه الجنة، وقد ثَنَّى بالوصية بالوالدين لعظيم حقهما، ولذلك قرن الله عز وجل الوصية بهما بالوصية بتوحيده في غير موضع من القرآن الكريم حيث يقول: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وقال عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ لِقْمَانُ لابْنَهُ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَالَهُ فِي غَمَمِينَ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾ وكان مقتضى سياق الوصية الثانية أن يقال: «وَلَا تُسَيِّئُوا إِلَى الْوَالِدَيْنِ» لكن لما كان النهي عن الإساءة إلى الوالدين لا يتحتم منه وجوب الإحسان إليهما عدل عن مقتضى السياق إلى مقتضى الحال فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ليشمل تحريم الإساءة ووجوب الإحسان إليهما. أي وأحسنوا بالوالدين إحسانا، وكذلك الحال في سائر الأوامر الواردة في هذه الآيات الثلاث حيث كان السياق يقتضي مجيئها بصورة النواهي فعدل بها إلى صيغة الأوامر لإفادة تأكيد النهي عن أضدادها مع زيادة ما يفيد لفظ الأمر، ولا شك في ظهور المراد من ذلك، لأن هذه

الأوامر لما وردت مع النواهي وتقدمهن جميعاً فَعُلَّ التحريم واشتركن في الدخول تحت حكمه عُلِمَ أن التحريم راجع إلى أضدادها وهي الإساءة إلى الوالدين وبخس الكيل والميزان وترك العدل في القول ونكث العهد، أما الوصية الثالثة فهي قوله: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾ أي ولا تقتلوا أولادكم بسبب الفقر فرزقكم ورزقهم على الله وحده، أما الوصية الرابعة فهي قوله: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ أي ولا تأتوا فاحشة من الفواحش بحال من الأحوال سرا أو علنا، والفواحش جمع فاحشة وهي ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي كالزنا وعمل قوم لوط وكشف العورة أو وصفها أو النظر إليها، وتتناول أيضا كل قبيح مستبشع. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وفي قوله: ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ عموم لأنواع كثيرة من الأقوال والأفعال اهـ والوصية الخامسة هي قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحق﴾ أي ولا تقتلوا النفس التي لم يبيح الله قتلها لكونها نفس مسلم أو معاهد إلا إذا ارتكبت ما يبيح قتلها من أن تقتل نفسا فَتُقتَل قَوْدًا بها، أو تزني وهي محصنة فترجم، أو ترتد عن دينها الحق فتقتل. وقد جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة. كما روى البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما. ومعنى قوله: ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ أي هذه الوصايا الخمس وصاكم الله بها وعهد إليكم بذلك لتعقلوا وتحبسوا أنفسكم عن ارتكاب القبائح المذكورة، والوصية السادسة هي قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ حتى يبلغ

أشده ﴿أي ولا تأكلوا مال اليتيم ظلماً ولا تتناولوا منه شيئاً حتى يحتلم فتجتمع قوته ، فإن أنستم منه رشداً فليدفع وليه له ماله ، وعلى وليه قبل دفع المال له أن يكون تصرفه فيه بما فيه صلاحه ، وإن كان الولي فقيراً فله أن يأكل منه بالمعروف كما قال عز وجل : ﴿ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيباً﴾ والوصية السابعة هي تحريم بخش الكيل والميزان ووجوب إيفائهما بالعدل المستطاع ، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ . والوصية الثامنة هي قوله تعالى : ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾ أي ولا تتكلموا إلا بالحق ولا تشهدوا الزور مهما كان المشهود له أو عليه ، والوصية التاسعة هي قوله تعالى : ﴿وبعهد الله أوفوا﴾ أي ولا تنقضوا العهود والمواثيق وأتموها لمن عاهدتموه ، ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾ أي هذه الوصايا الأربع المذكورة في هذه الآية قد وصاكم الله بها لتعظوا وتنفكروا في عواقب أموركم ، فتسلخوا الصراط المستقيم . أما الوصية العاشرة فهي قوله تبارك وتعالى : ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ أي وأن هذا الذي وصاكم به ربكم هو المنهج القويم والصراط المستقيم الذي يدعو إليه محمد ﷺ فاعملوا به ولا تسلكوا طريقاً سواه ولا تتخذوا منهجاً غيره فإنكم إن التزمت بهذا المنهج الذي ارتضاه الله لعباده أوصلكم إلى الجنة ، وإن انحرفتم عنه واتبعتم سبيل الشيطان صرتم إلى النار كما قال عز وجل : ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نؤله ما تولى ونُصليه جهنم وساءت مصيراً﴾ فاستمسكوا بصراط الله المستقيم لتكونوا في عداد المتقين .

قال تعالى : ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهِمْ بَلَقَاءَ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ * أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتٍ مِنَ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدَفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدَفُونَ ﴾ .

بعد أن ذكر تبارك وتعالى الوصايا العشر أشار هنا إلى أن هذه الوصايا قد وصى الله تبارك وتعالى بها بني آدم مذ أوجدهم وكلفهم ، وأنه عز وجل كان يبعث في كل أمة رسولا يُفَصِّلُ لقومه الحلال والحرام مع التزامهم بهذه الوصايا العشر ، وأنه قد آتى موسى عليه السلام الكتاب وهو التوراة مشتملا على أحسن المناهج التي لا غنى لقومه عنها وفيه تفصيل كل شيء يهدي إلى الصراط المستقيم ، كما أنزل على محمد ﷺ الكتاب الكريم وهو القرآن العظيم والذكر الحكيم الكثير البركات والخيرات ليرحم الله عز وجل من استمسك بهديه ، وليقطع عذر الكافرين حتى لا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير وذلك لتقرير الرسالة ولتأكيد أن محمدا ﷺ ليس بدعا من الرسل ، وقد توعد الله عز وجل المكذبين به المعرضين عنه بالعقاب الذي يستحقونه على تكذيبهم وإعراضهم ، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهِمْ بَلَقَاءَ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ * إلى قوله : ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدَفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدَفُونَ ﴾ و﴿ثُمَّ﴾ في قوله تبارك وتعالى : ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ لترتيب إيتاء

موسى الكتاب وتراخيه على ما تقدمه من إحياء الله لأنبيائه ورسله السابقين
 بالوصايا العشر التي حَرَّمَها الله عز وجل قبل إيتاء موسى الكتاب، وجعلها
 محرمةً في جميع شرائع الأنبياء والمرسلين من أولهم إلى خاتمهم وسيدهم محمد
 ﷺ وعليهم أجمعين. ومعنى قوله عز وجل: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ
 وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّاهُمْ بَلِّغُوا رِبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لتتم نعمتنا
 على الذي أحسن أي على كل من كان محسنا صالحا من أتباع موسى عليه
 السلام مع وفاء هذا الكتاب بسائر الأحكام على المنهج الذي أحسن رعاية
 مصالح قوم موسى عليه السلام، وجاء ملائما لزمانهم وأحوالهم، كما أن هذا
 الكتاب قد جاء فيه تفصيل كل شيء من العقائد وسائر الأمور الدنيوية
 والأخروية التي لا غنى لبني إسرائيل عنها في جميع ما يتعلق بمعاشهم
 ومعادهم، كما أنه قد اشتمل على الهدى والرشاد والرحمة والرفقة التي يستنير
 بها من يؤمن بهذا الكتاب ليصدق بقاء الله والحشر والنشر والثواب
 والعقاب. كما قال عز وجل: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةٌ
 وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ وكما قال عز
 وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾. والإشارة في قوله تعالى: ﴿وَهَذَا
 كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ للقرآن العظيم والذكر
 الحكيم المنزل على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد صلوات الله وسلامه
 وتحياته وبركاته عليه وعليهم أجمعين. وفي ذكر القرآن بعد ذكر التوراة مباشرة
 لفت انتباه مشركي العرب واليهود الذين كانوا ينكرون القرآن والرسالة
 وتقريعتهم على قولهم: ما أنزل الله على بشر من شيء كما قال عز وجل: ﴿وَمَا
 قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾، قل من أنزل
 الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها
 وتحفون كثيرا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قل الله ثم ذرهم في خوضهم

يلعبون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴿ الآية . كما أن في هذا الاقتران بين التوراة والقرآن تقريرا وتوبيخا للعرب الجاهلين المكذبين الذين كانوا يعيبون على أهل الكتاب من اليهود والنصارى عدم الاستمسك بهدي كتابهم ويُقسمون بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم أدنى نذير ليكونن أهدى من اليهود والنصارى فلما جاءهم أعظم المنذرين مازادهم إلا نفورا . كما قال عز وجل : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكوننَّ أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا ﴾ ولم يذكر الله عز وجل الإنجيل هنا لأن التوراة كانت أشهر منه في جزيرة العرب كما أنه كان مُتَمِّمًا لها فهي كالأصل بالنسبة له ، مع أنه أشار إلى الإنجيل في الآية التالية حيث قال : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين ﴾ أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ﴾ الآية . ولذلك قال عز وجل مخبرا عن الجن أنهم لما سمعوا القرآن قالوا : إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى حيث يقول عز وجل : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتُوا فلما قُضِيَ وَلَّوْا إلى قومهم منذرين ﴾ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾ وفي قوله عز وجل في وصف القرآن ﴿ كتاب أنزلناه مبارك ﴾ إشارة إلى أن هذا القرآن المنزل من الله كتاب مبارك كامل شامل لجميع مصالح العباد لا ينسخ حتى ينسخ الليل والنهار والشمس والقمر ، فالمبارك هو ما يأتي من قِبَلِهِ الخير الكثير المتتابع النامي ، والبركة الكثرة في كل خير . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فاتبعوه واطقوا لعلكم ترحمون ﴾ أي انقادوا لهذا القرآن فاجعلوه إماما تتبعونه وتعملون بما فيه وتحلون حلاله وتحرمون حرامه وتنهجون منهجه فإنه الصراط المستقيم ، واحذروا أن تضيعوه أو تتعدوا حدوده أو تستحلوا محارمه ، واحرصوا أشد الحرص على صيانتة من التحريف لترحوا فتنجوا من عذاب الله

وأليم عقابه وتفوزوا بجنت النعيم، وتخلدوا في رحمة الله، وقوله تبارك
 وتعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ الآيتين بيان بأن
 الله تبارك وتعالى قد أنزل القرآن العظيم المبارك على نبيه محمد ﷺ رحمة بالناس
 وقطعا لعذر المشركين الجاهلين حتى لا يعتذروا يوم القيامة بأنهم ما جاءهم
 بشير ولا نذير فلا يتأتى منهم أن يقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين أي
 جماعتين من قبلنا ويعنون بهما اليهود والنصارى، قال ابن جرير رحمه الله:
 وأما: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ فإنه يعني: أن تقولوا: وقد كنا عن
 تلاوة الطائفتين الكتاب الذي أنزلت عليهم «غافلين» لا ندري ما هي ولا
 نعلم ما يقرءون، وما يقولون، وما أنزل إليهم في كتابهم، لأنهم كانوا أهله
 دوننا، ولم نُعَنَ به ولم نُؤمر بما فيه، ولا هو بلساننا، فيتخذوا ذلك حجة،
 فقطع الله بإنزاله القرآن على نبيه محمد ﷺ حجتهم تلك اهـ. وقد وصف
 رسول الله ﷺ ربنا تبارك وتعالى بأنه لا أحد أحب إليه العذر من الله فقد جاء
 في لفظ للبخاري في صحيحه من حديث المغيرة قال: قال سعد بن عُبادة:
 لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربت به بالسيف غير مُصَفَّح، فبلغ ذلك رسول الله
 ﷺ فقال: تَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن
 أجل غيرة الله حَرَّمَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبُّ إليه
 العُذْرُ من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحبُّ إليه
 المِدْحَةُ من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة. كما أشار عز وجل إلى قطع
 عذر المشركين بإرسال الرسل في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ
 مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ
 وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى
 موسى، أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا
 بكل كافرون * قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم

صادقين * فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتَّبِعُونَ أهواءهم ، ومن أضلُّ ممن اتَّبَعَ هواه بغير هدى من الله ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴿١﴾ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿٢﴾ أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴿٣﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿٤﴾ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين ﴿٥﴾ لتقريع المشركين أيضا وقطع العلة التي كانوا يَعْتَلُونَ بها ويعلنونها ، فبعد أن بيَّن أن مجيء القرآن العظيم يقطع اعتذارهم فلا يُمكنُهُمْ أن يدَّعُوا عند حلول العقاب بهم أنهم ما جاءهم من بشير ولا نذير حيث كان الكتاب المنزل من الله قد نزل على بني إسرائيل ولم ينزل عليهم ، ثم قطع العلة التي كانوا يعتلون بها مُدَّعين أنهم أسرع لطاعة الله من أهل الكتاب متباهين بقوة أذهانهم ، متفاخرين بحسن أفهامهم ، حيث كانوا يُقسِمُونَ بالله جهد أيانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم يعني اليهود والنصارى ، فقطع علتهم هذه أيضا حيث قال : ﴿٦﴾ فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴿٧﴾ وقد فضَّل الله تبارك وتعالى ذلك في سورة فاطر وبيَّن علة استمرارهم على الكفر والعناد بعد أن جاءهم أعظم المنذرين محمد ﷺ فقال : ﴿٨﴾ وأقسموا بالله جهد أيانهم لئن جاءهم نذير ليكوننَّ أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا * استكبارا في الأرض ومكر السيئ ، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنت الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴿٩﴾ . ومعنى قوله : ﴿١٠﴾ فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴿١١﴾ أي فقد أتاكم كتاب من ربكم هو حجة واضحة بلسان عربي ، فيه البيان وقطع الشبهات عنكم ، وتفصيل الحلال والحرام يهدي القلوب إلى طريق ربها وباريها ويرشد النفوس إلى أسباب عزها وسعادتها ، وهو رحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويعملون بما فيه . وقوله تبارك وتعالى :

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ
عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ بيان للوعيد الشديد الذي توعد
الله به من كَذَبَ بآيَاتِ اللَّهِ التي بعث بها رسوله ﷺ وأعرض عنها وصَدَّ
الناس عنها، قال في القاموس: وَصَدَفَ عَنْهُ يَصْدِفُ أَعْرَضَ وَفَلَانَا صَرَفَهُ
كَأَصْدَفَهُ هـ. أي لا أحد أعظم جرماً وأكبر إثماً ممن كذب بآيات الله وأعرض
عنها ونهى الناس عن الإيمان بها فلم يكتف بكونه ضالاً بل أضل غيره
كذلك، وسيعاقبه الله عز وجل العقاب الذي يستحقه على هذه الجريمة
التي اقترفها، وَيُحْمَلُهُ وَزَرَ جريمته، وكما قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا
وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ .

قال تعالى : ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ، يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، قل انتظروا إِنَّا منتظرون ﴾ * إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ، إِنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ * من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ .

بعد أن أشار تبارك وتعالى إلى أنه قد أنزل القرآن العظيم على رسوله محمد ﷺ رحمة بالناس وقطعاً لعذر المشركين الجاهلين حتى لا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، شرع هنا في بيان ألوان من تعنت الكفار الذين لم يكفهم ما أنزل الله من البينات والهدى فذكر عز وجل أنهم لا يَزْعُمُونَ عن التهادي في المكابرة واقتراح ما ينافي الحكمة في التشريع وَوَبَّخَهُمْ على استغراقهم في السفاهة والضلال حيث كانوا يطلبون من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالملائكة أو أن يجيء الله إليهم أو يُخْرِقَ لهم نظام الكون ، كما قال عز وجل : ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ﴾ * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالهالة والملائكة قبلاً ﴾ * إلى قوله : ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ * وكما قال عز وجل : ﴿وقال الذين لا يزجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ * ثم وَبَّخَ اليهود والنصارى الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، ثم رَغَّبَ عز وجل في الحسنات ورَهَّبَ من السيئات . وفي ذلك يقول : ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ﴾ * إلى

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسيِّئَةِ فَلَا يَجْزِي إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الآية، شبيهة بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ كما أن به شَبَهًا من قوله تبارك وتعالى في سورة النحل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ، يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ أي لماذا لم يسارع هؤلاء إلى الدخول في الإسلام، وقد كشفت لهم كل شبهة من الشبهات التي يتعللون بها؟ وماذا ينتظرون؟ هل ينتظرون أن يعاينوا عقابا من الله ينزل بهم في الدنيا فإذا رأوه آمنوا؟ أو ينتظرون عقاب الله لهم في الدار الآخرة؟ هل يرغبون في تقليد بني إسرائيل الذين قالوا لموسى عليه السلام: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون؟ إن الإيمان عند نزول عذاب الله بالْمَكْذِبِينَ لا يَنْفَعُهُمْ، كما قال عز وجل: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنْجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا، كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كما أنَّ الإِيْمَانَ عند مجيء الله لفصل القضاء بين العباد يوم القيامة لا يَنْفَعُ مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ، كما قال عز وجل: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ، أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وقد فسر رسول الله ﷺ المراد من بعض الآيات التي إذا جاءت لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ

كسبت في إيمانها خيراً بأنه طلوع الشمس من مغربها ، فقد روى البخاري في تفسير هذه الآية من صحيحه من طريق أبي زُرْعَةَ حدثنا أبوهريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها ، فإذا رآها الناسُ آمنَ مَنْ عليها ، فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل . ثم قال البخاري : حدثني إسحاق أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها ، ثم قرأ الآية . وساق البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه من طريق أبي الزناد عن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً . الحديث . وفي لفظ لمسلم في صحيحه من طريق العلاء وهو ابن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت من مغربها آمن الناس كلهم أجمعون ، فيومئذ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ أي لا ينفع كافراً لم يكن آمن قبل طلوع الشمس من مغربها إيمانٌ بعد هذا الطلوع ، ولا ينفع مؤمناً لم يكن عمل صالحاً قبل الطلوع عملٌ صالح بعد الطلوع لأن حكم الإيمان والعمل الصالح حينئذ حكم من آمن أو عمل عند الغرغرة وذلك لا يفيد شيئاً كما قال عز وجل : ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿ قل انتظروا إنا منتظرون ﴾ قال أبو جعفر : يقول تعالى

لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء العادلين برهم الأوثان والأصنام: انتظروا أن تأتيكم الملائكة بالموت فتقبض أرواحكم، أو أن يأتي ربكم لفصل القضاء بيننا وبينكم في موقف القيامة، أو أن يأتيكم طلوع الشمس من مغربها فتطوى صحف الأعمال، ولا ينفعكم إيمانكم حينئذ إن آمنتم، حتى تعلموا حينئذ المحق منا من المبطل، والمسيئ من المحسن، والصادق من الكاذب، وتبينوا عند ذلك بمن يحق عذاب الله وأليم نكاله. ومن الناجي منا ومنكم ومن الهالك، إنا منتظرو ذلك، ليجزل الله لنا ثوابه على طاعتنا إياه وإخلاصنا العبادة له، وإفراذناه بالربوبية دون ما سواه، ويفصل بيننا وبينكم بالحق، وهو خير الفاصلين اهـ والمراد بالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً هم اليهود والنصارى كما قال عز وجل: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ ولئن كان اليهود والنصارى يدخلون في ذلك دخولاً أولياً فإن لفظ الآية يعُمُّ كل من كان على شاكلتهم ممن يُفرَّقون دين الله ويشتون شمل المسلمين ويمزقون وُحدَتَهُم من أهل الأهواء والبدع إلى يوم القيامة، قال الزجاج: ومعنى: ﴿وكانوا شيعاً﴾ أي كانوا متفرقين في دينهم، يعني به اليهود والنصارى، لأن النصارى بعضها يكفر بعضها، وكذلك اليهود، وهم أيضاً أهل التوراة، وبعضهم يكفر بعضها أعني اليهود تكفر النصارى والنصارى تكفر اليهود، وفي هذه الآية حثٌّ على أن تكون كلمة المسلمين واحدة، وأن لا يتفرقوا في الدين، وأن لا يتدعوا البدع ما استطاعوا. اهـ وقال ابن كثير رحمه الله: والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وكان مُحَالِفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق فمن اختلف فيه ﴿وكانوا شيعاً﴾ أي فرقاً كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات فإن الله تعالى قد برأ رسوله ﷺ مما هم فيه. اهـ وقد روى أبوداود والترمذي وقال

حديث حسن صحيح عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعَيْونُ ، فقلنا : يا رسول الله كأنها موعظة مُودَّعٌ فأوصنا ، قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي ، وإنه من يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ ، فَإِنْ كَلَّ بَدْعَةُ ضَلَالَةٍ . ومعنى قوله عز وجل : ﴿لست منهم في شيء﴾ أي أنت بريء منهم كما أنهم برآء منك ، والعرب تقول : لست مني ولستُ منك في شيء أي كل واحد منا بريء من صاحبه ، ومن هذا ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : فمن رغب عن سنتي فليس مني . وقوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي إِنَّمَا مَرَدُّ أُمُورِهِمْ إِلَى اللَّهِ فَهُوَ وَحْدَهُ الْمَالِكُ لَهُمُ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِمْ ، نَوَاصِيهِمْ بِيَدِهِ يَفْعَلُ بِهِمْ مَا يَشَاءُ فِيَهْدِي مَنْ أَرَادَ هِدَايَتَهُ فَضْلًا وَيُخْذِلُ مَنْ لَمْ يَرِدْ اللَّهَ هِدَايَتَهُ عَدْلًا ، وَسَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِمَا عَمِلَ ، فَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذِكْرٍ أَوْ أَتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَمْ يَفْعَلْ مَا يَحْبِطُ هَذِهِ الْحَسَنَةَ حَتَّى لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا كَافَأَهُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، وَمَنْ ارْتَكَبَ مَعْصِيَةً وَلَمْ يَغْفِرْهَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ حَتَّى لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا جَازَاهُ بِمِثْلِهَا ، وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا . والمراد بالحسنة هنا فعل المأمور والمراد بالسيسة هنا ارتكاب المحذور ، وأصل لفظ الحسنة يطلق على النعمة كما يطلق على العمل الصالح ، كما أن لفظ السيسة قد يطلق على المصيبة كما يطلق على العمل المحذور . ومثال الإطلاق الأول للحسنات والسيئات قوله عز وجل : ﴿إِنْ تَمْسِكُمْ حَسَنَةً تَنْسُوهُمْ وَإِنْ تَتَّبِعُوا سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وقوله عز وجل : ﴿إِنْ تَصْبِكُمْ حَسَنَةً تَنْسُوهُمْ وَإِنْ

تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴿ وقوله عز وجل : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ ومثال الإطلاق الثاني الآية التي هنا وكذلك قوله عز وجل : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل قال : قال : إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة . وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن من همَّ بسيئة فلم يعملها إنما تكتب له حسنة إذا كان ترك السيئة خوفاً من الله فقد جاء في لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قالت الملائكة : رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جرّائي .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ * قُلْ إِنَّ صِلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ .

هذه خواتيم المسك من سورة الأنعام يأمر الله تبارك وتعالى فيها رسوله ﷺ أن يبين للناس أن الهداية بيد الله وحده ، وأن الدين الحق هو ما عليه رسول الله محمد ﷺ ، وأنه الصراط المستقيم وهو الدين القيم الذي لا اعوجاج فيه ، وهو ملة إبراهيم إمام الحنفاء وأبي الأنبياء ، الذي لم يشرك بالله شيئا ولم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ، كما يأمر الله تبارك وتعالى رسوله محمدا ﷺ أن يعلن أن صلاته ونُسُكُه ومَحْيَاهُ ومَمَاتُه لله رب العالمين لا شريك له ، وأن الله تبارك وتعالى قد أمره بإخلاص التوحيد لله عز وجل ، وأنه ﷺ أوَّلُ المسارعين إلى الامتثال والانقياد إلى ما أمره الله عز وجل به من أمة الإسلام التي هي خير أمة أخرجت للناس ، كما أمره عز وجل أن ينكر ويُنذِرَ بمن يتخذ إلهًا غير الله الذي هو رب كل شيء وسيدته ومليكه ولا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه الحسنی وصفاته العلی ، وأن كلَّ إنسان مسئول أمام الله عز وجل عن عمله ولن تتحمل نفسُ آثمةٍ إثمَ نفسِ آثمةٍ أخرى ، وأن مرجع جميع العباد إلى الله ليجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، فإنه عز وجل هو الربُّ الجليلُ المالكُ وحده لأرواح عباده وأرزاقهم ، وقد جعلهم يخلف بعضهم بعضا ويعلم الحيُّ منهم أنه قد هلك من كان قبله ، وأنه صار خلفا له في

الأرض بعد هلاكه، وأنه لا بقاء له على هذه الأرض بعده إلا بالأجل الذي أجله الله له، كما قال تعالى: ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور ﴿وكما قدر آجال عباده قدر كذلك أرزاقهم وفاوت بينهم في الرزق حتى يتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا ليخبرهم فيما خولهم فيه من فضله وَمَنَحَهُمْ من رزقه، ليطمئنوا﴾ الشاكرون من الكافرين، وهو عز وجل عالم بهم وبما يكون منهم قبل وجودهم، وهو مجازيهم بأعمالهم وهو سريع العقاب لأعدائه، وهو الغفور الرحيم لأوليائه. وفي هذا يقول تبارك وتعالى: ﴿قل إنني هادي ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين﴾ إلى آخر السورة الكريمة. ومعنى ﴿إنني هادي ربي إلى صراط مستقيم﴾ أي إنني أرشدني ربي ووفقني إلى المنهج المعتدل الذي لا اعوجاج فيه، والمقصود به دين الإسلام الذي هو صراط الذين أنعم الله عليهم الذي أوصى الله تبارك وتعالى أمة محمد ﷺ أن يسألوا الله في كل ركعة من ركعات صلواتهم أن يهديهم لسلكه حيث يقول عز وجل في سورة الفاتحة التي لا صلاة لمن لم يقرأ بها: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴿وقد وصف الله تبارك وتعالى دينه الذي بعث به محمداً ﷺ بأنه صراط مستقيم وأكد ذلك في مواضع كثيرة من القرآن العظيم وذكر ذلك في هذه السورة مرات حيث قال في الآية السادسة والعشرين بعد المائة من هذه السورة: ﴿وهذا صراط ربك مستقيماً، قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون﴾ وقال في الآية الثالثة والخمسين بعد المائة: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ وقال هنا: ﴿قل إنني هادي ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين﴾ وهدي قد ورد في

القرآن الكريم متعديا بنفسه كقوله عز وجل : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾
وكقوله تعالى : ﴿وَيَهْدِيكَ صراطا مستقيما﴾ وكقوله تعالى : ﴿وهديناه
النجدين﴾ وَوَرَدَ متعديا باللام كقوله تعالى : ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾
وكقوله تعالى : ﴿قل الله يهدي للحق﴾ وورد متعديا بإلى كقوله تعالى هنا :
﴿هداني ربي إلى صراط مستقيم﴾ وكقوله تعالى : ﴿واهدنا إلى سواء
الصراط﴾ وهو يتعدى إلى مفعولين بنفسه كقوله تعالى : ﴿وَيَهْدِيكَ صراطا
مستقيما﴾ وقد يتعدى إلى أحد المفعولين بنفسه وإلى الثاني بواسطة حرف الجر
كما في هذه الآية ، وقوله عز وجل : ﴿دِينًا﴾ قد انتصب على البدل من محل
﴿إلى صراط﴾ لأن محله النصب على أنه المفعول الثاني لَهْدَي قال
الزجاج : وأما نصب ﴿دينا قيما ملة إبراهيم﴾ فمحمولٌ على المعنى ، لأنه لما
قال : هداني إلى صراط مستقيم ، دلَّ على عَرَفْنِي دينا قيما ، ويجوز أن يكون
علي البدل من معنى : هداني إلى صراط مستقيم ، المعنى : هداني صراطا
مستقيما دينا قيما ، كما قال جل وعز : ﴿وَيَهْدِيكَ صراطا مستقيما﴾ ﴿ملةً
إبراهيم﴾ بدل من ﴿دينا قيما﴾ و﴿حنيفا﴾ منصوب على الحال من إبراهيم ،
المعنى : هداني وعرفني ملة إبراهيم في حال حنيفيته اهد وقد قرأ عاصم
وعبدالله بن عامر وحمزة والكسائي ﴿قِيَمًا﴾ بكسر القاف وتخفيف الياء وقرأ
ابن كثير ونافع وأبوعمر و﴿قِيَمًا﴾ بفتح القاف وتشديد الياء ، وهما بمعنى
واحد ، والمراد به القائم الثابت المعتدل الذي لا اعوجاج فيه بحال من
الأحوال ، المقيم لمن استمسك به ، ومن لزمه نجا من الانحراف وسَلِمَ من
الضياع في مهامه الضلال ، وعرف سبيل الرشاد . وفي قوله تبارك وتعالى :
﴿وما كان من المشركين﴾ تنديد بمن يدَّعي أنه يحب إبراهيم عليه السلام من
اليهود والنصارى والمشركين ، وهم يسلكون منهجا مناقضا لملة إبراهيم عليه
السلام ، ويشركون بالله ما لم ينزل به سلطانا ، حيث عبد العرب الأصنام

والأوثان، وقالت اليهود: عزيزُ ابنُ الله. وقالت النصارى: المسيحُ ابنُ الله، وقد نَبَّه الله تبارك وتعالى إلى هذه الحقيقة في مقامات كثيرة من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقال عز وجل: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ، فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقال عز وجل: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ تجريدٌ لتوحيد الله تبارك وتعالى في ألوهيته وربوبيته وأسمائه الحسنی وصفاته العلی، ففي قوله: ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ إشارة إلى توحيد الإلهية لله وحده، وفي قوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ إشارة إلى توحيد الربوبية وفي قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى توحيد الله عز وجل في أسمائه الحسنی وصفاته العلی، قال ابن جرير الطبري رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبیہ محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام الذين يسألونك أن تتبع أهواءهم على الباطل من عبادة الآلهة والأوثان ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ يقول: وذبحي ﴿وَمَحْيَايَ﴾ يقول: وحياتي ﴿وَمَمَاتِي﴾ يقول: ووفاتي ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني أن ذلك كله له خالصا دون ما أشركتم به أيها المشركون من الأوثان ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في شيء من ذلك من خلقه، ولا شيء منهم فيه نصيب، لأنه لا ينبغي أن يكون ذلك إلا له خالصا ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ يقول: وبذلك أمرني ربي ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ يقول: وأنا أول من أقرَّ وأذعن وخضع من هذه الأمة لربه بأن ذلك كذلك اهـ وقوله عز وجل: ﴿قُلْ أَعِزَّ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ

وَاِزْرَةٌ وِزْرٌ آخِرِي ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٣١﴾ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : يَقُولُ تَعَالَى ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ بِاللَّهِ فِي إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا﴾ أَيِ أَطْلَبُ رَبًّا سِوَاهُ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُرَبِّيْنِي وَيَحْفَظُنِي وَيَكَلِّفُنِي وَيُدَبِّرُ أَمْرِي ، أَيِ لَا أَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ ، وَلَا أُنِيبُ إِلَّا إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْأَمْرُ بِإِخْلَاصِ التَّوَكُّلِ كَمَا تَضَمَّنَتْ الَّتِي قَبْلُهَا إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهَذَا الْمَعْنَى يُقَرَّنُ بِالْآخِرِ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُرْشِدًا لِعِبَادِهِ أَنْ يَقُولُوا لَهُ : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ إِنْخِبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جَزَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُكْمِهِ وَعَدْلِهِ أَنَّ النُّفُوسَ إِنَّمَا تُجَازَى بِأَعْمَالِهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرًا ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا ، وَأَنَّهُ لَا يُحْمَلُ مِنْ خَطِيئَةِ أَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ ، وَهَذَا مِنْ عَدْلِهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ : ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قَرْبَى﴾ أَهْدَ وَلَا مَعَارِضَةَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ ﷺ : وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوَزَرٌ مِنْ عَمَلٍ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ . الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَكَذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تَقْتُلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمَائِهَا لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ . لِأَنَّ الدَّاعِيَ إِلَى الضَّلَالَةِ إِنَّمَا يَحْمِلُ مِثْلَ أَوْزَارِ مَنْ أَضَلَّهُمْ وَذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِ ، وَلَمْ تَسْقُطْ عَنِ الضَّالِّينَ أَوْزَارُهُمْ . وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ لِتَأْكِيدِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَأَنَّ

العباد مسئولون عن أعمالهم ومجزيون بها . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ أي جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، وخلفاً بعد سلف ، قاله ابن زيد وغيره ، كقوله تعالى : ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ وقوله : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ وقوله : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ وقوله : ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان ، وله الحكمة في ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً ﴾ وقوله : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ اهـ ومعنى قوله ﴿ ليلوكم في ما آتاكم ﴾ أي ليختبركم فيما منحكم ، ومعنى قوله : ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ أي إن الله سريع العقاب لأعدائه وهو الغفور الرحيم لأوليائه .

وقد اتضح سبيل الرُّشد المبشِّر سالكوه بمغفرة الله ورحمته ، وتعرّت سُبُلُ الغي المنذرُ سالكوها بسخط الله وعقوبته ، وجاء البيان بذلك على أكمل وجه وأتمه ، فليختر الإنسان لنفسه ما يجب لها ، كما قال الشاعر :

أمامك فانظر أيَّ نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج
والحمد لله رب العالمين ، وبهذا تم تفسير سورة الأنعام وما توفيقي إلا بالله

تفسير

سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ﴾ كتابٌ أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلا ما تذكرون * وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون * فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين .

هذه سورة الأعراف ، وهي مكية ، وإنما سميت سورة الأعراف لأن الله تبارك وتعالى ذكر فيها الأعراف حيث قال : ﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال﴾ وحيث قال : ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم﴾ والأعراف مكانٌ مُشْرِفٌ بين الجنة والنار كما سيأتي تحقيق القول فيه إن شاء الله تعالى ، والمناسبة بين سورة الأعراف وسورة الأنعام أن السورتين تتحدثان عن تقرير التوحيد والرسالة والبعث بعد الموت كما أن السورتين تتحدثان عن افتراء المشركين واليهود والنصارى على الله عز وجل وتحريم ما لم يحرمه وتحليل ما حرمه كما حكاه الله عز وجل عنهم في سورة الأنعام ، وكما حكى عنهم في سورة الأعراف حيث ذكر عن المشركين أنهم كانوا إذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، وكانوا يطوفون بالبيت الحرام عراة - الرجال والنساء - زاعمين أن الله أمرهم بهذا ، وفي هذا يقول عز وجل عنهم : ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ إلى أن يقول : ﴿يا بنى آدم خذوا زيتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين﴾ قل من حَرَّمَ زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا

في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون *
 قل إنما حَرَّمَ رَبِّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق
 وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴿١﴾ . وكما
 حكى عن أهل الكتاب : ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها
 حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم ، سنزيد
 المحسنين ﴾ فبدَّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم
 رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴿٢﴾ أما المناسبة بين آخر سورة الأنعام وأول
 سورة الأعراف فإنه عز وجل أشار في آخر سورة الأنعام إلى أنه أهلك القرون
 والأمم الخالية ، وجعل الحاضرين خلائف الغابرين ، وجعل آجال عباده
 وأرزاقهم بيده وحده لابتلائهم واختبارهم ليظهر المطيع من العاصي ، ثم
 أشار في صدر سورة الأعراف إلى أن وظيفة رسول الله ﷺ هي تبليغ الرسالة
 وأن الله عز وجل قد أنزل عليه الكتاب لينذر به وذكرى للمؤمنين ، فمن
 أطاعه سعد ومن عصاه شقي ، وأن الله عز وجل قد أهلك الكثير من الأمم
 الماضية لما عَتَوْا عن أمر ربهم وَعَصَوْا رُسُلَهُ فجاءهم بأسُ الله بيّاتاً أو هم
 قائلون . وقوله تبارك وتعالى : ﴿الْمَصَّ﴾ هو من الحروف المفرقة في أوائل
 بعض السُّور ، وقد أُنْبِت في الحديث عليها في تفسير أول سورة البقرة في
 قوله تبارك وتعالى : ﴿الْمَ﴾ وَنَبَّهْتُ هُنَاكَ إِلَى أَنَّهُ مِمَّا يُؤَيَّدُ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذِكْرِ
 هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمَفْرُقَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ هُوَ الْإِعْجَازُ وَالتَّحْدِي وَإِثْبَاتُ أَنَّهُ مِنْ
 عِنْدِ اللَّهِ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَذْكُرُ عَقَبَ هَذِهِ الْحُرُوفِ فِي افْتِتَاحِيَّاتِ السُّورِ
 الْقُرْآنِ صِرَاحَةً أَوْ ضِمْنًا ثُمَّ يَذْكُرُ اخْتِلَافَ النَّاسِ بَيْنَ مُؤْمِنٍ بِهِ أَوْ مُكَذِّبٍ لَهُ ،
 وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَحْصِلُ لَهُمْ عِزُّ الدُّنْيَا وَسَعَادَةُ الْآخِرَةِ وَأَنَّ الْمَكْذِبِينَ يَرْجِعُونَ بِخِزْيِ
 الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ ، ثُمَّ يَخْتِمُ السُّورَةَ بِمِثْلِ مَا بَدَأَهَا بِهِ مِنْ مَدْحِ الْقُرْآنِ
 وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَذَمِّ الْمَكْذِبِينَ وَبَيَانِ سُوءِ عَاقِبَتِهِمْ ، وَمِنْ أَمْثَلِ مَا ذَكَرْتُ قَوْلُهُ

تبارك وتعالى هنا بعد ذكر قوله : ﴿الْمَصْرُ﴾ ﴿كَتَبْتُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لَتُنذِرَ بِهِ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي خواتيم المسك من سورة الأعراف هذه قال : ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴿ إلى آخر السورة . ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿كَتَبْتُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لَتُنذِرَ بِهِ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هذا القرآن يا محمد كتاب أنزله الله إليك فَلْيَسْمَعْ صَدْرُكَ لَهُ ، ولا تضق بحمله وحفظه ، ولا تخش تَفْلُتُهُ من قلبك فقد تَكَفَّلْنَا بجمعه في صدرك ، ولا تخف من تبليغه لأمتك ، لأن ربك يعصمك من الناس ، فأنذر به الكافرين والمنحرفين ، وذكّر به المؤمنين ، فما عليك إلا البلاغ المبين ، فلا تَبَخَّعْ نفسك إن لم يصدقوك ، ولا تجزع لإعراضهم عنك ، واصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن رسول الله ﷺ كان شديد الحرص على إيمان قومه وإسلامهم وأنه كان يضيق صدره ويشد حَرَجَهُ لما يراه من إصرار قومه على الكفر حيث يقول عز وجل : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ كما أشار رسول الله ﷺ إلى نحو ما أشرت ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار المُجَاشَعِي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : أَلَا إِنْ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أَعْلَمَكُمُ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا : كُلِّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلُّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يَشْرَكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَرَبِيَّتُهُمْ وَعَجَمَتُهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَقَالَ : إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأُبْتَلِيَكَ وَأُبْتَلِيَ بِكَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ ، تَقْرُؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانُ ، وَإِنَّ اللَّهَ

أمرني أن أحرّق قريشا، فقلت: ربّ إذا يتلغوا رأسي فيدعوهُ خُبْزَةً. الحديث ولا شك أن نزول القرآن العظيم على النبي الأمي محمد ﷺ وضبطهُ له وقيامهُ به هو الآية العظمى والمعجزة الكبرى، ويكفي في الإشارة إلى هذا العبد العظيم قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ وقوله عز وجل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مَتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقد كان رسولُ الله ﷺ يتَقَصَّدُ جَبِينَهُ عَرَقًا حين ينزل عليه الوحي، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيتُ عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول، قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتقصد عرقًا. وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ التفات من توجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ إلى توجيه الخطاب إلى جميع المكلفين. قال أبو السعود العمادي في قوله تبارك وتعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم﴾ كلام مستأنف خوطب به كافة المكلفين بطريق التلوين، وأمرُوا باتباع ما أمر النبي ﷺ قبله بتبليغه بطريق الإنذار والتذكير، وجعله مُنزلاً إليهم بواسطة إنزاله إليه ﷺ إثر ذكر ما يصححه من الإنذار والتذكير لتأكيد وجوب اتباعه اه وقال القاضي أبو بكر ابن العربي في أحكام القرآن في تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قال علماؤنا: معناه: أحلُّوا حلاله، وحَرَّمُوا حَرَامه، وامثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، واستبيحوا مُباحه، وازجروا وُعده، وخافوا وعيده، واقتضوا

حكمه، وانشروا من علمه علمه، واستجسوا خباياه، ولجوا زواياه، واستثيروا جائمه، وفُضُّوا خاتمه، وألحقوا به مُلائمته اهـ. وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ثم قال تعالى مخاطبا للعالم: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مَن دُونَهُ أُولَئِكَ﴾ أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره ﴿فَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ كقوله ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿وَأَن تَطْعَمَ أَكْثَرُ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية. وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهْمٌ مَّشْرُكُونَ﴾ اهـ وقوله عز وجل: ﴿وَكُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ * فما كان دعواهم إذ جاءهم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿إِنذَارٌ لِّلْكَافِرِ بِمَا جَرَى عَلَى الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الَّتِي كَذَبَتْ رُسُلَهَا وَأَصْرَتْ عَلَى الْكُفْرِ، وَكُم لِّلْكَثِيرِ أَي قُرَى كَثِيرَةٍ وَمَعْنَى أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي قضينا بتدميرها لما أصرت على تكذيب رسلها، ومعنى ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي فَحَلَّ بِهَا عَذَابُنَا لَيْلًا أَوْ ضُحَى فِي وَقْتِ نَوْمِهِمْ، أَوْ غَفْلَتِهِمْ وَلَهْوِهِمْ، حَيْثُ اغْتَرَوْا بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ فَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَنَزَلَ بِهِمْ مَا يَكْرَهُونَ فِي وَقْتِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ * وَأَوَّامِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحَى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿. قَالَ الزَّجَّاجُ: وَمَعْنَى ﴿بَيَاتًا﴾ لَيْلًا، يُقَالُ: بَاتَ بَيَاتًا حَسَنًا، وَبَيَّتَ حَسَنَةً، وَالْمَصْدَرُ فِي الْأَصْلِ بَيَّتًا، وَالْبَيْتُ بَيْتُ الشَّعْرِ وَكَذَلِكَ بَيْتُ الْمَدَرِ، وَإِنَّمَا أَصْلُ تَسْمِيَتِهِ مِنْ أَنَّهُ يَصْلُحُ لِلْمَيْتِ، وَيُقَالُ لِفُلَانٍ بَيْتَةٌ وَلَيْلَةٌ وَبَيْتُ لَيْلَةٍ، أَي مَا يَكْفِيهِ مِنَ الْقُوَّةِ فِي لَيْلَةٍ. وَمَعْنَى ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أَي أَوْجَاءَهُمْ بَأْسُنَا نَهَارًا فِي وَقْتِ الْقَائِلَةِ، يُقَالُ: قِلْتُ، مِنَ الْقَائِلَةِ، فَالْمَعْنَى: إِنَّهُمْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا غَفْلَةً، وَهُمْ غَيْرُ

متوقعين له ، إما ليلاً وهم نائمون ، أو نهاراً وهم قائلون كأنهم غافلون . اهـ .
ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴾ أي فما كان دعاؤهم وقولهم وتضرعهم عند نزول العذاب بهم إلا
الاعترافُ بجنايتهم والإقرارُ بجريمتهم نادمين على تكذيبهم لرسولهم حين لا
ينفعهم نَدْمُهُمْ كما قال عز وجل في خواتيم المسك من السورة السابقة :
﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ
كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ، قُلِ انْتظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ والدعوى في لسان العرب
تأتي بمعنى الادعاء والدعاء . قال سيويه : تقول العرب : اللهم أشركنا في
صالح دعوى المسلمين أي في دعائهم اهـ والمراد بالدعوى هنا هو الدعاء كما
قال عز وجل في سورة الأنبياء ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا
بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ فلما أَحَسُّوا بِأُسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا
وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ * فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين .

قال تعالى : ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقْصُنَّ عَلَيْهِمْ بَعْلَمَ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ * وَالْوَزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ .

بعد أن أثنى الله تبارك وتعالى على القرآن العظيم وَوَصَّى رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بأن يوسع صدره لما يُلْقَى إِلَيْهِ مِنَ الْوَحْيِ وَأَنْ يُنْذِرَ بِهِ الْكَافِرِينَ وَيُعْظِ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وأمر جميع المكلفين باتباع القرآن والوقوف عند حدوده ونهاهم عن عبادة غير الله ، وحذرهم من أن يقعوا في مثل ما وقعت فيه الأمم التي كذبت رسلها فأنزل الله بهم بأسه الشديد وعقابه المييد ، ولم ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأس الله ، شرع هنا في تأكيد الرسالة والبعث بعد الموت والحساب ووزن الأعمال وفلاح المؤمنين وخسران الظالمين حيث يقول عز وجل : ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقْصُنَّ عَلَيْهِمْ بَعْلَمَ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ أي فَلَنَسْأَلَنَّ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا أَجَابَتْ بِهِ رَسُلَ اللَّهِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ إِلَيْهِمْ سَوَآلَ تَقْرِيعٍ وَتَوْبِيخٍ لَا سَوَآلَ اسْتِفْهَامٍ وَاسْتِعْلَامٍ ، وَلَنَسْأَلَنَّ رُسُلَ اللَّهِ عَمَّا أَجَابَتْهُمْ بِهِ أَعْمَهُمْ لِتَأْكِيدِ تَوْبِيخِ الْمَكْذِبِينَ ، وتقرير تكريم المرسلين ، فَلَنُخْخِرَنَّ كُلَّ عَامِلٍ بِمَا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ وَلَنَحَاسِبُنْهُ عَلَى مَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ، ولم يغيب عنا ولم يُخَفَّ علينا شيء من أفعالهم حين عملوا ما عملوا لأنه لا يغيب علينا شيء في السموات ولا في الأرض وإن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله اللطيفُ الخبير الشهيد على عباده ، الرقيب عليهم المهيم على

حركاتهم وسكناتهم ، وهذا كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا
 أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا
 أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ . وكما روى البخاري في
 صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله
 ﷺ : يُدْعَى نوحُ يوم القيامة فيقول : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ ، فيقول : هل
 بَلَغْتَ ؟ فيقول : نعم ، فيقال لأُمته : هل بَلَغَكُمْ ؟ فيقولون ما أأتانا من نذير ،
 فيقول : مَنْ يَشْهَدُ لَكَ ؟ فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ ، فيشهدون أنه قد بَلَغَ ،
 ﴿ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ فذلك قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ
 جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ
 شَهِيدًا ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : القول في تأويل قوله ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ
 أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره : لَنَسْأَلَنَّ
 الْأُمَمَ الَّذِينَ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِمْ رُسُلِي مَاذَا عَمِلْتُمْ فِيمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ عِنْدِي
 مِنْ أَمْرِي وَنَهْيِي ؟ هل عملوا بما أَمَرْتُهُمْ بِهِ ، وَاَنْتَهَوْا عَمَّا نَهَيْتُهُمْ عَنْهُ ، وَأَطَاعُوا
 أَمْرِي ، أَمْ عَصَوْنِي فَخَالَفُوا ذَلِكَ ﴿ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ يقول : ولنسألن
 الرُّسُلَ الَّذِينَ أُرْسِلْتُمْ إِلَى الْأُمَمِ ، هل بَلَغْتُمْ رِسَالَاتِي وَأَدَّيْتُمْ إِلَيْهِمْ مَا أَمَرْتُهُمْ
 بِأَدَائِهِ إِلَيْهِمْ ، أَمْ قَصَرْتُمْ فِي ذَلِكَ فَفَرَّطُوا وَلَمْ يُبَلِّغُوهُمْ ؟ ثم قال ابن جرير رحمه
 الله : فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : وَكَيْفَ يَسْأَلُ الرُّسُلَ وَالْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ وَهُوَ يَخْبِرُ أَنَّهُ يَقْصُصُ
 عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ بِأَعْمَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ فِي ذَلِكَ ؟ قِيلَ : إِنْ ذَلِكَ مِنْهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ لَيْسَ
 بِمَسْأَلَةٍ اسْتِشْرَادٍ ، وَلَا مَسْأَلَةٍ تَعَرُّفٍ مِنْهُمْ مَا هُوَ بِهِ غَيْرِ عَالِمٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ
 مَسْأَلَةٌ تَوْبِيخٍ وَتَقْرِيرٍ مَعْنَاهَا الْخَبَرُ ، كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ : أَلَمْ أَحْسِنْ إِلَيْكَ
 فَاسْأَلْتَنِي ؟ أَلَمْ أَصِلْكَ فَقَطَعْتَ ؟ ؟ فَكَذَلِكَ مَسْأَلَةُ اللَّهِ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ بِأَنَّهُ يَقُولُ
 لَهُمْ : أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلِي بِالْبَيِّنَاتِ ؟ أَلَمْ أُبْعَثْ إِلَيْكُمْ النَّذِرَ فَتَنْذَرُكُمْ عَذَابِي وَعِقَابِي
 فِي هَذَا الْيَوْمِ مَنْ كَفَرَ بِي وَعَبَدَ غَيْرِي ؟ كَمَا أَخْبَرَ جُلَّ ثَنَاؤُهُ أَنَّهُ قَائِلٌ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ :

﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ
اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ونحو ذلك من القول الذي ظَاهِرُهُ ظاهِرٌ
مَسْأَلَةٌ، ومعناه الخبرُ والقَصَصُ وهو بعدُ توبيخٌ وتقريرٌ، وأما مَسْأَلَةُ الرسل
الذي هو قصص وخبر، فإن الأمم المشركة لما سئلت في القيامة قيل لها: ﴿أَلَمْ
يَأْتِكُمْ رَسَلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾؟ أنكر ذلك كثير منهم وقالوا:
ما جاءنا من بشير ولا نذير، ف قيل للرسل: هل بَلَّغْتُمْ ما أُرْسِلْتُمْ به؟ أو قيل
لهم: أَلَمْ تُبَلِّغُوا إِلَى هَؤُلَاءِ ما أُرْسِلْتُمْ به؟ كما جاء الخبر عن رسول الله ﷺ،
وكما قال جل ثناؤه لأمة نبينا محمد ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا
لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ فكلُّ ذلك من الله
مَسْأَلَةٌ للرسل على وجه الاستشهاد لهم على من أُرْسِلُوا إِلَيْهِ مِنَ الْأُمَمِ،
ولِلْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ على وجه التقرير والتوبيخ، وكلُّ ذلك بمعنى القصص
والخبر اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ
بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ بعد أن أثبت الله عز وجل أنه يسأل الأمم والرسل
ويحاسبهم على ما عملوا أثبت هنا أنه يزن أعمال عباده الوزن الحق إظهارا
لعدله لينكشف للعباد ما قدَّموا من الأعمال في دنياهم وتظهر جميع الأشياء
بحقائقها وبأوصافها وأحوالها على ما هي عليه في أنفسها من الحُسْنِ أو
القبح، وقد آمن أهل السنة والجماعة بما جاء عن الله، وبما جاء عن رسول الله
ﷺ من أن الله تبارك وتعالى يضع الموازين القسط ليوم القيامة وأن أعمال
العباد توزن فلا تُظْلَمُ نفسُ شيءٍ وإن كان مثقال حبة من خردل، كما قال عز
وجل: ﴿وَنُضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ وقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ
ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ

* وما أدراك ما هيبة * نارٌ حامية * وكما قال عز وجل : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ فمن ثَقُلْتُ موازينه فأُولَئِكَ هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * وقد روى أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجه كلهم من طريق الليث بن سعد حدثني عامر بن يحيى عن أبي عبدالرحمن الحُبَلِيِّ قال : سمعت عبدالله بن عمرو بن العاص يقول - وهذا لفظ الترمذي قال رسول الله ﷺ : إِنْ اللَّهَ سَيَخْلُصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رِءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ سِجِلًا ، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصْرِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَتَنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ ؟ فيقول : لَا يَا رَبِّ ، فيقول : أَفَلَاكَ عُذْرٌ ؟ فيقول : لَا يَا رَبِّ . فيقول : بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حِسَنَةً ، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فيقول : احْضَرُ وَزَنَكَ ، فيقول : يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ ، فقال : إِنَّكَ لَا تَظْلَمُ ، قال : فَتَوَضَّعُ السَّجَلَاتُ فِي كَفَّةٍ ، وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب ، وقد رواه الحاكم في المستدرک من طريق الليث بن سعد عن عامر بن يحيى عن أبي عبدالرحمن المعافري الحُبَلِيِّ أيضا وقال : هذا حديث صحيح لم يُخَرَّجْ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَهُوَ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ . ووافقه الذهبي على ذلك . وقد أشار القرآن العظيم والسنة النبوية إلى أن من مات على الكفر يحبط الله عز وجل ما قد يكون عمله من أعمال الخير ، فلا يثبت في ميزانه شيء من الحسنات حيث يقول عز وجل : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نَقِيمَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ زَنًا ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وَقَدْ مَنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ كما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

عن النبي ﷺ أنه قال : إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وقال : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ كما أشار رسول الله ﷺ إلى أن بعض الكلمات الصالحة وبعض الأفعال الصالحة يكون لها ثقلٌ عظيم في الميزان عند الله يوم القيامة فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم . وقد ختم البخاري رحمه الله صحيحه بهذا الحديث العظيم . كما روى أبوداود والترمذي واللفظ له من طريق أم الدرداء من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُقٍ حَسَنٍ . قال أبو عيسى : وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة وأنس وأسامة بن شريك وهذا حديث حسن صحيح . وقد أنكر بعض أهل الأهواء الميزان ووزن الأعمال يوم القيامة بدعوى أن الأعمال أعراض لا تقبل الوزن وإنما يقبل الوزن الأجسام . وقد جهل هؤلاء أن الله قادر على قلب الأعراض أجساماً كما صح الخبر عن رسول الله ﷺ أنه يؤتى بالموت كبشاً فيوقف بين الجنة والنار فيُذْبَحُ ويقال : خلود لا موت . قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره هذه الآية : فإن أنكر ذلك جاهل بتوجيه معنى خبر الله عن الميزان وخبر رسوله ﷺ عنه وجهته وقال : أو بالله حاجة إلى وزن الأشياء وهو العالم بمقدار كل شيء قبل خلقه إياه وبعده وفي كل حال ؟ أو قال : وكيف تُوزَنُ الأعمالُ والأعمالُ ليست بأجسام توصف بالثقل والخفة وإنما توزن الأشياء ليعرف ثقلها من خفتها ، وكثرتها من قلتها ، وذلك لا يجوز إلا على الأشياء التي توصف بالثقل والخفة والكثرة والقلة ؟ قيل له في قوله : وما وجه

وزن الله الأعمال وهو العالم بمقاديرها قبل كونها : وزنُ ذلك نظيرُ إثباته إياه في أم الكتاب واستنساخه ذلك في الكتب من غير حاجة به إليه ومن غير خوف من نسيانه وهو العالم بذلك في كل حالٍ ووقتٍ قبل كونه وبعد وجوده ، بل ليكون ذلك حجة على خلقه كما قال جل ثناؤه في تنزيله : ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴿ فكذلك وزنه تعالى أعمال خلقه بالميزان ، حجةٌ عليهم ولهم ، إما بالتقصير في طاعته والتضييع ، وإما بالتكميل والتميم اهـ . فمن ثقلت موازينه بالإيمان والأعمال الصالحة فاز وأفلح وصار في عيشة راضية في جنة عالية ، ومن خفت موازينه لخلوها من الخير فقد خاب وخسر لكفره بالله ولجحوده لآياته وتعديه على الحق ، فأُمُّهاوية ، وما أدراك ما هيئ ، نار حامية . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال تعالى : ﴿ ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش ، قليلاً ما تشكرون ﴾ * ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين * قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين * قال أنظرني إلى يوم يبعثون * قال إنك من المنظرين * قال فيما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم * ثم لا آتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين * قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ .

بعد أن أكَّد الله تبارك وتعالى الرِّسالةَ والبعثَ بعد الموت والحسابَ ووزنَ الأعمالِ ، وفلَّاحَ المؤمنين ، وخُسْرانَ الظالمين الجاحدين الكافرين شرع هنا في تذكير الناس بما أفاض عليهم من النعم ، وفي تحذيرهم من الانقياد لإبليس عدو الله وعدوهم ، الذي جعل أكبرَهم إغواءَ الناس وصرفهم عن شكر الله ، وضربَ عز وجل لهم أمثلة من صُورِ العداوة المتمكنة في نفس إبليس لآدم وذريته ، حيث يقول عز وجل : ﴿ ولقد مكنَّاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاشٍ ، قليلاً ما تشكرون ﴾ * إلى قوله عز وجل : ﴿ قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأنَّ جهنم منكم أجمعين ﴾ * ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ولقد مكنَّاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاشٍ ﴾ أي ولقد أقدرناكم ووطَّأنا لكم وسهَّلنا عليكم التصرف في الأرض وجعلناها لكم قراراً تستقرون فيها ، ومهاداً تمتهدونها ، وفراشاً تفرشونها وهديناكم إلى وسائل معاشكم من الغذاء والكساء والدواء ، وصيرناها لكم ذلولاً تمشون في مناكبها وتأكلون من رزق الله الذي يَسَّرُهُ لكم فيها من أنواع المطاعم النافعة

لأجسامكم، وتشربون من الماء الذي أنزله لكم من السماء فسلكه ينابيع في الأرض، منه شراب ومنه شجر فيه تُسَيَّمُونَ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، فعليكم أن تشكروا نِعَمَ الله عليكم، وقليل من عبادي الشكور، إن الإنسان لظَلُومٌ كَفَّارٌ، وقد اتفق القراء السبعة فيما تواتر من قراءاتهم على قراءة ﴿معايش﴾ بالياء قال ابن كثير رحمه الله: وقد قرأ الجميع ﴿معايش﴾ بلا همز إلا عبدالرحمن بن هرمز الأعرج فإنه همزها والصواب الذي عليه الأكثر بلا همز. اهـ وقال ابن جرير رحمه الله: قرأ ذلك عامة قراءة الأمصار ﴿معايش﴾ بغير همز، وقرأه عبدالرحمن الأعرج: ﴿معائش﴾ بالهمز، قال أبو جعفر: والصواب من القراءة في ذلك عندنا: ﴿معايش﴾ بغير همز، لأنها «مَفَاعِلٌ» من قول القائل: عِشْتَ تعيش، فالميم فيها زائدة، والياء في الحكم متحركة، لأن واحدا مَفْعَلَةٌ «مَعْيِشَةٌ» متحركة الياء، نقلت حركة الياء منها إلى العين في واحدها، فلما جُمِعَتْ رُدَّتْ حركتها إليها لسكون ما قبلها وتحركها، وكذلك تفعل العرب بالياء والواو إذا سكن ما قبلها وتحركتا، في نظائر ما وصفنا من الجمع الذي يأتي على مثال «مفاعل» وذلك مخالف لما جاء من الجمع على مثال «فعائل» التي تكون الياء فيها زائدة ليست بأصل، فإن ما جاء من الجمع على هذا المثال فالعرب تهمزه كقولهم: هذه مدائن، وصحائف ونظائرها، لأن مدائن جمع مدينة والمدينة فَعِيلَةٌ من قولهم: مدنت المدينة، وكذلك صحائف جمع صحيفة والصحيفة فعيلة من قولك: صحفت الصحيفة، فالياء في واحدها زائدة ساكنة فإذا جُمِعَتْ هُمَزَتْ، لخلافها في الجمع الياء التي كانت في واحدها، وذلك أنها كانت في واحدها ساكنة، وهي في الجمع متحركة اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ إلى قوله: ﴿قال اخرج منها مذءوما مدحورا﴾

لَمْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١﴾ تذكيرٌ بنعم عظيمة فائضة من الله تبارك وتعالى على آدم وذريته تُوجبُ على جميع الناس شكر الله عز وجل عليها، وتحذيرٌ لهم من طاعة إبليس الذي أظهر العداوة لأبيهم آدم عليه السلام وتعهّد بإفساد ذريته وصرفهم عن طاعة الله، وفي قوله عز وجل : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ تنبيهٌ على عظيم قدرة الله عز وجل حيث قدَّرَ إيجاد آدم وذريته فأوجده من طين غير مصور ثم سواه وصوّره في هذه الصورة البشرية الكريمة حيث خطَّطَه وشقَّ حواسه، ونفخ فيه من روحه ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين وصوّرهم على صورته الآدمية، وقد روى أحمد وأبوداود والترمذي وقال الترمذي : حسن صحيح من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك، كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته . ولهذا نسب الخلق والتصوير في هذا المقام إلى المخاطبين مع أن المقصود الأصلي هو خلق آدم وتصويره بدليل قوله عز وجل : ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ إشارة إلى أن لهم حظًا من خلقه وتصويره لأن الخلق والتصوير قد سرى إلى ذريته، قال ابن جرير رحمه الله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ ولقد خلقنا آدم ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ بتصويرنا آدم، كما قد بينا فيما مضى من خطاب العرب الرجل بالأفعال تُضيفها إليه، والمعنى في ذلك سَلَفُهُ، وكما قال جل ثناؤه لمن بين أظهر المؤمنين من اليهود على عهد رسول الله ﷺ : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ وما أشبه ذلك من الخطاب

المَوْجَّه إلى الحي الموجود، والمرادُ به السلفُ المعدومُ فكذلك ذلك في قوله : ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ معناه : ولقد خلقنا أباكم آدم ثم صورناه اهـ . ومما يؤكد أن هذا هو المراد قوله عز وجل بعدها مباشرة : ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ وقد ذكر الله عز وجل قصة خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود له وامتناع إبليس أبي الجان من السجود لآدم في سبع سور من القرآن الكريم ، وهي سورة البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه وص . وقد سقت نصوصها في تفسيرها من سورة البقرة ، وقلت هناك : وفي تكرير هذه القصة في هذه السور وفي تصريحها هذا التصريف البلاغي المعجزَ حجةً قاهرة ، وآية باهرة ، شاهدة ناطقة بأن القرآن من عند الله ، وفيه تنبيهٌ أيُّ تنبيه وتحذير أشدُّ التحذير من إبليس عَدُوِّ أبينا آدم وعدوِّنا ، إذ المقصود من تصريح هذه القصة تأكيد العداوة بين إبليس وذرية آدم وأن كل فساد في الأرض إنما هو من عمل إبليس وجنوده ، وفي ذلك ذكر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وقد نَقَلْتُ هناك قول القرطبي رحمه الله في تفسيره : واختلف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن سجودَ عبادة . كما ذكرت هناك أن إبليس لم يكن من الملائكة وإنما كان من الجن ، وكان له ذرية وليس للملائكة ذرية فهم لا يتناسلون . وقد نص القرآن الكريم على أن إبليس كان من الجن حيث يقول عز وجل في سورة الكهف : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بَدَلًا﴾ ومما لا شك فيه عند العلماء بلغة العرب أنهم كانوا يستثنون من الجنس ومن غير الجنس ، كما في هذا المقام ويسمى الاستثناء المنقطع ، ومن التصريف البلاغي اللافت للانتباه أنه عز وجل قال هنا : ﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك﴾ وقال في سورة ص : ﴿قال يا إبليس ما

منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ ﴿ ولا شك عند أهل العلم بالتفسير والتأويل أن المراد في الموضعين هو توبيخ إبليس على عدم السجود ، وقد ذكرت في تفسير الآية الرابعة والثمانين بعد المائة من سورة البقرة في قوله عز وجل : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ أن العرب قد تحذف الحرف وهو مراد أو قد تذكره وهو غير مراد لعلم السامع بالمراد كقوله تبارك وتعالى : ﴿ قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف ﴾ أي قالوا تالله لا تفتأ تذكر يوسف . وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤثوا أولى القربى ﴾ أي ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن لا يؤثوا أولى القربى ومنه قول امرئ القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا وإن قطعوا رأسي لديك وأوصالي
أي لا أبرح قاعدا لأن العرب لا يستعملون فتى وبرح إلا منفية ، فإذا جاءت بغير حرف النفي عُلِمَ قطعاً أنه مراد ، ومثال زيادة لا وهي غير مرادة قوله تعالى : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرّون على شيء من فضل الله ﴾ أي ليعلم أهل الكتاب . ويكون الحذف أو زيادة الحرف لقصد بلاغي يقتضيه فقه اللغة وفصاحة العبارة ومقتضى الحال والمقام . وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله عز وجل : ﴿ ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك ﴾ : إن في الكلام محذوفاً قد كفى دليل الظاهر منه وهو أن معناه : ما منعك من السجود ، فأحوجك أن لا تسجد — فترك ذكر « أحوجك » استغناء بمعرفة السامعين قوله : ﴿ إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾ أن ذلك معنى الكلام ، من ذكره ، ثم عمل قوله ﴿ ما منعك ﴾ في ﴿ أن ﴾ ما كان عاملاً فيه قبل « أحوجك » لو ظهر ، إذ كان قد ناب عنه اهـ . وقوله عز وجل : ﴿ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ أي منعني من السجود أني أفضل من آدم لأنني مخلوق من نار وادم مخلوق من طين والنار خير من الطين ، قال ابن جرير رحمه الله : جهل عدو الله وجه الحق وأخطأ سبيل الصواب ، إذ

كان معلوما أن من جوهر النار الخفة والطيش والاضطراب والارتفاع علواً، والذي في جوهرها من ذلك هو الذي حمل الخبيث بعد الشقاء الذي سبق له من الله في الكتاب السابق على الاستكبار عن السجود لآدم، والاستخفاف بأمر ربه فأورثه العطب والهلاك، وكان معلوما أن من جوهر الطين الرزانة والأناة والحلم والحياء والتثبت، وذلك الذي هو في جوهره من ذلك كان الداعي لآدم بعد السعادة التي كانت سبقت له من ربه في الكتاب السابق إلى التوبة من خطيئته ومسألته ربه العفو والمغفرة اهـ.

وعلى فرض أن النار خير من الطين فلا يتحتم أن يكون المخلوق من الأفضل أفضل فإن الفرع قد يختص بما لا يكون في أصله، فالتبرُّ من التراب، ومن قصر به عمله لم يبلغ به نسبه، والضمير في قوله عز وجل: ﴿فاهبط منها﴾ راجع إلى المنزلة والرحمة التي كان فيها في الملكوت الأعلى مع الملائكة، والأمر بهبوط إبليس وخروجه من هذه الرحمة أمر كوني قدري، وهو غير الهبوط الذي أنزل به إلى الأرض مع آدم وحواء في قوله: ﴿اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ ومعنى: ﴿إنك من الصاغرين﴾ أي من الذليلين الحقيرين، ومعنى ﴿أنظرني إلى يوم يبعثون﴾ أي أمهلني ولا تمّتني إلى يوم البعث والنشور، ومعنى: ﴿إنك من المنظرين﴾ أي من الذين أجل موتهم فلا يموتون إلا عند النفخة الأولى التي يصعق بها من في السموات والأرض وهو الوقت المعلوم لموت من لم يمت من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، ومعنى: ﴿قال فيها أغويتني﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ أي كما أضللتني لأصدن ذرية آدم عن طريق الحق ولأغوينهم من جميع جهاتهم ليكفر أكثرهم فأكد الله عز وجل طرد إبليس من رحمته مقيتا مذموما أبشع الذم موصوما بالذلة والصغار، مآبونا بالخزي والعار، وتوعد عز وجل كل من انقاد للشيطان وكفر بالرحمن أن يجعله فيمن تمتلئ بهم جهنم وبئس القرار.

قال تعالى : ﴿ويا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ * فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين * فدلّهما بغرور، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين * قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين * قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون * .

بعد أن ذكّر الله عز وجل الناس بما أفاض عليهم من النعم وحذّرهم من الانقياد لإبليس عدو الله وعدوهم الذي جعل أكبر همه إغواء الناس وصرفهم عن شكر الله ، وذكر المثل الأول من صُور العداوة المتمكنة في نفس إبليس لآدم وذريته ، شرع هنا في ذكر المثل الثاني من صُور عداوة إبليس لآدم وذريته ، الذي يبرز فيه ما قام به إبليس لإخراج آدم من الجنة ، وما بذل في سبيل ذلك من اليمين الفاجرة والتغدير، حتى تمكن من مراده، وما تفضل الله عز وجل به من توفيق آدم وزوجته للمسارعة إلى التوبة من أكلهما من الشجرة وما كان من أمر الله الكوني القدري لآدم وحواء وإبليس بالهبوط إلى الأرض لتكون لهم مستقرا ومتاعا إلى حين . وأشار إلى أنه قضى وقدّر أن تكون حياة آدم وذريته وإبليس وذريته على الأرض مدة الحياة الدنيا التي قضى الله عز وجل لكل واحد منهم أجله فيها ، وفي ذلك يقول : ﴿ويا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿قال فيها تحيَوْنَ وفيها تموتون ومنها تُخْرَجُونَ﴾

ومما يلفت الانتباه في التصريف البلاغي في سياق هذه القصة في مقاماتها من القرآن الكريم أنه قد يحذف من مقام ما ذكره في المقام الآخر ليكون المذكور دليلاً على المحذوف كقوله في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وقال هنا: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وقال في سورة البقرة: ﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَغداً حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ وقال هنا: ﴿فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ وقال في سورة البقرة: ﴿فَازْلَمْهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ وقال هنا: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِحِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِحُهُمَا وَطِفْقَا يُخَصِّفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَقَالَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وقال هنا: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقال في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ وقال هنا: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ وقد تقدم الكلام في تفسير هذه القصة في سورة البقرة، وقد بينت فيها أن الله عز وجل أذن لآدم أن يسكن هو وزوجه حواء الجنة وأباح لهما ما في الجنة يأكلان منه رغداً حيث شاءا، ونهاهما عن الأكل من شجرة معينة، وحذَّرهما من إبليس، غير أن حكمة الله البالغة اقتضت أن ينسى آدم هذا التحذير وأن يعمل إبليس بما يستطيعه من وسوسة ومن أيمان كاذبة بأنه ناصح لآدم ولزوجه حتى أكل آدم وزوجه من الشجرة من غير قصد وإنما عن نسيان كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنِيبٍ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ وليس في القرآن أو في السنة النبوية ما يدل على

أن هذه الوسوسة كانت في الجنة ، وظاهر القرآن أن إبليس وسوس لآدم وحواء قبل دخول الجنة لاقتران الوسوسة بقوله : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ * فآزلهما الشيطان عنها ﴿ والمقصود أن الله تبارك وتعالى لحكمته البالغة مكنَّ إبليس من الوسوسة لآدم ليعرف بنوه أن إبليس حريص على حرمانهم من دخول الجنة كما قال عز وجل : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ وقد شرحت هناك معنى الزوج ومعنى : ﴿ حيث شئتما ﴾ ومعنى : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ وأنه لم يصح عن رسول الله ﷺ خبر في تعيين الشجرة التي نهى الله آدم عن الأكل منها فلا حاجة إلى تكلف تعيينها ولا إلى معرفة نوعها ، ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين * فدلاهما بغرور ﴿ أي فحدث الشيطان آدم وحواء وألقى في نفسيهما وزين لهما الأكل من الشجرة التي نهاهما الله عنها ليخرجهما من الجنة وليزيل ستر الله الذي قضى أن يستر به عورتهما ما لم يأكلا من الشجرة ، وقد استعمل الشيطان معهما طرق التغرير والخديعة والمكر حيث زعم لهما أن الأكل من هذه الشجرة يورثهما صفات الملائكة أو الخلود الأبدي كما أكثر لهما من الأيمان الكاذبة الفاجرة بأنه ناصح لهما ولا يريد بهما إلا الخير ، والظاهر أن آدم عليه السلام لم ينقد لإبليس إنما أصابه النسيان فنسي كما قال عز وجل : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما ﴾ وقد علم إبليس لعنه الله عندما رأى آدم مُصَوِّراً من الطين أجوف وعرف أنه لا يتمالك ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لما صَوَّرَ الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه ،

فجعل إبليس يُطِيفُ به ، يَنْظُرُ ما هو؟ فلما رآه أجوف عرف أنه خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتِمَّ لَكَ ، فمزال إبليس يخدعهما ويحلف لهما بأنه لهما من الناصحين ، ويزخرف لهما الأكل من الشجرة حتى نسيا النصيحة والعهد الذي عهد الله عز وجل لآدم ألا يأكل هو وزوجه من الشجرة ، فلما ذاقا الشجرة أي تَنَاوَلَا شيئًا يسيرًا منها قصدًا إلى معرفة طعمها ، ظهر لكل واحد منهما ما كان قد ستره الله عز وجل من عورتيهما التي يسوء انكشافها ، وأخذوا يلزقانَ وَيَخْرِزَانِ عليهما من ورق الجنة ليستترا به ، وقد اقتضت حكمة الله أن يأكل آدم من الشجرة ، والله يعلم أنه أكل منها لا محالة ، لأنه لا بد وأن يُسْكِنَهُ الأرض وَيَعْمُرَهَا هو وذريته من بعده ، ويجعل فيهم خيرا كثيرا وعبادا صالحين وأنبياء ومرسلين ، وقد أعلم الله عز وجل الملائكة قبل خلق آدم أنه جاعل في الأرض خليفة وإن كان لا بد من الابتلاء والاختبار والامتحان والأمر والنهي ، وقد نسي آدم وأكل من الشجرة ، فعاد إلى الأرض ، كما قال عز وجل : ﴿مَنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نَعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ وكما قال عز وجل هنا : ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴿إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ يَنْبَغِي تَنْبِيهُ الْغَافِلِينَ وَتَذَكِيرُ النَّاسِينَ إِلَى مَا وَقَعُوا فِيهِ ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا وَقَعُوا فِي مَخَالَفَةِ سَارِعِ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ، وَبَيَانُ فَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِتَوْبَتِهِ عَلَى التَّائِبِينَ ، وَتَنْذِيرُ بَعْدُ اللَّهِ إِبْلِيسَ وَمَنْ يَدُورُ فِي فَلَكَهٖ مِنَ الدِّينِ إِذَا وَقَعُوا فِي مَعْصِيَةِ أَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ : ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : وَنَادَى آدَمَ وَحَوَّاءَ رَبُّهُمَا : أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ أَكْلِ ثَمَرَةِ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَكَلْتُمَا ثَمَرَهَا ، وَأَعْلَمَكُمَا أَنَّ إِبْلِيسَ لَكُمْ عَدُوٌّ

مبين ، يقول : قد أبان عداوته لكما بترك السجود لآدم حسداً وبغياً ، ثم قال رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ قال أبو جعفر : وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن آدم وحواء فيما أجاباه به ، واعترافهما على أنفسهما بالذنب ، ومسألتهما إياه المغفرة منه والرحمة خلاف جواب اللعين إبليس إياه ، ومعنى قوله : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ قال آدم وحواء لربهما : يا ربنا ، فعلنا بأنفسنا من الإساءة إليها بمعصيتك وخلاف أمرك من أكل الشجرة التي نهيتنا عن أكلها ﴿ وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا ﴾ يقول : وإن أنت لم تستر علينا ذنبنا فتغطينه علينا وتترك فضيحتنا به بعقوبتك إيانا عليه ﴿ وَتَرْحَمْنَا ﴾ بتعطفك علينا ، وتترك أخذنا به ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ يعني : لنكونن من الهالكين اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ أمر من الله عز وجل لآدم وحواء وإبليس بالهبوط إلى الأرض ، وهو أمر كوني قدرتي أراده الله وقضاه ، ولا راداً لقضائه وقدره ، والعمدة في العداوة آدم وإبليس ، ولهذا قال عز وجل في سورة طه : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ وهو أمر لآدم وإبليس ، ولا شك أن حواء تبع لآدم عليها السلام ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ يعني أن العداوة ثابتة مستقرة دائمة بين آدم وإبليس وذريتهما لا تزول ألبتة ، وقوله عز وجل : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ قد تقدم تفسيره في سورة البقرة ، وقوله عز وجل : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله : قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره : قال الله للذين أهبطهم من سماواته إلى أرضه : ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ ﴾ يقول : في الأرض تحيئون ، يقول : تكونون فيها أيام حياتكم ﴿ وَفِيهَا تَمُوتُونَ ﴾ يقول : في الأرض تكون وفاتكم ﴿ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ يقول : ومن الأرض يخرجكم ربكم ويحشركم إليه

لبعث القيامة أحياء اهـ وهذا قضاء الله عز وجل أن يجعل الأرض مستقرا
لآدم ولذريته من بعده إلى يوم القيامة، وقد قدّر ذلك وقضاه قبل خلق
السموات والأرض، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن
العاص رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: كتب الله مقادير
الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على
الماء. وقد ذكر الله تبارك وتعالى أنه خلق الإنسان من الأرض يعيش عليها
ويموت فيها ومنها يبعث في غير موضع من كتابه الكريم كما في هذا المقام،
وكما في قوله تبارك وتعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة
أخرى﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ألم نجعل الأرض كِفَاتًا * أحياء وأمواتا﴾.

قال تعالى : ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يواري سوءاتكم وريشًا ولباس التقوى ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴾ * يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون * وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون * قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين، كما بدأكم تعودون * فريقًا هدى وفريقًا حق عليهم الضلالة، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ .

بعد أن بيَّنَ المثلَّ الثاني من صُورِ عداوة إبليس لآدم وذريته وأشار إلى أنَّ من أهم مقاصد إبليس هو أن تنكشف سوآتُ بني آدم وعوراتهم وأن انكشاف العورة هو أوَّلُ سوء أصاب الإنسان من قِبَلِ الشيطان، ومن المعلوم أنَّ انكشاف عورات الرجال والنساء من أكبر أسباب فساد الأخلاق وانحلال المجتمعات، وقد حَرَصَ إبليس على ذلك أشد الحرص حتى لعب بعقول أهل الجاهلية فصاروا يطوفون بالبيت الحرام عراة رجالا ونساء ويعتقدون أن ذلك يقربهم إلى الله، وأنه عز وجل قد أمرهم بذلك، كما أننا لا زلنا نشاهد حرص المفسدين في الأرض على دعوة النساء إلى التبرج والتكشف ليسهل لهم ما يريدون من تفسخ الأمة والوصول إلى ما يشتهون من التفكك والانحلال والانغماس في الشهوات، فلما نبه الله عز وجل الناس إلى حرص إبليس على انكشاف عوراتهم شرع هنا يبين لبني آدم أنه عز وجل لم يتركهم سُدى بل تفضل عليهم وأنزل إليهم كل ما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم ليسلكوا الصراط المستقيم، وأنه لا نجاة ولا سعادة لهم إلا بطاعة الله ورسله والانقياد

لأمره والوقوف عند حدوده، ومخالفة الشيطان الرجيم وفي ذلك يقول: ﴿يَا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ و معنى قوله عز وجل: ﴿قد أنزلنا عليكم لباسا يُؤاري سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ أي قد يسرنا لكم اللباس والرياش الذي تسترون به عورتكم وتحصلون عليه من ظهور الأنعام ومن النباتات التي نبتت بسبب ما أنزله الله من الأمطار. قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه للجبهة من العرب الذين كانوا يَتَعَرَّوْنَ للطواف، اتَّباعاً منهم أَمَرَ الشيطان، وتركاً منهم طاعة الله فعرفهم انخداعهم بغروره لهم، حتى تمكن منهم فسلبهم من ستر الله الذي أنعم به عليهم، حتى أبدى سوآتهم وأظهرها من بعضهم لبعض مع تفضل الله عليهم بتمكينهم مما يسترونها به، وأنهم قد سار بهم سيرته في أبويهم آدم وحواء اللذين دلَّاهُما بغرور حتى سلبهما ستر الله الذي كان قد أنعم به عليهما، حتى أبدى لهما سوآتهما فَعَرَّاهُما منه ﴿يَا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا﴾ يعني بإنزاله عليهم ذلك خَلَقَهُ لهم ورزقَهُ إياهم، واللباس: ما يلبسون من الثياب، ﴿يُواري سوآتكم﴾ يقول: يستر عوراتكم عن أعينكم، وكنتى بالسوآت عن العورات، واحداً منها سوءة وهي فَعْلَةٌ من السوء وإنما سميت سوءة لأنه يسوء صاحبها انكشافها من جسده اهـ. وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباس ستر العورات وهي السوآت، والرياش والريش ما يتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات، والريش من التكملات والزيادات اهـ. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: لفظ الإنزال في القرآن يَرِدُ «مُقَيَّدًا» بأنه منه كالقرآن، وبالإنزال من السماء ويُرادُّ به العُلُو كالمنظر

171

الذي يُلبَسُ على البدن وفي البيوت كما قال تعالى : ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾ الآية . فامتن سبحانه عليهم بما ينتفعون به من الأنعام في اللباس والأثاث ، وهذا - والله أعلم - معنى إنزاله ، فإنه يُنزَلُ من ظهور الأنعام وهو كسوة الأنعام من الأصواف والأوبار والأشعار ، وينتفع به بنو آدم من اللباس والرياش فقد أنزلها عليهم . ثم قال رحمه الله : فإذا كان اللباس والرياش ينزل من ظهور الأنعام ، وكسوة الأنعام منزلة من الأصلاب والبطون كما تقدم فهو منزل من الجهتين ، فإنه على ظهور الأنعام لا ينتفع به بنو آدم حتى ينزل ، فقد تبين أنه ليس في القرآن ولا في السنة لفظ نزول إلا وفيه معنى النزول المعروف ، وهذا هو اللائق بالقرآن ، فإنه نزل بلغة العرب ، ولا تعرف العرب نزولا إلا بهذا المعنى اهـ . ولا شك أن الله تبارك وتعالى قد تفضل على بني آدم بما يستر عورتهم وبما يتجملون به في حياتهم ، والعرب تطلق الريش والرياش على الفاخر من اللباس وما يتزين به من الثياب ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ تنبيه على وجوب التَّسَرُّبِلِ بسربال تقوى الله عز وجل والتحلي بها وملزمة خوف الله وخشيته والوقوف عند حدوده . قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله عز وجل : ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة وهو استصحاب التقوى إليها كما قال : ﴿وريشا ولباس التقوى ذلك خير﴾ لما ذكر اللباس الحَسِّيَّ نَبَهَ مرشدا إلى اللباس المعنوي وهو الخشوع والطاعة والتقوى ، وذكر أنه خير من هذا وأنفع اهـ ولا شك أن الإنسان مهما لبس من الثياب فإنه عارٍ إذا تجرد من تقوى الله كما قال الشاعر :

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا وإن كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا
وقد نهى رسول الله ﷺ عن لبس الحرير والديباج للرجال وعن جَرِّ الثوب

خيلاء، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا تَلْبَسُوا الحرير فإن من لبسه في الدنيا لم يَلْبَسْهُ في الآخرة. كما روى البخاري ومسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: نهانا النبي ﷺ أن نشرب في آنية الذهب والفضة وأن نأكل فيها وعن بُس الحرير والديباج وأن نجلس عليه. كما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ إزاره بَطْرًا، كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: من جرَّ ثوبه خِيَلَاءَ لم ينظر الله إليه يوم القيامة. وتذيل الآية الكريمة بقوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ للفت الانتباه إلى الاعتبار والادكار فيما تضمنه هذا المقام الكريم من الحجج والأدلة والبراهين الشاهدة بأن محمداً رسولُ الله وأن هذا القرآن من عند الله، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبُوبِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ إلى آخر الآية. أي يا بني آدم لا يخدعنكم الشيطان بغروره فيزين لكم كشف عوراتكم، فقد علمتم ما فعل بأبويكم آدم وحواء حتى تسبب في إخراجهما من الجنة وكشف الستر الذي كان يستر سواتهما، واحذروا من إبليس وذريته أشد الحذر لأنهم يرونكم ويمجرون منكم مجرى الدم وأنتم لا ترونهم، فمن انقاد لوسوستهم ضل عن سواء السبيل كما قال عز وجل: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾. وقد قضى الله عز وجل أن يكون الجن أجساماً لطيفة نارية كما قضى أن تكون الملائكة أجساماً لطيفة نورانية، وقد تتشكل الجن في صُور يراها بعض الناس أحياناً، كما في قصة أسير أبي هريرة الذي كان يأخذ من تمر الصدقة الذي كان يجرسه أبوهريرة عندما وكله رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان كما رواه البخاري. وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ

أمرنا بها ﴿ إلى قوله عز وجل : ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ تنديدٌ بالمشركين على سوء سلوكهم وقبح معتقداتهم ، وافترائهم على الله وإرشاد إلى السلوك الذي يرضيه الله عز وجل ، فقد كانوا يطوفون بالبيت عراة ويزعمون أن الله أمرهم بذلك ، وأن هذا هو منهج آبائهم فردَّ الله تبارك وتعالى عليهم بأن فعلهم هذا هو فاحشة - وهي ما يشتد قبحه من المعاصي - والله لا يأمر بالفحشاء ، اتُّسِنِدُون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته ، إنما يأمر الله عز وجل بالاستقامة في عبادته في محالِّها ولا يتأتى لكم ذلك إلا باتباع المرسلين وإخلاص الدين لله فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه صواباً على منهج رسوله ﷺ ، وسيجزى الله كل عامل بما عمل حيث يحشركم يوم القيامة حفاة عراة غُرلاً ، فريقاً قد علم الله فيهم الخير فهداهم ووقفهم وفريقاً علم الله فيهم الشر فخذلهم وحقت عليهم الضلالة ، فانقادوا للشياطين وتركوا شريعة الله ويحسبون أنهم مهتدون . وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق هشام بن عروة ، قال عروة : كان الناس يطوفون في الجاهلية عراة إلا الحُمْس والحُمُسُ قريش وما ولدت . الحديث . وفي قوله عز وجل : ﴿كما بدأكم تعودون﴾ شبيه بقوله عز وجل : ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : إنكم محشورون حفاة عراة غُرلاً ، ثم قرأ : ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ وعدّا علينا ، إنا كنا فاعلين .

قال تعالى : ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين﴾ * قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون * ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ .

بعد أن نبّه عز وجل على أن إبليس لعنه الله حريص أشدّ الحرص على انكشاف عورات الرجال والنساء ونذّر بمن انقاد للشيطان في ذلك من أهل الجاهلية حتى جعلوا ذلك التعرى عند الطواف بالبيت الحرام ديناً ومعتقداً وبين عز وجل أنه لم يترك الناس سُدى بل تفضل عليهم وأنزل لهم كل ما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم ليسلكوا الصراط المستقيم، شرع هنا في تأكيد وجوب ستر العورة مطلقاً وبخاصة عند الصلاة فإنها لا تصح إلا مع ستر العورة، مع التنديد بمن كانوا يحرمون الطيبات من الرزق فلا يتناولون في الحج طعاماً دسماً، ونبه عز وجل إلى أنه تبارك وتعالى إنما خلق الطيبات من الرزق من أجل الذين آمنوا خاصة، وإنما ينتفع بها المشركون وسائر الكفرة في الدنيا على سبيل المشاركة والتبعية للذين آمنوا وأنها خالصة للمؤمنين يوم القيامة لا يشاركون فيها أحد من الكافرين، وأنه عز وجل إنما حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق والشرك بالله والافتراء على الله، وفي ذلك يقول : ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ وقد روى مسلم في

صحيحه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :
كانت المرأة تَطُوفُ بالبيت وهي عريانة فتقول : مَنْ يُعِيرُنِي تَطَوَافًا ، تجعله على
فرجها ، وتقول

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ
فنزلت هذه الآية : ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ والمقصود من الزينة
هنا المأمور بأخذها عند كل مسجد هي لبس ما يستر العورة للرجل وللمرأة ،
والتعبير بالزينة عن اللباس الساتر للعورة عند كل مسجد للإشارة إلى أنه
ينبغي للمسلم أن يلبس ما يتجمل به عند الصلاة والاجتماع بالناس ، كما
حض رسول الله ﷺ على لبس الثياب النظيفة . قال ابن ماجه : باب ما جاء
في الزينة يوم الجمعة : حدثنا حرملة بن يحيى ثنا عبدالله بن وهب أخبرني
عمرو بن الحارث عن يزيد بن أبي حبيب عن موسى بن سعيد عن محمد بن
يحيى بن حبان عن عبدالله بن سلام أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر
في يوم الجمعة : ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبٍ
مِهْنَتِهِ . قال في الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات اهـ . وقال أبوداود في
سننه : حدثنا النُّفَيْلِيُّ ثنا مسكين عن الأوزاعي ح وثنا عثمان بن أبي شيبة عن
وكيع عن الأوزاعي نحوه عن حسان بن عطية عن محمد بن المنكدر عن
جابر بن عبد الله قال : أتانا رسول الله ﷺ فرأى رجلاً شعثاً قد تفرق شعره
فقال : أما كان يجد هذا ما يُسَكِّنُ به شعره ؟ ورأى رجلاً آخر عليه ثيابٌ
وَسِخَةٌ فقال ؛ أما كان هذا يجد ماءً يغسل به ثوبه ؟ حدثنا النُّفَيْلِيُّ ثنا زهير ثنا
أبو إسحاق عن أبي الأحوص عن أبيه قال : أتيت النبي ﷺ في ثوبٍ دُونِ :
فقال : أَلَيْكَ مَالٌ ؟ قال : نعم ، قال : من أيِّ المال ؟ قال : قد أتاني الله من
الإبل والغنم والخيل والرقيق ، قال : فإذا آتاك الله مالا فليُرْ أَثَرُ نِعْمَةِ الله
عليك وكرامَتِهِ اهـ . وأخرج مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن

مسعود عن النبي ﷺ قال : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كِبَرٍ، قال رجلٌ : إن الرجل يُحِبُّ أن يكون ثوبُه حَسَنًا ونعله حَسَنَةً؟ قال : إن الله جميل يحب الجمالَ ، الكِبَرُ بَطَرُ الحقِّ وَغَمَطُ الناسِ . قال الشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسيره : وهذا الأمر بالزينة عند كل مسجد أصل من الأصول الدينية والمدنية عند المسلمين ، وكان سببا في تعليم القبائل المتوحشة القاطنة في الكهوف والغابات أفرادًا وجماعاتٍ لُبَسَ الثياب عند دخولها في حظيرة الإسلام ، وكانوا قبل ذلك يعيشون عراة الأجسام رجالا ونساء ، حتى ذكر بعضُ المُنْصِفِينَ من الإفرنج أنَّ لانتشار الإسلام في أفريقية مِنَّةً على أوروبا بِنَشْرِه للمدنية بين أهلها ، إذ ألزمهم بترك العُزْي ، وأوجب لُبَسَ الثياب ، فكان ذلك سببا في رواج تجارة المنسوجات ، وبهذا نقل الإسلام أَمَا وشعوبا كثيرة من الوحشية إلى الحضارة الراقية اهـ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي وتناولوا ما يتيسر لكم من الأطعمة الطيبة والأشربة المباحة التي لا غنى لكم عنها في الحياة الدنيا لتقيم أصلابكم ولتلتذذوا بها من الضروريات والكماليات ، والزَّمُوا حَدَّ الاعتدال لأن تجاوز حد الاعتدال إسراف يبغضه الله ويبغض مُقْتَرِفِيهِ ، فمن أكل من الطيبات إذا أَحَسَّ بالجوع ، وكَفَّ عن الأكل إذا شعر بالشبع وإن كان يستلذ الزيادة لم يكن مسرفا في أكله ، ومن شرب من الطيبات إذا أَحَسَّ بالعطش واكتفى بما يزيل عطشه لم يكن مسرفا في شربه ، والمُعَوَّل عليه في الإنفاق عُرْفُ المعتدلين على قَدَرِ يُسْرِهِمْ وَعُسْرِهِمْ ، فمن تجاوز طاقته مباراة لمن هم أغنى منه كان مسرفا ، يُعَرِّضُ نفسه لسخط الله ، وتؤول حاله إلى اللوم والحسرة كما قال عز وجل : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ تنديد وتوبيخ واستنكار وتقريع

لهؤلاء الجهالة من العرب الذين يَتَعَرَّوْنَ عند طوافهم بالبيت الحرام ويحرمون على أنفسهم الطيبات من الرزق وتحذير لمن يحرم شيئاً برأيه الفاسد، ولا يكتفي بجريمته في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرّم الله بل يضيف إلى ذلك جريمة كبرى أخرى وهي أن يدّعي أن الله هو الذي حرّم ذلك الذي زعم تحريمه. قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء الجهالة من العرب الذين يَتَعَرَّوْنَ عند طوافهم بالبيت ويحرمون على أنفسهم ما أحللت لهم من طيبات الرزق: مَنْ حرّم - أيها القوم - عليكم زينة الله التي خلقها لعباده أن تتزينوا بها وتتجملوا بلباسها، والحلال من رزق الله الذي رَزَقَ خلقه لمطاعمهم ومشاربهم اهـ. وظاهر اللفظ الكريم يدل على أن جميع أنواع الزينة مباح إلا ما خصه الدليل ويدخل تحت هذا العموم نظافة الملابس والبدن وجمال المركب والمسكن كما يدخل تحت الطيبات من الرزق كل ما يُستلذ ويُشتهى من أنواع المأكولات والمشروبات ما دام في حدود الاعتدال وتجنب الإسراف والتبذير وكذلك الطيبُ والنساء التي أباح الله عز وجل، وقد حض رسول الله ﷺ المسلمين أن يكونوا كالشامة في الناس، قال أبو داود: حدثنا هارون بن عبد الله ثنا أبو عامر يعني عبد الملك بن عمرو ثنا هشام بن سعد عن قيس بن بشر التغلبي قال: أخبرني أبي وكان جليسا لأبي الدرداء، وساق قصة ابن الحنظلية رضي الله عنه وفيها: ثم مرّ بنا يوما آخر فقال له أبو الدرداء: كلمة تنفعنا ولا تضرّك، فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا رجالكم، وأصلحوا لباسكم، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس، فإن الله لا يحب الفُحش ولا التفحش. قال أبو داود: وكذلك قال أبو نعيم عن هشام قال: حتى تكونوا كالشامة في الناس، وقد امتن الله تبارك وتعالى بما خلق من الزينة حيث يقول: ﴿والأنعامَ خلقها لكم فيها

دِفءٌ ومنافعٌ ومنها تأكلون * ولكم فيها جمالٌ حين تريحون وحين تَسْرَحُونَ *
وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بَشِقُّ الأنفس ، إن ربكم لرءوف
رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينةً ، ويَخْلُقُ ما لا تعلمون ﴿
وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةٌ يومَ
القيامة ﴾ تنبيه إلى أن الله تبارك وتعالى إنما أوجد هذه الزينة والطيبات من
الرزق من أجل عباده المؤمنين ، وإنما ينتفع بها الكفار على سبيل المشاركة
والتبعية للمؤمنين مدة الحياة الدنيا ، أما في الآخرة فهي خاصة بالمؤمنين
خالصةٌ لهم لا يشاركونهم فيها أحد من الكافرين ، ولا ينبغي لعاقل أن يغتر
بما قد يشاهد من توسعة في الرزق على بعض الكافرين وضيق في الرزق على
بعض المؤمنين فإن الكافر يتمتع قليلا ثم يصير إلى النار والمؤمن يصبر قليلا
إذا ضيق عليه في الرزق ثم يصير إلى الجنة كما قال عز وجل : ﴿ ومن كفر
فأمتعته قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ ولذلك وصف رسول
الله ﷺ الدنيا بأنها سجن المؤمن وجنة الكافر فقد روى مسلم من حديث أبي
هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ،
ولما حَرَّمَ رسول الله ﷺ الذهب والحريز على الرجال قال : هي لهم في الدنيا
ولكم في الآخرة . كما جاء في البخاري ومسلم من حديث حذيفة رضي الله
عنه فإن المقصود أن الكفار يتمتعون بها متاعا قليلا ثم يصيرون إلى النار أما
المؤمنون فإنهم يتمتعون بالطيبات التي أبيحت لهم في الدنيا ثم يتمتعون
بالزينة والطيبات من الرزق التي لا تخطر على البال ولا تدور في الخيال مما لا
عين رأت ولا أذن سمعت في جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها
من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأثوابه متشابها ولهم فيها أزواج
مطهرة وهم فيها خالدون . وقوله عز وجل : ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم
يعلمون ﴾ قال الطبري رحمه الله : قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره : كما بينت

لكم الواجب عليكم في اللباس والزينة والحلال من المطاعم والمشارب والحرام منها وميزت بين ذلك لكم أيها الناس ، كذلك أبين جميع أدلتي وحججي ، وأعلام حلالى وحرامى وأحكامى لقوم يعلمون ما يُبين لهم ، ويفقهون ما يُميز لهم اهـ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ردع وزجر للذين يفعلون المعاصي كطوافهم بالبيت عراة ويحرمون ما أحل الله كاستناعهم عن أكل الدسم في الحج وتحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي ، ويشركون بالله ما لم ينزل به سلطانا ويفترون على الله الكذب وينسبون جرائمهم وقبائح أفعالهم إلى الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا ، وقد تقدم تفسير الفواحش ما ظهر منها وما بطن في سورة الأنعام في قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ في الآية الواحدة والخمسين بعد المائة . والمراد بالإثم عموم المعاصي ، فَعَطَفَهُ عَلَى الْفَوَاحِشِ مِنْ بَابِ عَطَفِ الْعَامِ عَلَى الْخَاصِّ لِتَأْكِيدِ الزَّجْرِ عَنِ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَعَطَفَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي تَلِيهِ عَلَيْهِ وَهِيَ : ﴿ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ مِنْ بَابِ عَطَفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِ لِمَزِيَّةِ تَأْكِيدِ الزَّجْرِ عَنِ الْخَاصِّ لَوْلَوْ غِغِهِمْ فِيهِ مَعَ شِدَّةِ ضَرَرِهِ وَكَبِيرِ خَطَرِهِ ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ لِلْمُشْرِكِينَ الْمَكْذِبِينَ الْمُفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ الْمُرْتَكِبِينَ لِلْفَوَاحِشِ وَوَعِيدٌ لَهُمْ عَلَى افْتِرَائِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الشُّرْكِ وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ ، وَإِنْذَارٌ لَهُمْ بِأَنْ يَنْزَلَ بِهِمْ مَا نَزَلَ بِأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي كَذَّبَتْ رُسُلَهَا قَبْلَهُمْ ، أَيْ وَلِكُلِّ جَمَاعَةٍ اجْتَمَعَتْ عَلَى تَكْذِيبِ رَسُولِهَا أَجَلٌ وَوَقْتُ لِحُلُولِ الْعُقُوبَةِ بِهِمْ وَنَزُولِ الْعَذَابِ بِسَاحَتِهِمْ فَإِذَا جَاءَ الْوَقْتُ الَّذِي وَقَّتَهُ اللَّهُ هَلَاكَهُمْ لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهُ

لحظة ولا يتقدمون لحظة، ولا يُردُّ بأسُهُ عن القوم المجرمين، وكما قال عز وجل : ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خَلَوْا من قبلهم، قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين * ثم نُنْجِي رُسُلَنَا والذين آمنوا، كذلك حَقَّا علينا نُجج المؤمنين﴾ .

قال تعالى : ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ * والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ * فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ * قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ * وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ .

بعد أن قصَّ عز وجل قصة امتناع إبليس عن السجود لآدم وما وسوس به له ولزوجه حتى أخرجهما من الجنة وكان سببا في أن يبدي لهما ما وُوري عنهما من عوراتهما مما يؤكد عداوة إبليس لآدم وذريته ووجه النداء لبني آدم بين لهم منته عز وجل عليهم بما أنزل عليهم من لباس يستر عوراتهم ، ثم ناداهم مرة ثانية لتحذيرهم من الشيطان ثم ناداهم مرة ثالثة وأمرهم بأن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد وأن يسلكوا المنهج المعتدل والصراط المستقيم وبين أن لكل أمة أجلا مُعينا لا يتقدم ولا يتأخر ، ناداهم هنا للمرة الرابعة فيبين لهم ما يحصل للمطيعين وللعاصين وذكر بعض المشاهد التي تنال المفترين على الله أو المكذبين بآياته عند الموت وبعده في عرصات القيامة حيث يقول عز وجل : ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ * والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ * إلى قوله عز وجل : ﴿فذوقوا

العذاب بما كنتم تكسبون ﴿ وقوله عز وجل : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رِسْلُكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ والذين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ بيان لما عهد به عز وجل إلى جميع المكلفين من ذرية آدم منذ وجدوا على الأرض حيث عرّفهم بما أعدّه لأهل طاعته المتبعين لأنبيائه ورسله وما أعدّه لأعدائه المكذبين برسله المنقادين للشيطان والهوى المستكبرين في الأرض بغير الحق ، أي يا ذرية آدم إن يأتكم رسولٌ من رسلي الذين اختارهم وأبعثهم إليكم بآياتي ، وهم من أنفسكم وعشائركم وقبائلكم تعرفون صدقهم وسيرتهم قبل إرسالهم إليكم ، يتلون عليكم آيات ربكم ويعرفونكم أسباب سعادتكم وطريق نجاتكم ويحذرونكم من الشيطان عدو أبيكم آدم وعدوكم ويقيمون لكم الأدلة والحجج على أن الله عز وجل أرسلهم إليكم وأيدهم بالمعجزات والبراهين ، فمن آمن منكم بما جاءه به رسول الله وخشي الله واتقاه ودخل في زمرة المصلحين فإن الله عز وجل يحياه حياة طيبة ويبعثه يوم القيامة آمنًا ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كنتم توعدون ﴾ وأما الذين كذبوا بآيات الله ولم يصدقوا المرسلين وتكبروا في أنفسهم عن الانقياد لرسول الله ، وكانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله يستكبرون فجزأؤهم عند الله عز وجل أن يُخَلَّدَهم في نار جهنم ، يحيط بهم سُرادِقُها ، وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمُهْل يَشْوِي الوجوه بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا . ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أي فلا أحدَ أعظمَ ظلماً وأشدَّ جُرْماً وأكبرَ إثماً ممن اختلق على الله زوراً من القول كالذين إذا فعلوا فاحشة قالوا : الله أمرنا بها ، ولا أحدَ أعظمَ ظلماً وأشدَّ جُرْماً وأكبرَ إثماً ممن ردَّ دعوة المرسلين وكذَّبَ بالآيات التي يبعث الله بها رسله الدالة على وحدانية الله

ونبوة أنبيائه ، هؤلاء المفترون على الله الكذب والمكذبون بآيات الله يصيبهم
حظهم وما قضاه الله عز وجل في كتابه على المفترين على الله والمعرضين عن
ذكره من ضنك المعيشة في الحياة الدنيا وما يتلهم به من المتاع القليل ثم
يضطّروهم إلى العذاب الغليظ والحزى الأبدي السرمدي ، كما قال عز وجل في
كتابه الكريم : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشةً ضنكا ونحشره يوم
القيامة أعمى ﴾ قال ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيرا * قال كذلك
أتتكَ آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى * وكذلك نجزي من أسرف ولم
يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشدُّ وأبقى ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿ قل إن
الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ متاعٌ في الدنيا ثم إلينا مرجعهم
ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ ومن
كفر فلا يحزُكَ كُفْرُهُ ، إلينا مرجعهم فننبتهم بما عملوا ، إن الله عليم بذات
الصدور ﴾ نمتعهم قليلا ثم نضطرُّهم إلى عذاب غليظ ﴿ فما يصيب المفترين
على الله والمكذبين بآياته من متاع الحياة الدنيا هو متاع قليل قضاه الحكيم
الخبير وكتبه في اللوح المحفوظ ولن يصيبهم إلا ما كتبه الله وقدره عليهم ،
قال ابن جرير رحمه الله في معنى ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ :
معنى ذلك : أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب مما كُتِبَ لهم من خير وشر في
الدنيا ورزق وعمل وأجل ، وذلك أن الله جل ثناؤه أتبع ذلك قوله : ﴿ حتى
إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله ﴾ فأبان
بإتباعه ذلك قوله : ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ أن الذي ينالهم من
ذلك إنما هو ما كان مقضيا عليهم في الدنيا أن ينالهم لأنه قد أخبر أن ذلك
ينالهم إلى وقت مجيئهم رسله لتقبض أرواحهم ، ولو كان ذلك نصيبهم من
الكتاب أو مما قد أعد لهم في الآخرة لم يكن محدودا بأنه ينالهم إلى مجيء رسل
الله لوفاتهم ، لأن رسل الله لا تجيئهم للوفاة في الآخرة ، وأن عذابهم في الآخرة

لا آخِرَ له ولا انقضاء ، فإن الله قد قضى عليهم بالخلود فيه اهـ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ . قال ابن كثير رحمه الله : وقوله : ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴾ الآية ، يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار ، يقولون لهم : أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله ؟ ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه ، قالوا : ﴿ ضلُّوا عنا ﴾ أي ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ﴿ وشهدوا على أنفسهم ﴾ أي أقرُّوا واعترفوا على أنفسهم ﴿ أنهم كانوا كافرين ﴾ اهـ . وقال ابن جرير رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ قال أبو جعفر : يعني جل ثناؤه بقوله : ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا ﴾ إلى أن جاءتهم رسلنا ، يقول جل ثناؤه : وهؤلاء الذين افتروا على الله الكذب أو كذبوا بآيات ربهم ينالهم حظوظهم التي كتب الله لهم ، وسبق في علمه لهم من رزق وعمل وأجل وخير وشر في الدنيا إلى أن تأتيهم رسلنا لقبض أرواحهم ، فإذا جاءتهم رسلنا يعني ملك الموت وجنده ﴿ يتوفونهم ﴾ يقول : يستوفون عددهم من الدنيا إلى الآخرة ﴿ قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله ﴾ يقول : قالت الرسل : أين الذين كنتم تدعونهم أولياء من دون الله وتعبدونهم ، لا يدفعون عنكم ما قد جاءكم من أمر الله الذي هو خالقكم وخالقهم ، وما قد نزل بساحتكم من عظيم البلاء ؟ وهَلَّا يغيثونكم من كَرَبٍ ما أنتم فيه فينقذونكم منه ؟ فأجابهم الأشقياء فقالوا : ضلَّ عنا أولياؤنا الذين كنا ندعو من دون الله ، يعني بقوله : ﴿ ضلُّوا ﴾ جازُّوا وأخذوا غير طريقنا ، وتركونا عند حاجتنا إليهم فلم ينفَعونا ، يقول الله جل ثناؤه : وشهد القوم حينئذ على أنفسهم أنهم

كانوا كافرين بالله ، جاحدين وحدانيته اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قال ادخلوا في أمم قد خلّت من قبلكم من الجن والإنس في النار ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ ترهيب من موقف الحسرة والندامة في الدار الآخرة ، وإبراز لمشهد من مشاهد القيامة يتبارى فيه كل فوج من أهل الضلال في لعن الذين أضلوهم وكانوا سببا في قذفهم في جهنم حتى إذا اجتمعوا جميعا في النار صاروا يلعن بعضهم بعضا ، وصار الأتباع يدعون الله أن يجعل عذاب قادتهم في الضلالة ضعف العذاب الذي يلاقونه ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى هذا المشهد في أكثر من موضع في كتابه الكريم حيث قال عز وجل : ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ﴾ وقال عز وجل : ﴿ يوم تُقَلَّبُ وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ وقالوا ربنا إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * ربنا آثم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾ وكما قال تبارك وتعالى : ﴿ هذا فوج مقتحم معكم لا مُرَجِّبًا بهم ، إنهم صالوا النار ﴾ قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرائ * قالوا ربنا من قدّم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله عز وجل : ﴿ ومن أوزار الذين يضلوهم ﴾ هي الأوزار الحاصلة لِضَلَالِ الأتباع وهي حاصلة من جهة الأمر ومن جهة المأمور الممثل ، فالقدرتان مُشْتَرِكَتَانِ في حصول ذلك الضلال ، فلهذا كان على هذا بعضه وعلى هذا بعضه ، إلا أن كل بَعْضٍ من هذين البَعْضَيْنِ هو مثل وزر عامل كامل ، كما دلت عليه النصوص مثل قوله : مَنْ دعا إلى الضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة . ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ قال ادخلوا في أمم قد خلّت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا أداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآثم عذابا ضعفا

من النار قال لكل ضِعْف وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٧﴾ فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْأَتْبَاعَ دَعَوْا
 عَلَى أُمَّةِ الضَّلَالِ بِتَضْعِيفِ الْعَذَابِ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا
 رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ
 الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿١٧٨﴾ وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ لِكُلِّ مِنَ الْمُتَّبِعِينَ وَالْأَتْبَاعِ
 تَضْعِيفًا مِنَ الْعَذَابِ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُ الْأَتْبَاعُ التَضْعِيفَ اهـ . ومعنى :
 ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ أي اذهبوا
 إِلَى جَهَنَّمَ فِي جَمَاعَاتٍ وَأَفْوَاجٍ هُمْ أَشْبَاهُكُمْ مِمَّنْ سَبَقُوكُمْ فِي الضَّلَالِ
 وَالْإِضْلَالِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ . ومعنى : ﴿ادْأَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي اجتمعوا
 جَمِيعًا فِي النَّارِ . والمراد بِأَخْرَاهُم الَّذِينَ انْقَادُوا لِدَعَاةِ الضَّلَالِ . والمراد بِأُولَاهُمْ
 دَعَاةُ الضَّلَالِ ، ومعنى : ﴿عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي عَذَابًا مَضَاعَفًا قَالَ الزَّجَّاجُ :
 لِأَنَّ الضَّعْفَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى ضَرِيحَيْنِ : أَحَدُهُمَا الْمِثْلُ وَالْآخَرُ أَنْ يَكُونَ فِي
 مَعْنَى تَضْعِيفِ الشَّيْءِ اهـ . ومعنى قَوْلِهِ : ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ﴾ الْآيَةُ
 أَي وَقَالَ الْقَادَةُ وَدَعَاةُ الضَّلَالِ لِأَتْبَاعِهِمْ : نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِي الْكُفْرِ سَوَاءٌ فَقَدْ
 كَفَرْتُمْ كَمَا كَفَرْنَا وَانْقَدْتُمْ لَنَا كَمَا انْقَدْنَا نَحْنُ لِلشَّيَاطِينِ الَّذِينَ أَضَلُّونَا فَمَا
 يَصِيبُكُمْ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ هُوَ مِنْ كَسْبِكُمْ وَجَزَاءُ ضَلَالِكُمْ فَلَا فَضْلَ لَكُمْ
 عَلَيْنَا ، وَهَكَذَا تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ
 الْأَسْبَابُ ، وَلَمْ يَفُزْ سِوَى أَتْبَاعِ الْمُرْسَلِينَ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ * لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ، وكذلك نجزي الظالمين * والذين آمنوا وعملوا الصالحات لَا نَكْفِئُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أَنْ تُلْكَمُ الْجَنَّةَ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

بعد أن ذكر عز وجل أن المؤمنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأن الذين كذبوا بآياته واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، وشرح تبارك وتعالى بعض ما ينال المفترين على الله أو المكذبين بآياته عند الموت وبعده في عرصات القيامة ، أكد هنا أن الذين كذبوا بآياته واستكبروا عنها قد حرّموا أنفسهم من مغفرة الله ورحمته وجُوده فلا تَفْتَحُ لهم أبواب السماء عند موتهم ولا يدخلون الجنة عند بعثهم وأن جزاءهم عند الله عز وجل أن يكون لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يعاملهم الله عز وجل بإحسانه وجوده ويدخلهم في رحمته ويسكنهم فسيح جنته ، قد نزع ما في صدورهم من غل ، فهم في دار السلام متحابون ، حامدون شاكرون ، حيث يقول عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ وَنُودُوا أَنْ تُلْكَمُ الْجَنَّةَ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ومعنى ﴿ لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ أي لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء عند الموت . قال ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره : حدثنا أبو كُرَيْبٍ قال : حدثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن

المنهال عن زاذان عن البراء أن رسول الله ﷺ ذكر قبض رُوح الفاجر، وأنه يُصْعَدُ بها إلى السماء، قال: فيصعدون بها فلا يمرون على ملاٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُدعى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون له، فلا يُفْتَحُ له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ اهـ والمراد بالجمال البعير، وسَمُّ الخياط هو ثقب الإبرة، والخياط والمِخِيطُ بمعنى واحد وهو الإبرة، والمقصود من قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ هو استحالة دخول الكفار الجنة لأنه علّق دخولهم الجنة على أمر مستحيل وما علّق وجوده على المستحيل فهو مستحيل، لأن دخول الجمّل في خرق الإبرة مستحيل، وقد قال عز وجل: ﴿إِنَّهُ مِنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ قال ابن جرير رحمه الله في قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ يقول جل ثناؤه: ولا يدخل هؤلاء الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها الجنة التي أعدها الله لأوليائه المؤمنين أبدا، كما لا يلبج الجمّل في سَمِّ الخياط أبدا، وذلك ثَقْبُ الإبرة، وكلُّ ثَقْبٍ في عين أو أنف أو غير ذلك فإن العرب تسميه سَمًا، وتجمعه سُموما، والسَّامُ في جمع السَّم القاتل أشهر وأفصح من السموم، وهو في جمع السَّم الذي هو بمعنى الثقب أفصح، وكلاهما في العرب مستفيض. وقد يقال لواحد السُّموم التي هي الثقوب سَمٌّ وسُمٌّ بفتح السين وضمها، ومن السَّم الذي بمعنى الثقب قول الفرزدق:

فَنَقَسْتُ عَنْ سَمِّهِ حَتَّى تَنْفَسَا وقلتُ له: لَا تَحْشَ شَيْئًا وَرَائِيَا
يَعْنِي بِسَمِّهِ، ثَقْبِي أَنْفِهِ. وأما الخياط فإنه المِخِيطُ وهي الإبرة قيل لها:
خِيَّاطٌ وَمِخِيطٌ كَمَا قِيلَ: قِنَاعٌ وَمِقْنَعٌ وَإِزَارٌ وَمِزْرٌ وَقِرَامٌ وَمِقْرَمٌ وَلِحَافٌ وَمِلْحَفٌ

اهـ وقوله عز وجل : ﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾ تذييل لتأكيد أن هذا العذاب ليس خاصا بمن كانت جريمته التكذيب بآيات الله والاستكبار عنها بل يشمل كل الذين ارتكبوا جريمة الكفر بالله وبرسله ويدخل في زمرة المكذبون المستكبرون دخولا أوليا فإنهم أئمة المجرمين المرتكبين لأقبح الجرائم وأبشعها ، كما ذيل الآية التالية بقوله : ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ ليجمع لهم بين هذين الوصفين القبيحين ، قال أبوالسعود العمادي : عبّر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى إشعارا بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بكل واحد من ذين الوصفين القبيحين ، وذكر الجرم مع الحرمان من دخول الجنة والظلم مع التعذيب بالنار للتنبيه على أنه أعظم الجرائم والجرائر اهـ ومعنى قوله عز وجل : ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾ أي هؤلاء المكذبين بآيات الله المستكبرين عنها المجرمين الظالمين فُرُش من نار جهنم وحُف منها فهُم قد أحاطت بهم النار من تحتهم ومن فوقهم وغطتهم من كل نواحيهم وجهاتهم نعوذ بالله أن نكون من أهلها ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ بيان لما أعدَّ الله عز وجل لأوليائه من النعيم المقيم بعد بيان ما توعده به أعداءه من عذاب الجحيم ، وقوله عز وجل : ﴿لا نكلف نفسا إلا وسعها﴾ جملة اعتراضية بين المبتدأ وهو قوله : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وبين الخبر وهو قوله : ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ ومن بلاغة هذه الجملة الاعتراضية لفت الانتباه إلى مِنَّة الله العظيمة على المؤمنين الذين عملوا الصالحات بأن هذه الأعمال الصالحة لم يكن في التكليف بها حَرَجٌ عليهم بل هي في وسعهم ولم تخرج عن قدرتهم وطاقاتهم كما قال عز وجل في خواتيم المسك من سورة البقرة : ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نفسا إلا وسعها﴾ وكما قال في سورة الطلاق : ﴿لا يكلف الله نفسا إلا ما

آتَاهَا ﴿﴾ وكما قال عز وجل في سورة الحج : ﴿وما جعل عليكم في الدين من حَرَجٍ﴾ كما أَنَّ من فوائد هذه الجملة الاعتراضية أيضا تنبيه الكافرين بأن الجنة مع عظم قدرها يتوصل إليها بالعمل السهل اليسير الذي لا حرج فيه لعلهم يذكرون ويتوبون ، قال ابن جرير الطبري رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ قال أبو جعفر : يقول جل ثناؤه : والذين صدَّقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به من وحي الله وتنزيله وشرائع دينه ، وعملوا ما أمرهم الله به فأطاعوه وَتَجَنَّبُوا ما نهاهم عنه ﴿لا نكلف نفسا إلا وسعها﴾ يقول : لا نكلف نفسا من الأعمال إلا ما يسعها فلا تُحَرِّجُ فيه ﴿أولئك﴾ يقول : هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿أصحاب الجنة﴾ يقول : هم أهل الجنة الذين هم أهلها دون غيرهم ممن كفر بالله وعمل بسيائتهم ﴿هم فيها خالدون﴾ يقول : هم في الجنة ماكثون ، دائم فيها مُكثُّهم ، لا يخرجون منها ، ولا يُسَلَّبُونَ نعيمها اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ونزغنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونُودُوا أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بيان لكمال نعيم أهل الجنة بعد بيان كمال شقاء أهل النار ، وقد وصف الله تبارك وتعالى حال هؤلاء السعداء في هذه الآية بما يؤكد كمال سعادتهم حيث نُقِيَتْ صدورهم من الغل والحقد والحسد والبغضاء فلا يحسد أحد منهم أحدا على علو منزلته ورفيع درجته ، وهم جميعا تجري من تحتهم أنهار الجنة . وقد وصف الله عز وجل هذه الأنهار بأنها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مُصَفًّى ، كما أنهم جميعا راضون شاكرون يلهجون بالشناء على الله عز وجل مقرون بأن ما عملوه من الصالحات

كان من توفيق الله لهم ، ولولا توفيقُ الله لهم وجُودُهُ عليهم ما هُذُوا إلى الصراط
 المستقيم الذي سلكوه حتى أوصلهم إلى الجنة ، وقالوا : لقد تحقق لنا عِيَانًا ما
 كُنَّا قد آمَنَّا به غيبًا مما أخبرنا به رسلُ ربنا في الدنيا بأن المكذِبين برسل الله
 يعذبون في جهنم ، وأن المؤمنين ينعمون في الجنة ، ومن كمال سعادتهم أن
 يُنَادُوا بأن ما هم فيه من النعيم المقيم هو لهم ميراث أبدي سرمدي لا يُنْزَعُ
 منهم بحال من الأحوال ، لأنهم آمنوا برب العالمين وصدَّقُوا المرسلين . وقد
 أشار الله تبارك وتعالى إلى ما تضمنته هذه الآية في مواضع من كتابه الكريم
 حيث قال : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾ وكما
 قال عز وجل : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا
 الجنة بما كنتم تعملون ﴾ أي ادخلوا الجنة بعملكم الصالحات وكما قال عز
 وجل : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدَّقنا وعده وأورثنا الأرض ننبؤ أن الجنة
 حيث نشاء فنعم أجرُ العاملين ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وتلك الجنة التي
 أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن المؤمنين يُنْزَعُ ما
 في صدورهم من غل وهم على قنطرة بين الجنة والنار ، فقد قال البخاري في
 الرقاق من صحيحه : حدثني الصَّلْتُ بن محمد حدثنا يزيد بن زُرَيْع
 ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ قال : حدثنا سعيد عن قتادة عن أبي
 المُتَوَكِّل النَّاجِي أن أبا سعيد الخُدْرِي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
 يَخْلُصُ المؤمنون من النار ، فَيُخَبِّسُونَ على قنطرة بين الجنة والنار ، فَيَقْصُصُ
 لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذِبُوا ونُقُوا أُذِنَ
 لهم في دخول الجنة ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحْدُثُهُمْ أَهْدَى بمنزله في الجنة
 منه بمنزله كان في الدنيا . وفي إقرارهم بأنهم لولا أن الله وفقهم ما هُذُوا إلى
 سلوك الصراط المستقيم ، وفي مناداتهم بأنهم أورثوا الجنة بعملهم تأكيد على
 أهمية فضل العمل بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ مع التنبيه على كمال فضل الله

عليهم بتوقيقه لهم حيث أسكنهم الجنة على أعمال هو الذي وفقهم لها ، ولولا هُداة ما اهتدوا ، وهو شبهه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ الآية ، فقد سَمِيَ الله ذلك بيعا مع أنه عَوَّضَهُمْ على نفوس هو خالقها وأموال هو رازقها ، وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : سَدُّوا وقاربوا وأبشروا ، فإنه لا يُدْخِلُ أحدا الجنة عَمَلُهُ ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة . ولا يفهم من قوله عز وجل : ﴿ وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أن يكون ما في الجنة كان لغيرهم ثم انتقل إليهم كما ينتقل الميراث من الميت إلى وارثه فله عز وجل ميراث السموات والأرض ، وهو خير الوارثين ، وقد وصف الله عز وجل المؤمنين بأنهم ورثة الفردوس كما قال عز وجل : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴿ ودعا خليل الرحمن ربّه عز وجل فقال : ﴿ واجعلني من ورثة جنة النعيم ﴾ .

قال تعالى : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ، فَأُذِنَ مَوْذُنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ * وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ، وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ، وَنَادَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبُّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ * أَهْلُؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ، قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ .

بعد أن أَكَّدَ عز وجل أن الذين كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ واستكبروا عنها قد حَرَّمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ مَغْفِرَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ وَجُودِهِ فَلَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ عِنْدَ مَوْتِهِمْ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عِنْدَ بَعْثِهِمْ وَأَنْ جَزَاءَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ، وَأَنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَعَامِلُهُمُ اللَّهُ بِإِحْسَانِهِ وَجُودِهِ ، وَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، وَيَسْكُنُهُمْ فِسْحُ جَنَّتِهِ ، قَدْ نَزَعَ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غُلٍّ ، فَهُمْ فِي دَارِ السَّلَامِ مُتَحَابُونَ حَامِدُونَ شَاكِرُونَ ، ذَكَرَ عِزَّ وَجَلَّ هُنَا بَعْضُ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ لِتَأْكِيدِ أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنْ الْقِيَامَةُ حَقٌّ ، وَأَنْ الْجَنَّةَ حَقٌّ ، وَأَنْ النَّارَ حَقٌّ ، وَأَنْ الْمُؤْمِنِينَ يُمَكِّنُهُمُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ وَهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْإِطْلَاعِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ وَهُمْ فِي دَرَكَاتِهِمْ فِي جَهَنَّمَ فَيُنَادِي أَهْلُ الْجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ بِأَنْ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ قَدْ حَقَّقَ لَهُمْ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ

من نعيم الجنة لمن صدَّق بالغيب ، فهل تحقق لكم يا أهل النار ما أخبرتكم به رسل ربكم بأن الله قد أعدَّ جهنم لمن كَذَّبَ رسله ولم يؤمن بوعد الله فكذبتم رسل ربكم ولم تؤمنوا بالغيب . والمقصودُ من هذا النداء وهذه المحاوره هو تَحَدُّثُ المؤمنين بنعمة الله عليهم في جنات النعيم وفرحهم بما رأوه من الكرامة والسعادة مع مزيد من التوبيخ للكافرين وتقريرهم وتصغيرهم وتحقيرهم وإهانتهم وزيادة حسرتهم وندامتهم ، وهذا شبيه بما ذكر الله عز وجل في سورة الصافات عن المؤمن وقرينه الكافر حيث قال عز وجل :

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهِ وَهُمْ مَكْرُمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * بِيضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ * وَعَنْدهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سُوءِ الْحَبِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ * أَمَا نَحْنُ بِمُتَيْنٍ * إِلَّا مُوتِنَّا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ * إِنْ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ . ولقد قرَّعَ رسولُ الله ﷺ صناديد المشركين الذين قُتِلُوا يوم بدر، بعد أن جَيَّفُوا، فناداهم بمثل هذا النداء الذي ينادي به أهل الجنة أهل النار، ففي لفظ للبخاري من طريق قتادة قال : ذَكَرَ لَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنْ أَبِي طَلْحَةَ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ يَوْمَ بَدْرٍ بِأَرْبَعَةٍ وَعَشْرِينَ رَجُلًا مِنْ صُنَادِيدِ قُرَيْشٍ فَقَذَفُوا فِي طَوِيٍّ مِنْ أَطْوَاءِ بَدْرٍ خَبِيثٍ مُخْبِثٍ ، وَكَانَ إِذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَقَامَ بِالْعَرْصَةِ ثَلَاثَ لَيَالٍ ، فَلَمَّا كَانَ بِبَدْرِ الْيَوْمِ الثَّالِثِ أَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ فَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلُهَا ثُمَّ مَشَى وَاتَّبَعَهُ أَصْحَابُهُ ، وَقَالُوا : مَا نُرَى يَنْطَلِقُ إِلَّا لِبَعْضِ حَاجَتِهِ ، حَتَّى قَامَ عَلَى شَفَةِ الرَّكِيِّ ، فَجَعَلَ يَنَادِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ

وأسماء آبائهم، يا فلانُ بنَ فلان، ويا فلانُ بنَ فلانٍ أيسرُكم أنكم أطعتم الله
ورسوله، فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربُّكم حقاً؟
قال: فقال عمرُ: يا رسول الله ما تُكلِّم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول
الله ﷺ: والذي نفسُ محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقولُ منهم. قال قتادة:
أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقيمةً وحسرةً ونذماً، وفي
لفظ لمسلم من طريق ثابتِ البُناني عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ترك
قتلى بدر ثلاثاً ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: يا أبا جهل بن هشام يا
أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد
ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً. وفي هذا يقول عز وجل:
﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل
وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿فاليوم ننسأهم
كما نسأ لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ ومعنى قوله عز
وجل: ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا
حقاً﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ أي قال أهل الجنة لأهل
النار: إنا قد وجدنا ما وعدنا به ربُّنا من البعث والنشور والنعيم التام
للمؤمنين حقاً فهل أيقنتم الآن أن ما وعد الله عز وجل الكافرين المكذبين من
البعث والنشور والخزي الأبدي السرمدي والعذاب المقيم في نار جهنم حقاً،
فأجاب أهل النار: نعم وجدنا ما وعدنا ربنا على السنة رسله من البعث
والنشور والعذاب المقيم في نار جهنم حقاً، فنادى مناد بين أهل الجنة وأهل
النار يسمعه الفريقان: أن لعنة الله أي غضبه وسخطه وعقوبته على الذين
كفروا بالله وصدوا عن سبيله وحاولوا أن يُغيروا دين الله وأن يبدلوه عما جعله
الله له من استقامته، وهم كافرون بالساعة والبعث والنشور والثواب والعقاب
والجنة والنار. وقوله عز وجل: ﴿وبينهما حجاب﴾ أي وبين أصحاب الجنة

وأصحاب النار سائر يحجب نعيم أهل الجنة عن أهل النار حتى لا يتنعموا بمنظره، ويحجب عذاب أهل النار عن أهل الجنة حتى لا يتأذوا وينزعجوا من منظره مع تمكين الله عز وجل أهل الجنة من مخاطبة أهل النار والاطلاع عليهم لتوبيخهم وتصغيرهم وتحسيرهم وقوله تبارك وتعالى: ﴿وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ الأعراف في اللغة جمع عُرف وهو كل عالٍ مرتفع، وأصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فلم يستحقوا الجنة بالحسنات ولا النار بالسيئات فكانوا على مكان عالٍ بين الجنة والنار ينظرون إلى أهل الجنة تارة وإلى أهل النار تارة أخرى فإذا نظروا إلى أهل الجنة سلموا عليهم وضرعوا إلى الله أن يدخلهم الجنة، وإذا نظروا إلى أهل النار ضرعوا إلى الله أن لا يدخلهم النار. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فصاحب الخشية لله ينيب إلى الله، كما قال: ﴿وَأُزِلْتُ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ وهذا يكون مع تمام الخشية والخوف، فأما في مبادئها فقد يحصل للإنسان خوف من العذاب والذنب الذي يقتضيه فيشتغل بطلب النجاة والسلام، ويعرض عن طلب الرحمة والجنة، وقد يفعل مع سيئاته حسنات توازيها وتقابلها، فينجو بذلك من النار ولا يستحق الجنة، بل يكون من أصحاب الأعراف، وإن كان مآلهم إلى الجنة، فَلْيَنْسُوا مَنْ أَزَلَّتْ لَهُمُ الْجَنَّةُ، أي قربت لهم، إذ كانوا لم يأتوا بخشية الله والإنابة إليه اهـ. ومعنى: ﴿يعرفون كلا بسيماهم﴾ أي يعرف أصحاب الأعراف أهل الجنة بسيماهم وأهل النار بسيماهم، فأهل الجنة تعرف في وجوههم نضرة النعيم، وأهل النار تعرفهم بسواد وجوههم وزرقتهما، والسَّيِّئَاتُ والسَّيِّئَاتُ والسَّيِّئَاتُ هي العلامة المميزة ومعنى: ﴿ونادوا أصحاب

الجنة أن سلام عليكم ﴿ أي إذا نظر أصحاب الأعراف أصحاب الجنة نادوهم أن سلام عليكم أي حلت عليكم أمنة الله فلن تبأسوا أبداً ، وقوله عز وجل : ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ أي إن أصحاب الأعراف في هذا الحال الذي يسلمون فيه على أهل الجنة لم يكونوا قد دخلوا الجنة بعد ، وهم يطمعون في دخولها طمعا في سعة رحمة الله الذي نجاهم من النار . وقوله عز وجل : ﴿ وإذا صُرفتْ أَبصارهم تلقاء أصحاب النار ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ، ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ أي وإذا حُوِّلتْ أنظار أصحاب الأعراف جهة أهل النار ورأوا ما هم فيه من شديد العقاب وسوء العذاب ضرعوا إلى الله عز وجل قائلين : ربنا لا تجعلنا مع هؤلاء الكافرين في نار جهنم ، ونادى أصحاب الأعراف رجالا من أهل النار يعرفونهم بعلامتهم قائلين لهم على سبيل التقرير والتوبيخ : ماذا أفادكم تألبكم وتكبركم في الأرض بغير الحق ، ثم زادوهم تحسيرا وتقريبا فأشاروا إلى من تواضعوا لله عز وجل في الدنيا وانقادوا لأمر الله ولاسيما فقراء المؤمنين كصهيب وعمار وبلال وسلمان وخباب الذين رفع الله منازلهم في جنات النعيم ، وكان الكفار يحقرونهم في الدنيا ويزدرونهم ويسمونهم الأشرار : أهؤلاء الذين أقسمتم أنهم لا يستحقون رحمة الله ظنا منكم أن فقرهم دليل سوء فهمهم حيث كنتم تعتقدون أنه لو كان هناك جنة ونار لكنتم أحق بالجنة منهم لغناكم وفقرهم ، وجهلتم أن المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، وأن الله عز وجل إنما ينظر إلى الناس بأعمالهم وقلوبهم لا بأجسامهم وأموالهم ، ثم ختم مشهد أصحاب الأعراف بقول الله عز وجل لهم : ﴿ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ ثم ذكر عز وجل مشهدا آخر من مشاهد القيامة فقال : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ فاليوم

ننساهم كما نَسُوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴿ أي واستغاث
أهل النار بأهل الجنة قائلين لهم : أفرغوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله من
الطعام وأنهار اللبن والعسل والفواكه ، فيجيب أهل الجنة أهل النار بأن الله
حرم شراب أهل الجنة وطعامها على الكافرين الذين كفروا بالله ورسله
والذين اتخذوا دين الله الذي أرسل به رسله سخرية ولعبا وخدعهم عاجل ما
كانوا فيه من العيش والدعة عن الأخذ بنصيبتهم من الآخرة حتى ماتوا على
ضلالتهم ، قال تعالى : فالיום نتركهم في العذاب كما تركوا العمل في الدنيا
لللقاء الله يوم القيامة ، وكما كانوا بآيات الله يجحدون فيكذبون الرسل ولا
يصدقون بلقاء الله عز وجل ويرفضون جميع حجج الله وآياته التي أيد بها
رسله ، وأقامها برهانا على أن قوله الصدق ووعدَه الحقُّ ، وأن من يشرك بالله
فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار.

قال تعالى : ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ هل ينظرون إلا تأويله ، يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون * إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يُغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى بعض مشاهد القيامة لتأكيد أن وعد الله حق ، وأن القيامة حق ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وذكر المناداة بين أهل الجنة وأهل النار بما يتضمن ما آل إليه المؤمنون من النعيم التام وما آل إليه أهل الكفر من الشقاء التام بيّن عز وجل هنا أنه قد أزاح علل هؤلاء الخاسرين الأشقياء فى دار الدنيا ووقت التكليف فلم يترك عذرا لمعتذر حيث أنزل القرآن العظيم كما أنزل الكتب السابقة قد فصلّ فيه جميع ما يحتاجه الناس فى معاشهم ومعادهم وهو العليم الخبير . وقد شرح فيما أنزل من الكتاب طريق السعداء وطُرُق الأشقياء ، لِيَهْلِكَ من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة ، وأشار عز وجل إلى أن الكافرين الذين انطمست بصائرهم قد كفروا بالغيب الذى أخبر به الرسل وأنزل الله به الكتب فلا يصدقون إلا عندما يقع بهم عذاب الله فى نار جهنم حيث لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا . كما أشار عز وجل هنا إلى أنه قد أقام البراهين بالآيات القرآنية والآيات الكونية الشاهدة بأن الله هو الحق وأن وعده الحق وأنه أحكم الحاكمين ورب العالمين حيث يقول عز وجل : ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾

إلى قوله عز وجل : ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هَدَىٰ وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي ولقد بعثنا إليهم مع رسولنا بكتاب أوضحنا فيه للعباد جميع ما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم ، وَبَيَّنَّا فِيهِ مَا يَجِبُهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ ، وما يكرهه ويبيغضه ، وبشرنا فيه المطيعين بالجنة وكريم نعيمها ، وحذرنا العاصين من النار وأليم عقابها ، ونبهنا إلى أسرار الكون وغيوب الماضي والحاضر والمستقبل ، وما يشتمل عليه من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى ، ولا شك أن المتدبر لآيات هذا الكتاب وَجُمَلِهِ وحروفه يوقن أنه تنزيل من حكيم علیم قد أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، يهدي الله به أصحاب الفطر السليمة والعقول المستقيمة فيدخلون في رحمة الله ويؤمنون بكتاب الله ورسول الله ، ويسلكون الصراط المستقيم . وقد أثنى الله تبارك وتعالى على القرآن العظيم في مواضع من كتابه الكريم بأنه أنزله الله بعلمه ، كما قال عز وجل : ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلِ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي هل ينتظر هؤلاء المكذبون فلا يؤمنون حتى يشاهدوا بأنفسهم الحقيقة التي توعدهم الله عز وجل بها المكذبين وما يؤول إليه أمرهم من مصيرهم إلى النار تحقيقا لما توعدهم الله به في كتابه الكريم ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُ هذا الوعيد ويقع ما توعدهم الله به يوقنون بأن إيمانهم حيثئذ لا ينفعهم ، فَيَقْرَأُ هَؤُلَاءِ بِأَنْ مَا جَاءَتْ بِهِ إِلَيْهِمْ رِسَالُ اللَّهِ هُوَ

الحق ، ويتمنى هؤلاء الذين تركوا كتاب الله وكذبوا بما جاء به من الوعد والوعيد أن يجدوا شفيعا يشفع لهم أو أن يرجعوا إلى الدنيا ليؤمنوا فيها بما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ويعملوا الصالحات ، ويسلكوا الصراط المستقيم ، وقد خابوا وخسروا وضيعوا أنفسهم وغاب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا ولي لهم ولا شفيع ، ولا منقذ لهم من نار جهنم . وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر حيث يقول عز وجل : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ * بل بَدَأَ لَهُمْ ما كانوا يُخْفُونَ من قبل ولو رُدُّوا لَعَادُوا لما نُهُوا عنه وإِنَّهم لَكَاذِبُونَ ﴿ وبعد أن بين عز وجل أنه قد أزاح علل الكفار فلم يترك عذرا لمعتذر حيث أنزل الكتب وأرسل الرسل لتعريف العباد بربهم وأنه لا إله إلا هو وأن وعده الحق أشار عز وجل إلى أنه أقام الآيات الكونية كذلك للدلالة على أنه لا إله إلا هو وأنه عز وجل له وحده الخلق والأمرُ تبارك الله ربُّ العالمين حيث يقول هنا : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ مَسْجُرَاتٍ بِأَمْرِه أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أي إن سيدكم ومالككم ومُصلِحَ شئونكم ومدبر أموركم ومن بيده نواصيكم المستحقُّ لأن يُعْبَدَ وحده لا شريك له هو الله الذي أوجد السموات والأرض وأبدعهما وأنشأهما وأحدثهما على غير مثال سبق وكونَهما في ستة أيام أي في مقدار ستة أيام لأن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها ولم يكن يومئذ يوم ولا شمس ولا سماء . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : إن القرآن أخبر في غير موضع أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وقد ثبت في الحديث الصحيح المتفق على صحته : أن آخر المخلوقات

كان آدم، خُلِقَ يومَ الجمعة، وإذا كان آخر الخلق كان يوم الجمعة دَلَّ على أن أوله كان يوم الأحد لأنها ستة، وأما الحديث الذي رواه مسلم في قوله: خلق الله التربة يوم السبت، فهو حديث معلول قَدَحَ فيه أئمة الحديث كالبخاري وغيره، قال البخاري: الصحيح أنه موقوف على كعب اهـ. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضا: وأهل الملل متفقون على أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، وخلق ذلك من مادة كانت موجودة قبل هذه السموات والأرض، وهو الدخان الذي هو البخار، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ وهذا الدخان هو بخار الماء الذي كان حينئذ موجودا، كما جاءت بذلك الآثار عن الصحابة والتابعين، وكما عليه أهل الكتاب، كما ذكر هذا كله في موضع آخر، وتلك الأيام لم تكن مقدار حركة هذه الشمس وهذا الفلك، فإن هذا مما خُلِقَ في تلك الأيام، بل تلك الأيام مقدرة بحركة أخرى. وكذلك إذا شَقَّ اللهُ هذه السموات وأقام القيامة وأدخل أهل الجنة الجنة قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ وقد جاءت الآثار عن النبي ﷺ بأنه تبارك وتعالى يتجلى لعباده المؤمنين يوم الجمعة، وأن أعلاهم منزلة من يرى الله تعالى كل يوم مرتين، وليس في الجنة شمس ولا قمر، ولا هناك حركة فلك، بل ذلك الزمان مقدر بحركات، كما جاء في الآثار أنهم يعرفون ذلك بأنوار تظهر من جهة العرش اهـ. وقد ذكر الله تبارك وتعالى أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام في غير موضع من كتابه الكريم فقال في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وقال في سورة هود: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وقال عز وجل في سورة الفرقان: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ

أيام ثم استوى على العرش ﴿ وقال في سورة السجدة : ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ وقال عز وجل في سورة ق : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ وقال في سورة الحديد : ﴿ هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ قال الشيخ الإمام محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي في تفسيره ﴿ معالم التنزيل ﴾ أهل السنة يقولون : الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف ، يجب على الرجل الإيمان به ، ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل ، وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استوى ؟ فأطرق رأسه مليا ، وعلاه الرضاء ، ثم قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أظنك إلا ضالا . ثم أمر به فأخرج اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره هذه الآية : إنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح : مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه وليس كمثله شيء وهو السميع البصير بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزازي شيخ البخاري قال : من شبه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِثًا ﴾ أي يأتي بالليل على النهار فيغطيه ويذهب

نور النهار، كما أنه يأتي بالنهار على الليل فيغطيه ويذهب ظلام الليل ، وقد حذفت إحدى الجملتين للدلالة الحال عليها ومعنى : ﴿يطلبه حثيثاً﴾ أي يطلب كل منهما الآخر طلباً حثيثاً أي سريعاً ، والمقصود أن تعاقب الليل والنهار يحصل بحركة هي أشد الحركات سرعة وأكملها شدة وقد ذكر علماء الفلك أن الإنسان المسرع جداً لا يكاد يرفع رجله ويضعها حتى يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل ، وقوله عز وجل : ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخراتٌ بأمره﴾ بالنصب عطفاً على ﴿السموات والأرض﴾ أي وخلق الشمس والقمر والنجوم مذلاتٍ بقهره ومشيتته وإذنه وأمره الكوني ، وكما قال عز وجل في سورة النحل : ﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخراتٌ بأمره ، إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون﴾ ومعنى قوله : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي هو وحده الموجد للكائنات وهو وحده الذي له الحكم والأمر والنهي والتشريع كما قال عز وجل : ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وقوله عز وجل : ﴿تبارك الله رب العالمين﴾ أي تقدس وتعظيم وتنزه وتعالى وارتفع وتطهر سيد الخلائق ومالكهم ومصلحهم ، ولا تطلق صفة «تبارك» إلا على الله وحده فهي صفة خاصة به عز وجل وهو الذي يُتَبَرَّكُ باسمه في كل أمر.

قال تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية، إنه لا يحب المعتدين﴾ * ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً، إنَّ رحمت الله قريب من المحسنين * وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون * والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا، كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون *.

بعد أن بيَّن عز وجل أنه قد أزاح علل الخاسرين الأشقياء في دار التكليف فلم يترك عذرا لمعتذر حيث أنزل الآيات المتلوة وأقام الآيات الكونية، وأن الكافرين لم يصدقوا بوعد الله ووعيده إلى أن يَقَعَ بهم عذابُ الله وأليم عقابه في نار الجحيم، شرع هنا في تحريض عباده وحضهم على إخلاص العبادة لله وحده وألا يعتدوا على حقه عز وجل، وأن يجتنبوا الإفساد في الأرض وأن يعبدوه خوفاً من غضبه وعقوبته وطمعاً في رضاه ورحمته، ثم نَبَّهَهُمْ إلى بعض البراهين المحسوسة الدالة على آثار رحمته الشاهدة بقدرة الله عز وجل على إحياء الموتى كما أحيا الأرض الميتة بما أنزل عليها من الماء، كما نبههم إلى أن النفوس الطيبة تقبل الهدى كالأرض الطيبة التي تنتفع بالغيث، وأن النفوس الخبيثة لا تقبل الهدى كالأرض الخبيثة السبخة التي لا تنتفع بالغيث، حيث يقول عز وجل: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية، إنه لا يحب المعتدين﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا، كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ أي اعبدوا الله سيدكم ومالككم ومصلح أموركم متذللين له، مستكينين مبتعدين عن الرياء وأفردوه بنوعي الدعاء وهو دعاء العبادة ودعاء المسألة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله عز

وجل : ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخُفْيَةً﴾، إنه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا، إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴿هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء : دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان، فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره ودفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود، لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر، ولهذا أنكر تعالى على من عَبَدَ مِنْ دُونِهِ مَا لَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ وقال : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ فنَقَى سبحانه عن هؤلاء المعبودين الضر والنفع، القاصر والمتعدي، فلا يملكون لأنفسهم ولا لعبادهم، وهذا كثير في القرآن، يُبَيِّنُ تعالى أن المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر، فهو يدعو للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعو خوفا ورجاء دعاء العبادة، فَعَلِمَ أن النوعين متلازمان، فكلُّ دعاء عبادةٍ مستلزمٌ لدعاء المسألة، وكلُّ دعاءٍ مسألةٍ متضمنٌ لدعاء العبادة. ثم قال رحمه الله : إِذَا عُرِفَ هَذَا فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ يتناول نوعي الدعاء، لكنه ظاهر في دعاء المسألة، متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراؤه، قال الحسن : بَيَّنَّ دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسْمَعُ لَهُمْ صَوْتُ، أي ما كانت إلا همسا بينهم وبين ربهم عز وجل، وذلك أن الله عز وجل يقول : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وأنه ذكر عبدا صالحا ورضي بفعله فقال : ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نَدَاءً خَفِيًّا﴾ اهـ. ولما رفع أصحاب رسول الله ﷺ أصواتهم بالتكبير وهم في طريق خير أمرهم رسول الله ﷺ ألا يرفعوا أصواتهم فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من

حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : لما غزا رسول الله ﷺ خيبر أو قال : لما توجه رسول الله ﷺ أشرف الناس على وادٍ ، فرفعوا أصواتهم بالتكبير : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ : اربُّعُوا على أنفسكم ، إنكم لا تَدْعُونَ أَصْمَ ولا غائبًا ، إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم ، وأنا خَلَفُ دابة رسول الله ﷺ فسمعني وأنا أقول لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال لي : يا عبد الله بن قيس ، قلتُ : لبيك رسول الله ، قال : أَلَا أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، فذاك أبي وأمي ، قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . وقوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّه لا يحب المعتدين﴾ أي إن الله عز وجل يبغض الذين يعتدون على حدوده ويتجاوزون شرعه ، فمن دعا غير الله فهو معتد ومن عَبَدَ الله بغير شرعه فهو معتد ، ومن عَبَدَ الله بشرعه رياء وسمعة فهو معتد ، ولا نَجاة إلا لمن عَبَدَ الله عز وجل بشرعه الذي بعث به رسوله وأنزل به كتابه وكان في عبادته مخلصا لله عز وجل ، ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أنه من أحدث في شرعه ما ليس منه فهو ردٌّ ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ ، وفي رواية لمسلم : من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ . ولا شك أن الله تبارك وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا صوابا ، ومعنى كونه خالصا أن يكون لوجه الله ، ومعنى كونه صوابا أن يكون على منهج رسول الله ﷺ . وقوله تعالى : ﴿إِنَّه لا يحب المعتدين﴾ متضمن للنهي الشديد عن الاعتداء كأنه قيل : ادعوا ربكم تضرعا وخُفْيَةً ولا تعتدوا . ولهذا قال بعدها : ﴿ولا تُفْسِدُوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ولا تُفْسِدُوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ أي ولا تُعْرِضُوا عن شريعة الله ولا تتولوا عن دين محمد ﷺ فإنكم إن أعرضتم عن شريعة الله وتوليتُم عن دين محمد ﷺ أفسدتم في الأرض

وعملتم على إبطال أسباب صلاحها وفلاحها وسعادة أهلها، فإن مجيء رسول الله إليكم هو أهم أسباب فلاحكم وصلاحكم إن أطعتموه فأخلصتم التوحيد لله وأفردتم ربكم بالعبادة والدعاء، وسلكتم صراط الله المستقيم الذي يحفظ لكم أنفسكم وأموالكم وأعراضكم وعقولكم، وتجنبتم المعاصي فإن كل شر في العالم وكل فتنه وبلاء وقحط وتسليط عدو فسيبه مخالفة المرسلين، وانتهاكُ حرمات الدين، كما قال عز وجل: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ فلا صلاح للأرض إلا بتحكيم شريعة الله والانقياد لأمره، قال ابن جرير الطبري رحمه الله: قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ لا تشركوا بالله في الأرض ولا تعصوه فيها وذلك هو الفساد فيها. اهـ وقال الإمام البغوي رحمه الله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ أي لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها يَبْعَثُ الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله، اهـ وقال ابن كثير رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أَضَرُّ بعد الإصلاح، فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أَضَرَّ ما يكون على العباد فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتَّذَلُّلُ لديه، فقال: ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ أي خوفاً مما عنده من وبيل العقاب وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب. ثم قال: ﴿إن رحمت الله قريب من المحسنين﴾ أي إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾ الآية اهـ. وإنما قال عز وجل: ﴿قريب من المحسنين﴾ ولم يقل قريبة من المحسنين لأن لفظ قريب

إذا كان بمعنى المسافة يستوى فيه المذكر والمؤنث . قال أبو عمرو بن العلاء :
القريب في اللغة يكون بمعنى القُرْب يعني القرابة وبمعنى المسافة تقول
العربُ : هذه امرأة قريبة منك إذا كانت بمعنى القرابة وقريبٌ منك إذا كانت
بمعنى المسافة اهـ وقوله تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي
رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به
من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ تنبيه إلى بعض
الآيات الكونية التي يسوقها الله عز وجل للدلالة على أنه على كل شيء قدير ،
وأنه يحيي الموتى وأنه الرزاق ذو القوة المتين فَبَيَّنَ عز وجل أنه هو وحده الذى
يبعث الرياح ويرسلها إرسالا كونيا مبشراتٍ بمجيء المطر ونزول الغيث
بعدها فهي تُثير السحاب ويسوقه الله إلى الأرض الجزر المرتفعة الشاخحة ،
وَيُشَاهِدُ هذا السحابُ الثقال الذى يزن آلاف آلافِ القناطير وهو يجري في
طبقات الجو حتى يُنَزِّلُهُ الله بقدر مقدر على ما يشاء من الأرض فيُخْرِجُ الله به
من كل الثمرات ويحيي به الأرض بعد موتها ، إن الذى أحيها لمحبي الموتى ،
فعلى العقلاء أن يتذكروا نعمة الله عليهم وقدرته على التصرف فيهم بما يشاء
والحكم فيهم بما يريد . كما قال عز وجل : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح
مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفُلكُ بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم
تشكرون ﴾ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات
فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين * الله الذى يرسل
الرياح فتثير سحابا فيسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق
يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون * وإن
كانوا من قبل أن يُنَزَّلَ عليهم من قبله لَمُبْلِسِينَ * فانظر إلى آثار رحمت الله
كيف يحيي الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحبي الموتى وهو على كل شيء
قدير ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿ والذى نَزَّلَ من السماء ماء بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا به بلدة

مَيِّتًا ، كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٠﴾ وكما قال عز وجل : ﴿١١﴾ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿١٢﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : بينا رجلٌ بفلاة من الأرض فسمع صوتا في سحابة : اسقِ حديقة فلان ، فَتَنَحَّى ذلك السحابُ فأفرغ ماءه في حرة فإذا شَرْجَةٌ من تلك الشَّراج قد استوعبت ذلك الماء كُلَّهُ ، فَتَبَّعَ الماءَ فإذا رجلٌ قائمٌ في حديقته يُحَوِّلُ الماءَ بِمِسْحَاتِهِ ، فقال له : يا عبدالله ما اسمك ؟ قال : فلان للاسم الذي سمع في السحابة فقال له : يا عبدالله لم تسألني عن اسمي ؟ فقال : إني سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول : اسقِ حديقة فلان لاسمك ، فما تصنع فيها ؟ قال : أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يُخْرَجُ مِنْهَا فَاتَّصِدُقُ بِثَلْثِهِ وَأَكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا وَأَرْدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ . وقوله تعالى : ﴿١٣﴾ وَالْبَلَدِ الطَّيِّبِ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴿١٤﴾ الآية . قال ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير : قال المفسرون : هذا مثْلُ ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر ، فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقله انتفع به وبأن أثره عليه فَشُبَّهَ بالبلد الطيب الذي يُمرع ويُخصب ويحسن أثر المطر عليه ، وعكسه الكافر اهـ . ومعنى : ﴿١٥﴾ كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿١٦﴾ أي كذلك نبين الحجج ونصرف البراهين آية بعد آية ونضرب مثلا بعد مثل لقوم يستجيبون للحق ويعترفون بنعم الله .

قال تعالى : ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين ﴾ قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ﴾ أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾ فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا، إنهم كانوا قوما عمين ﴾ .

بعد أن حرّض الله تبارك وتعالى العباد على إخلاص العبادة لله وحده، وألا يَعتَدُوا على حقه ، وأن يجتنبوا الإفساد في الأرض ، وأن يعبدوه خوفا من غضبه وعقوبته وطمعا في رضاه ورحمته ، ونبههم إلى بعض البراهين المحسوسة الدالة على آثار رحمته الشاهدة بقدرة الله عز وجل على إحياء الموتى كما أحيا الأرض الميتة بما أنزل عليها من الماء ، كما نبههم إلى أن النفوس الطيبة تقبل الهدى كالأرض الطيبة التي تنتفع بالغيث ، وأن النفوس الخبيثة لا تقبل الهدى كالأرض السبخة التي لا تنتفع بالغيث ، وفي هذا مواساة لرسول الله ﷺ حتى لا يبتس بها يلقاه من المكذبين ، شرع في ذكر بعض قصص الأنبياء مع أمهم وَمَا لَأَقْوَمُ مِنْهُمْ لَتَشِيبَ فُؤَادُهُ ﷺ وللعظة والذكرى وبشارة المؤمنين ونذارة المكذبين ، وبدأ بقصة نوح عليه السلام لأنه أول رسول كذبه قومه ولم يؤمن به إلا قليل ، فنجاه الله والذين معه ، وأغرق المكذبين ، حيث يقول هنا : ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فَقَالَ يَا قَوْمِ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عَمِينَ﴾ وفي قوله عز وجل : ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ تقرير للرسالة والتوحيد والبعث وهي

الحقائق الثلاث التي تدور في فلكها السُّورُ المكية ، فهي أهم مهمات الدين التي لا سعادة لأحد إلا إذا استقرت في نفسه وأيقن بها قلبه ، ولن تفتح أبواب الجنة إلا لمن لقي الله عز وجل مؤمناً بها ، وكان نوح عليه السلام أول أولي العزم من المرسلين ، وأول رسول أرسله الله عز وجل يحذر من الشرك بالله عز وجل إذ كانت أمته هي أول الأمم المشتركة على ظهر الأرض ، وقد كان بين نوح عليه السلام وبين آدم عشرة قرون كلهم على الإسلام . فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، كما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله عز وجل : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبُّوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسَمُّوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ ، ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم غُبِذَتْ أِهـ . قال ابن جرير الطبري رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ قال أبو جعفر : أقسم ربنا جل ثناؤه للمخاطبين بهذه الآية أنه أرسل نوحاً إلى قومه مُنْذِرُهُمْ بِأَسْهـ ، وَخُوفُهُمْ سَخَطَهُ ، على عبادتهم غَيْرَهُ ، فقال لمن كَفَرَ منهم : اعبدوا الله الذي له العبادَة ، وَذَلُّوا لَهُ بالطاعة ، وَاخْضَعُوا لَهُ بالاستكانة ، وَدَعُوا عِبَادَةً مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَلْهَةِ ، فإنه ليس لكم معبودٌ يستوجب عليكم العِبَادَةَ غَيْرُهُ ، فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ إِن لَمْ تَفْعَلُوا ذَلِكَ ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني : عذاب يوم يعظم فيه بلاؤكم بمجيئه إِيَّاكُمْ بِسَخَطِ رَبِّكُمْ أِهـ . ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي قال له سادة قومه وكبرائهم ووجوههم ورؤسائهم

وأشرفهم وقادتهم رادّين دعوة التوحيد مكذّبين برسول ربّ العالمين الذي بعثه لهم لإنقاذهم من الشرك والضلالة: ﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾ أي إنا لنعتقد أنك تائه عن الحق، ضائع عن الرشد، مائل عن نهج آبائنا، واقع في خطأ ظاهر وضلال بيّن. قال ابن كثير رحمه الله: وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة كقوله: ﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿إلى غير ذلك من الآيات اهـ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون * أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون﴾ بيان شافٍ كافٍ وحجة مفحمة ملزمة من نوح عليه السلام وإيضاح لمنهج الفلاح والرشد والعدل الذي يدعو قومه إليه لينقذوا أنفسهم من النار وغضب الجبار، فقد ردّ عليهم ما ادّعوه عليه من الضلال بأنّ نفى عن نفسه أن يكون به أي نوع من أنواع الضلالة ألّبتة، ووصف نفسه بما يكون به أبعد الخلق عن الضلال، حيث اختاره الله عز وجل ليكون رسول الله إليهم، ولا شك أن رسول رب العالمين يكون متصفا بأشرف الصفات وأجلها، وأهدى قومه طريقا وأقومهم سبيلا وأرجحهم عقلا، وأعظمهم نصحا، والمعروف أن الرائد الناصح لا يكذب أهله، وأشار نوح عليه السلام بأن الله تبارك وتعالى قد منّ عليه بأنواع من العلوم التي تجلب لمن تمسك بها عز الدنيا وسعادة الآخرة ثم وجّه نوح عليه السلام لقومه سؤال توبيخ وتقريع: أوتستغربون وتعجبون وتستبعدون أن يحييكم رسول من ربكم يحمل لكم الذكر الذي يدلّكم على طريق الهدى ويرشدكم إلى الصراط المستقيم ويخوفكم ويحذركم من أن يحلّ بكم عذاب من الله إن كذبتُم رسوله وعصيتُم أمره، ولتعرفوا

حدود الله فتجنبوا محارمه ، وتكونوا من المتقين ، ولتنا لكم رحمة الله إن آمنتكم برسوله ووقفتم عند حدوده . وفي مناداة نوح عليه السلام قومه بقوله : يا قوم هو أسلوب من أساليب استمالة قلوبهم نحو الحق ، وتنبية على أن محمداً ﷺ ليس هو أول من كذبه قومه ، وفي ذلك مواساة لرسول الله ﷺ ، وتثبيت لفؤاده صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين . وفي قوله : ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾ استدراك مما قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه في أقصى مراتب الهداية ، فإن رسالة رب العالمين مستلزمة له لا محالة ، وقوله : ﴿أبلغكم رسالات ربي﴾ استئناف مسوق لتقرير رسالته وتفصيل أحكامها وأحوالها ، وجمع الرسائل لتنوع معانيها ، وتعدد مطالبها ، وفي قوله : ﴿وأنصح لكم﴾ تنبيه على أنه إنما يريد لهم الخير ويجب لهم ما يجب لنفسه ، والهمزة في قوله : ﴿أوعجبتكم﴾ للاستفهام الإنكاري والواو للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل : أَسْتَبْعَدْتُمْ وعجبتكم من أن جاءكم ذكر من سيدكم ومالككم ومربيكم ومصلح أموركم أنزله على رجل منكم تعرفون صدقه ونسبه ، قال ابن جرير : وفتح الواو من قوله : ﴿أوعجبتكم﴾ لأنها واو عطف دخلت عليها ألف الاستفهام اهـ وسبيل الواو أن تدخل على حروف الاستفهام كقوله تعالى : ﴿وهل نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ إلا الألف فإنها تدخل على الواو ولا تدخل عليها الواو . ولما كانت أعظم وظائف النبيين والمرسلين هي دعوة الخلق إلى عبادة الخالق وحده لا شريك له أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث قال في مطلع قصة نوح : ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ وقال في مطلع قصة هود بعدها : ﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ وقال في مطلع قصة صالح : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ فالدعوة إلى التوحيد هي أهم وظائف

المرسلين وقوله تبارك وتعالى: ﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفُلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا، إنهم كانوا قوماً عَمِينَ﴾ بيان لما أصاب قوم نوح عليه السلام من العقوبة لما تمادوا على تكذيبه ومخالفة أمره، وأن الله عز وجل قد انتقم لأوليائه من أعدائه وخلّص رسوله والمؤمنين من مكرهم وكيدهم، ونصر نبيه نوحاً عليه السلام. وفي هذا تحذير لكفار قريش وغيرهم من المكذبين بمحمد ﷺ ليحذروا حتى لا يصيبهم ما أصاب قوم نوح عليه السلام، ومعنى قوله عز وجل: ﴿إنهم كانوا قوماً عَمِينَ﴾ أي إن قوم نوح الذين كذبوا وأصروا على الكفر مع طول المدة التي لبثوا فيها وكثرة نصحه لهم بالليل والنهار وفي السر والعلانية، كما قال عز وجل في سورة نوح: ﴿قال ربّ إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً * فلم يزدتهم دعائي إلا فزاراً * وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً * ثم إني دعوتهم جهاراً * ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً﴾ فانتقم الله عز وجل منهم، وسلط عليهم الطوفان لأن قلوبهم قد عميت عن الحق، وانطمست بصائرهم عن معرفة الله عز وجل والإيمان به وبرسوله ﷺ، يقال: رَجُلٌ عَمٌ إذا كان أعمى القلب وجمعه عَمُونَ، ويطلق كذلك على من انغلق عليه الأمر وجهل عاقبته كما قال زهير بن أبي سلمى المزني في معلقته المشهورة:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم
وقد ذكر الله تبارك وتعالى عقوبته لقوم نوح عليه السلام لما أصروا على تكذيبه ﷺ فقال في سورة الصافات: ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وأهله من الكرب العظيم * وجعلنا ذريته هم الباقين * وتركنا عليه في الآخرين * سلام على نوح في العالمين * إنا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * ثم أغرقنا الآخرين﴾. وقال في سورة القمر: ﴿كذبت

قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر * فدعا ربه أني مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قُدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا جزاء لمن كان كُفِرَ * ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابي ونذر .

وقال تعالى في سورة الحاقة : ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾ وقال في سورة الأنبياء : ﴿ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم * ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين﴾ وقال في سورة هود : ﴿وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون * واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون * ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون * فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يُجزّيه ويَحُلُّ عليه عذاب مقيم * حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل * وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾ وقال في سورة المؤمنون : ﴿قال رب انصرني بما كذبون * فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون * فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين * وقل رب أنزلني مُنزلا مباركا وأنت خير المنزلين * إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين﴾ .

قال تعالى : ﴿وإلى عاد أخاهم هودا، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، أفلا تتقون﴾ قال الملأ الذين كفروا من قومه إننا لنراك في سفاهة وإننا لنظنك من الكاذبين ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين﴾ أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم، واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بَصْطَةً فاذكروا إلاء الله لعلكم تفلحون﴾ قالوا أجبنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان، فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴿.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى قصة نوح عليه السلام وأنه عليه السلام دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن قومه كذبوه، فأغرقهم الله عز وجل بالطوفان وأنجى نوحا والذين معه في الفلك، أَتَبَعَ ذلك بذكر قصة هود عليه السلام مع قومه، فذكر دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن قومه كذبوه وسفَّهُوه، وأن هودا عليه السلام أجابهم بالحجة القاطعة والآية الساطعة فأصروا على ضلالهم وسفاهتهم واستعجلوا عذاب الله فانتصر الله عز وجل لهود عليه السلام والذين آمنوا معه وقَطَعَ دابر المكذبين الكافرين . وفي ذلك يقول : ﴿وإلى عاد أخاهم هُودًا، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، أفلا تتقون﴾ إلى قوله : ﴿وقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾ وعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف الواقعة باليمن بين عُمان وحضرموت المطلة على البحر بناحية الشَّحْر، وتصل إلى الدهناء

وعالج ، والأحقاف جمع حقف وهو المعوج من الرمل أو الرمل العظيم المستدير المستطيل المشرف ، وهوذ عليه السلام هو أول رسول عربى ذكر الله عز وجل قصته في القرآن الكريم ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿وإلى عاد أخاهم هودا﴾ أي ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا كأنه قيل : لقد أرسلنا نوحا إلى قومه وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا ، ومعنى كونه أخاهم أي واحدا منهم في النسب ، كما تقول لرجل عربى : يا أخا العرب بغض النظر عن دينه ومذهبه . كما تطلق الأخوة على المصاحبة والمخالطة ، وقد وُصف رسول الله ﷺ بأنه أخو قريش وصاحب قريش كما قال عز وجل : ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿أفلا تتقون﴾ أي أفلا تخافون انتقام الله عز وجل منكم إذا عبدتم غيره وأشركنم به ما لم ينزل عليكم به سلطانا ، وهو وحده خالقكم ورازقكم ، فاتقوه واجتنبوا أسباب سخطه ، وقفوا عند حدوده ، حتى لا يحل بكم عذاب من الله كما حل بقوم نوح عليه السلام . وقوله عز وجل : ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ بيان لما قابل به قوم هود دعوته لهم وما نصَحَهُمْ به حيث واجهوهُ بقبيح الكلام ووصفوه عليه السلام بأنه مستغرق في السفاهة والطيش والبُعْد عن الحِلْم والعقل ، متمكن في الضلال ومفارقة الحق والصواب والرشد . كما أعلنوا له أنهم لا يصدقونه بحال ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿قال يا قوم ليس به سفاهةٌ ولكني رسول من رب العالمين * أبلغُكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ بيان لما أجاب به هود عليه السلام قومه على ما نسبوه إليه من السفاهة والكذب حيث لم يقابل سفاهتهم بالسفاهة بل قابلها بالحِلْم والإغضاء والرزانة وكمال الشفقة والرأفة والإحسان كما فعل رسول الله نوح عليه السلام مع قومه ، وفي هذا إشعار بأن رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم كانوا في أعلى الذروة من مكارم الأخلاق ، وصبروا على ما

أصابهم في الله عز وجل ، وفي هذا مواساةً لرسول الله ﷺ على أكمل وجه من وجوه المواساة ، والفرق بين قوله في قصة نوح عليه السلام : ﴿ وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وقوله في قصة هود عليه السلام : ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ هو أن ما ذكره نوح عليه السلام هو جملة فعلية تدل على التجدد والحدوث ، وما ذكره هود عليه السلام هو جملة اسمية تدل على الثبوت والاستقرار والاستمرار . ومن المقرر في علم المعاني من علوم البلاغة أن الجملة الفعلية تفيد الاستمرار التجديدي إذا كان فعلها مضارعاً كما أن الجملة الاسمية تفيد الدوام والاستمرار إذا كان خبرها مفرداً ، ولا شك أن نوحاً عليه السلام قد ذكر الله عز وجل عنه ما يفيد أنه كان يجدد كثيراً دعوته لقومه كما أشار إلى ذلك قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ تأكيد لكونه عليه السلام كان ناصحاً أميناً حريصاً على نجاة قومه من المهالك وتحذيرهم من أن يصيبهم ما أصاب قوم نوح من قبلهم ، ولا شك أنهم كانوا على علم بما أصاب قوم نوح عليه السلام ، وقد ذكّرهم هود ﷺ بنوعين من نعم الله العظيمة الجليلة عليهم : الأول : أنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح الذين أهلكهم الله بدعوته وجعلهم من ذرية الصالحين الذين نجاهم من الطوفان وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم . والثاني : أنه زادهم في الخلق بصطة . أي شدة بأس وقوة ومنحهم أجساماً لم تمنح لسواهم ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ما كان عليه قوم هود من البسطة في الخلق والجسم إذ ذكر عز وجل أنه لم يُخْلَقْ مثْلُهُمْ في البلاد ، وأنهم كالنخيل في عظم الأجسام حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَرَهَا

عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴿١﴾ . قال ابن جرير رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ * أوعجبتهم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بَصْطَةً فاذكروا ءالاء الله لعلكم تفلحون ﴿٢﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ أؤدي ذلك إليكم أيها القوم ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ يقول وأنا لكم في أمري إياكم بعبادة الله دون ما سواه من الأنداد والآلهة ، ودعائكم إلى تصديقي فيما جئتكم به من عند الله ناصحٌ فاقبلوا نصيحتي ، فإني أمين على وحي الله ، وعلى ما ائتمنتني الله عليه من الرسالة ، لا أكذب فيه ولا أزيد ولا أبذل بل أُبَلِّغُ ما أُمِرْتُ كما أُمِرْتُ ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ يقول : أوعجبتهم أن أنزل الله وحيه بتذكيركم وعظمتكم على ما أنتم عليه مقيمون من الضلالة على رجل منكم لينذركم بأس الله ويخوفكم عقابه ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ يقول : فاتقوا الله في أنفسكم واذكروا ما حل بقوم نوح من العذاب إذ عَصَوْا رُسُلَهُمْ ، وكفروا بربهم ، فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم ، لما أهلكهم أبادلكم منهم فيها ، فاتقوا الله أن يحل بكم نظير ما حل بهم من العقوبة ، فيهلككم ويبدل منكم غيركم ، سته في قوم نوح قبلكم على معصيتكم إياه وكفركم به ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ زاد في أجسامكم طولاً وعِظْماً على أجسام قوم نوح ، وفي قواكم على قواهم ، نعمة منه بذلك عليكم ، فاذكروا نعمه وفضله الذي فضلكم به عليهم في أجسامكم وقواكم ، واشكروا الله على ذلك بإخلاص العبادة له ، وترك الإشراك به ، وهجر الأوثان والأنداد ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ يقول : كي تفلحوا فتدركوا الخلود والبقاء في النعيم في الآخرة ، وتنجحوا في طلباتكم عنده اهـ . وقوله تبارك

وتعالى : ﴿ قالوا أجبنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ بيان لموقف قوم هود منه لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وما نصحهم به وحذرهم من أن يصيبهم ما أصاب المكذبين من قوم نوح قبلهم فكان جوابهم أن أنكروا على هود ﷺ مجيئه بدعوة توحيد الله عز وجل وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له ، والإعراض عن عبادة الأصنام والأوثان ، واستعجلوا ما توعدهم به من عذاب الله على كفرهم بالله وتكذيبهم لرسول الله ﷺ ، وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب إن كان من الصادقين فيما يقول ويتوعد ، وموقف كفار قوم هود شبيه بموقف كفار قريش من رسول الله ﷺ لما دعاهم إلى توحيد الله عز وجل وتوعدهم بالعذاب إن أصروا على تكذيبه ﷺ حيث أنكروا عليه دعوة التوحيد واستعجلوا العذاب كما قال عز وجل : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾ * أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قسطنا قبل يوم الحساب ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ، فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ أي قد حل بكم وقرب من ساحتكم عذاب من الله وسخط بسبب انقيادكم للشيطان الذي استولى على قلوبكم فضاقت بالحق وانشرحت للباطل كما قال عز وجل : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنها يصعد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ والتعبير بقوله ﴿ قد وقع ﴾ لتحقيق مجيئه ، كما قال عز وجل : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ ومعنى : ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ، فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ أي أتخاصمونني في هذه الأصنام التي

سميتموها أنتم وأبائكم آلهة وعبدتموها وهي لا تضر ولا تنفع وما جعل الله لكم على عبادتها برهاناً ولا حجة ولا دليلاً، فارتقبوا عذاب الله على كفركم به وتكذيبكم لرسوله ﷺ إني معكم من المرتقبين لما يقع عليكم من عقاب الله الذي ينصرنا به عليكم، وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي فخلّصنا هوداً والذين آمنوا معه من مكر كفار قومه ونصرناه عليهم وشملناه برحمتنا وإحساننا واستأصلنا المكذبين فلم يُبقِ منهم أحداً، لأنهم كذبوا بحججنا ولم يكونوا مصدقين بالله وبرسوله هود عليه السلام. وقد ذكر الله تبارك وتعالى في مواضع من كتابه الكريم أنه أهلك عاداً بالريح حيث يقول: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْهَرِيمِ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكْتُ عَادَ بِالذَّبُورِ.

قال تعالى : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ * واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ * قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ، قالوا إننا بما أرسل به مؤمنون ﴾ * قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ * فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴿ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى قصة هود عليه السلام مع قومه وأنه دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن قومه كذبوه وسَفَّهُوه ، وأن هودا عليه السلام شرح لهم دعوته بالحجة القاطعة فأصروا على ضلالهم وسفاهتهم ، واستعجلوا عذاب الله ، فانتصر الله عز وجل لهُودٍ والذين آمنوا معه وقطع دابر الكافرين . أتبع ذلك بذكر قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود ، وأنه دعاهم إلى عبادة الله وقد أيده الله عز وجل بمعجزة قاهرة ظاهرة وهي ناقة الله ، وطلب منهم أن يتركوها تأكل في أرض الله وأن لا يتعرضوا لها بأذى ، وحذرهم من أنهم إن تعرضوا لها بأذى أصابهم عذاب مؤلم ، وبهمهم إلى أنهم خلفاء لقوم هود الذين أهلكهم الله لما أصروا على تكذيبه ، وذكر صالح قومه بنعم الله عليهم وأمرهم بالإيمان بالله وبشكر نعمه وأن لا يفسدوا في الأرض ، فلم يسمعوا ولم يطيعوا ، وعقروا الناقة واستعجلوا عذاب

الله فأخذتهم الرجفة فأهلكتهم ، وخلّص الله عز وجل صالحا والذين آمنوا معه من شرهم ومكرهم ، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿وإِلَى ثَمُودَ أَخَاهِم صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾ وصالح عليه السلام هو ثاني رسول عربي بعد هود صلوات الله وسلامه عليهما بعثه الله في جزيرة العرب ، وقد أرسله الله عز وجل إلى قومه ثمود ، وكانوا يسكنون الحِجْر وهي الأرض المعروفة باسم ديار ثمود أو مدائن صالح وتقع على بُعد نحو ثمانين وثلثمائة «كيلو متر» شمال غرب من المدينة المنورة ، ويقع في جنوبها الآن مدينة العلا ، ولا يزال بعض آبارها ولاسيما البئر المعروفة ببئر الناقة باقية إلى الآن ، كما لا تزال آثار ثمود من البيوت والمقابر موجودة حتى الآن وبخاصة البيوت التي كانوا ينحتونها في الجبال . وقوله عز وجل : ﴿وإِلَى ثَمُودَ أَخَاهِم صَالِحًا﴾ أي ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا . ومعنى قوله عز وجل : ﴿قد جاءكم بينة من ربكم﴾ أي قد جاءكم حجة من الله وبرهان ظاهر بتأييدي من ربكم ، لتعريفكم بأني صادق فيما أبلغكم عن الله عز وجل وأدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله وحده وأني رسول الله إليكم ، والظاهر أن صالحا عليه السلام قد جاء قومه بحجج وبراهين وآيات فلم يؤمنوا بها كما قال عز وجل : ﴿ولقد كذب أصحابُ الحجر المرسلين * وأتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين﴾ وطلبوا منه آية معينة ليؤمنوا إذا جاءتهم وتحذّوه بذلك ، فحذرهم بأنهم إذا جاءتهم الآية التي يطلبونها ولم يؤمنوا فإنهم يأتيهم عذاب قريب ، كما قال عز وجل في سورة الشعراء : ﴿قالوا إنما أنت من المسحّرين * ما أنت إلا بشرٌ مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين﴾ فأيد الله عز وجل نبيه ورسوله صالحا ﷺ وأخرج لهم ناقة من الصخر وكانت آية مبصرة أي واضحة جلية ومعجزة

ظاهرة دالة على قدرة الله ووحدانيته في ألوهيته وربوبيته وأسمائه الحسنی وصفاته العلی، وكانت هذه الآية مشتملة على آيات، فهي قادرة على شرب جميع مياههم، لكن صالحا عليه السلام اتفق معهم على أنها تشرب يوما لا يشاركونها في الماء ويشربون يوما لا تشاركهم في الماء، ونهاهم صالح ﷺ أن يمسوها بسوء. وقوله تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾ بإضافة الناقة إلى الله مع ما فيها من تشريف الناقة فهي من إضافة الخلق إلى الخالق. أي هذه الناقة التي أخرجها لكم الله عز وجل من الصخر هي ناقة الله التي جعلها لكم آية قاهرة ومعجزة ظاهرة دالة على أن الله لا يعجزه شيء، فاتركوا هذه الناقة ترعى في أرض الله ولا تقربوها بأذى، إنكم إن مستتموها بسوء حل بكم عذاب موجه كما قال عز وجل في سورة هود: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب﴾ وقد حذر صالح ﷺ قومه من أن يتعرضوا للناقة بأذى في نفسها أو مطعمها، كما حذرهم من التعرض لسقياها حيث قال عز وجل: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادَ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا، فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ﴾ تحذير من صالح ﷺ لقومه من أن يصيبهم إن أصروا على تكذيبه عذابٌ مثل العذاب الذي أصاب قوم هود عليه السلام لما أصروا على تكذيبه، وهم على علم بما جرى لقوم هود وأن الله عز وجل قطع دابرهم، وتحريضهم على الإيمان بالله ورسوله وشكر نعم الله التي امتن عليهم بها حيث أنزلهم وبوأهم في الأرض منزلا يأمنون فيه، وقد يَسَّرَ لهم العيش الرغيد والمساكن المريحة التي يتمتعون في بعضها صيفا وفي بعضها في الشتاء حيث كانوا يتخذون من سهول الأرض قصورا وينحتون

الجبال بيوتا وقد امتلأت أرضهم بالجنان والبساتين والعيون والزروع والنخيل كما قال عز وجل: ﴿أَتَرْكُونَ فِيهَا هَهُنًا آمِنِينَ﴾ في جناتٍ وعيونٍ * وزروعٍ ونخلٍ طلعها هضيمٍ * وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * . وقد أكد صالح ﷺ على قومه أن يعرفوا نِعَمَ الله عليهم وأن يشكروه عليها وأن يلهجوا بالثناء على الله الذي تفضل عليهم بهذه الآلاء وحذَّرهـم أشد التحذير أن يَعْتَوُوا في الأرض مفسدين ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿قال الملأ الذي استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسلٌ من ربه قالوا إنا بما أُرْسِلَ به مؤمنون﴾ قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون * . قال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله : ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ قال الجماعة الذين استكبروا من قوم صالح عن اتِّباع صالح والإيمان بالله وبه * للذين استضعفوا * يعني : لأهل المسكنة من تَبَاع صالح والمؤمنين به منهم دون ذَوِي شَرَفِهِم وأهل السؤدد منهم * أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه * أرسله الله إلينا وإليكم ، قال الذين آمنوا بصالح من المستضعفين منهم : إنا بما أرسل الله به صالحا من الحق والهدى مؤمنون . يقول : مصدقون مُقِرُّون أنه من عند الله ، وأن الله أَمَرَ به ، وعن أمر الله دعانا صالح * قال الذين استكبروا * عن أمر الله وأمر رسوله صالح * ﴿إِنَّا﴾ أيها القوم * بالذي آمنتم به * يقول : صَدَقْتُمْ به من نبوة صالح ، وأن الذي جاء به حق من عند الله * كافرون * يقول : جاحدون منكرون لا نُصَدِّق به ولا نُقَرُّ اهـ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَعَقَرُوا الناقةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * أي فَقَطَعُوا قوائم الناقة حتى سقطت على الأرض ونحروها ، وتكبروا وتَجَبَّرُوا عن اتِّباع صالح ﷺ واستَعْلَوْا عن الحق ، وقالوا يا صالح : هات ما تعدنا من

عذاب الله ونقمته إن كان الله قد أرسلك إلينا ، استعجالا للعذاب تهكما منهم وجهلا ، فسلط الله عز وجل عليهم صيحة زعزعتهم وحركتهم حتى سقطوا صرعى منكفئين على ركبهم ميتين لا حراك بهم . وقد ذكر الله تبارك وتعالى أنهم لما استعجلوا العذاب قال لهم صالح عليه السلام : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ، وقد أصر تسعة رهط من المفسدين في الأرض على قتل صالح وإلحاقه بالناقة ، وتقاسموا بالله لُنَيْتَنَّهُ وأهله أي لنكبستنه في داره بالليل مع أهله فلنقتلنه ولنجحدن قتله فلنقولن لأولياء دمه من المشركين : ما شهدنا مهلكه ولا مهلك أهله وإنا لصادقون ، ودَبَرُوا ودَبَّرَ الله ، فنجاه ومن معه من المؤمنين وأرسل الله عز وجل عليهم الصيحة من فوقهم ورجفة من تحتهم كما قال عز وجل : ﴿ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ﴾ * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دَمَرْنَاهُمْ وقومهم أجمعين ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز ﴾ * وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائمين ﴾ * كأن لم يَغْنَوْا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بُعْدًا لثمود ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴾ * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابي ونذر ﴾ * إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿كذبت ثمود بطغواها ﴾ * إذ انبعث أشقاها ﴾ * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ﴾ * فكذبوه فعقروها ﴾ * فدمدَمَ عليهم ربهم بذنبهم فسواها ﴾ * ولا يخاف عقباها ﴿ . وفي إسناد عقر الناقة إليهم مع أن الذي عقرها هو أشقى ثمود وحده لأنهم جميعا راضون بعقورها ، وهم الذين دعوه إلى عقورها كما قال عز وجل : ﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴿ وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن زمعة قال : خطب

رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال : ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾
انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة . وقوله تبارك وتعالى :
﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا
تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ هذا إخبار من الله عز وجل عن خروج صالح من بين
قومه الذين عَتَوْا عن أمر ربهم حين أراد الله إحلال العقوبة بهم وإرسال
العذاب عليهم وقال لهم صالح عليه السلام : لقد أديت لكم ما أمرني الله
بأدائه إليكم من الرسالة ، وبذلت لكم النصيحة في تحذيركم من سوء ما
يصيبكم إن أصررتم على الكفر بالله وتكذيب رسوله ، ولكنكم لا تحبون
الناصحين لكم في الله ، الناهين لكم عن اتباع أهوائكم وشهوات أنفسكم
التي تشقيكم في الدنيا والآخرة . هذا وقد روى البخاري ومسلم من حديث
ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما مرَّ رسول الله ﷺ بالحجر قال : لا تدخلوا
مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين ، ثم
قَنَّعَ رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي . كما روى البخاري ومسلم واللفظ
لمسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ
على الحِجْرِ أرض ثمود فاستَقَوْا من آبارها وَعَجَنُوا به العجين فأمرهم رسولُ
الله ﷺ أن يُهْرِيقُوا ما استَقَوْا ، ويعلفوا الإبل العجين ، وأمرهم أن يستقوا من
البئر التي كانت تَرُدُّها الناقة . هذا ولا ذكر لعاد وثمود في الكتب التي بيد
اليهود والنصارى من كتب العهد القديم أو الجديد مما يُشعر بأن اليهود قد
حَرَصُوا على إزالة كل ذكر للنبوَّة في الأمة العربية حسدا للعرب ، وكراهية أن
تكون النبوَّة في غير بني إسرائيل ، وقد ورد في القرآن العظيم ما يقرر أن موسى
ﷺ قد حذر بني إسرائيل من أن يحل بهم ما حل بقوم هود وقوم صالح حيث
يقول عز وجل : ﴿أَلَمْ يَأْتَكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾
الآية .

قال تعالى : ﴿ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم مسرفون * وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون * فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴿ .

بعد أن ذكر عز وجل قصة صالح عليه السلام وأنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن الله عز وجل أيده بمعجزة ظاهرة وآية مبصرة حيث أخرج لهم من الصخر ناقة ، وقد حذرهم صالح عليه السلام من أن يمسوها بسوء وأنهم إن تعرضوا لها بأذى أصابهم عذاب أليم ، وذكّرهم بنعم الله عليهم إذ جعلهم خلفاء من بعد عاد وبوأهم في الأرض يتخذون من سهولها قصورا وينحتون الجبال بيوتا ونهاهم أن يعثوا في الأرض مفسدين ، وأن المستكبرين في الأرض من رؤسائهم حاولوا فتنة المستضعفين من المؤمنين ، وأن هؤلاء المستضعفين من المؤمنين أعلنوا أنهم مؤمنون بالله ومصدقون برسوله صالح عليه السلام وأن الذين استكبروا عتوا عن أمر ربهم وعقروا الناقة واستعجلوا العذاب فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين وأن الله تبارك وتعالى خلّص صالحا والمؤمنين من شرورهم وردّ كيدهم إلى نحورهم ، أتبع ذلك بذكر قصة لوط عليه السلام ، حيث يقول عز وجل : ﴿ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ وقولُه عز وجل : ﴿ولوطا﴾ أي ولقد أرسلنا لوطا ، وقد كان لوط عليه السلام من أهل بابل المعروفة ببلاد الكلدانيين ، وقد آمن لإبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى فلسطين ، وقد بعثه الله عز وجل إلى أهل سدوم وما حولها من دائرة الأردن وكانوا من أكفر

خلق الله وأفجرهم ، ولم يكن لهم اسم معروف يجمعهم كعاد وثمرود ومدين ولذلك جاء التعبير البلاغي بقوله : ﴿ولوطا﴾ مغaira للتعبير في قصة هود وصالح وشعيب حيث قال : ﴿وإلى عاد أخاهم هودا﴾ وقال : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا﴾ وقال : ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا﴾ .

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن لوطا عليه السلام بدأ قومه بدعوتهم إلى توحيد الله وتقواه حيث يقول : ﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾ * إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين * أتأتون الذكران من العالمين﴾ والمراد من الأخوة في قوله تعالى : ﴿إذ قال لهم أخوهم لوط﴾ هي الخلطة والمصاحبة لا أخوة الدين أو النسب أو السلوك . وقد كانت رسل الله صلى الله عليه وسلم يبدءون قومهم بعد دعوتهم إلى توحيد الله بنهيهم عن أكبر جرائمهم كما ظهر في دعوة لوط عليه السلام وكما فعل شعيب عليه السلام حيث بدأ بتحذير قومه من بخس الكيل والميزان ، ولذلك قال لوط عليه السلام لقومه : ﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي أتفعلون تلك الفعل المتناهية في القبح وترتكبون هذه الجريمة البشعة التي ابتدعتها في الفجور ، لم يسبقكم إليها أحد من العالمين ، لنفرة الطباع منها ، والاشمئزاز من مقارفتها ، مع ما فيها من محاربة الفطرة ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع والإنكار . وجملة : ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ مستأنفة لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع . وقوله : ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ زيادة في تأكيد الإنكار والتوبيخ والتقريع ، وقد أكد بأن واللام واسمية الجملة ، والمقصود منه بيان تلك الفاحشة الفظيعة ، والتنفير منها بأقوى أدوات التنفير ، أي إنكم لئنزؤ ذكوركم على ذكوركم لانقلاب

فَطَرِكُمْ حَتَّى ارْتَكَبْتُمْ الطَّامَةَ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَاشْتَهَيْتُمْ الرِّجْسَ النَّجِسَ بِمُقَارَفَةِ الذُّكُورِ وَتَرَكْتُمْ السَّبِيلَ السَّوِيَّ مِنْ شَهْوَةِ النِّسَاءِ ، وَشَذَذْتُمْ فِي شَهْوَتِكُمْ عَنِ الْعَالَمِينَ . وَقَدْ أَطْبَقَتْ أُمُّ الْأَرْضِ عَلَى اسْتِنْكَارِ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ وَنَفَرَتْ مِنْهَا الْبَهَائِمُ وَسَائِرُ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجَمَاوَاتِ إِلَّا الْخَنَزِيرَ وَالْحِمَارَ ، وَلِذَلِكَ جَعَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَقُوبَةَ قَوْمِ لُوطَ أَنْ تَنْقَلِبَ الْأَرْضُ بِهِمْ كَمَا انْقَلَبَتْ فَطَرَتِهِمْ وَأَنْ يَجْعَلَ عَالِيهَا سَافِلَهَا ثُمَّ يُمَطِّرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ . لِأَنَّهُمْ أَسْرَفُوا فِي جَرِيمَتِهِمْ وَتَجَاوَزُوا كُلَّ حَدٍّ . قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَكَانَ عَذَابُ كُلِّ أُمَّةٍ بِحَسَبِ ذُنُوبِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ ، فَعَذِبَ قَوْمَ عَادَ بِالرِّيحِ الشَّدِيدَةِ الْعَاتِيَةِ الَّتِي لَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ ، وَعَذِبَ قَوْمَ لُوطَ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَعَذِبْ بِهَا أُمَّةٌ غَيْرُهُمْ ، فَجَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ الْهَلَاكِ وَالرَّجْمِ بِالْحِجَارَةِ مِنَ السَّمَاءِ وَطَمَسَ الْأَبْصَارَ ، وَقَلَبَ دِيَارَهُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنْ جَعَلَ عَالِيهَا سَافِلَهَا ، وَالْخَسْفَ بِهِمْ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ ، وَعَذِبَ قَوْمَ شَعِيبَ بِالنَّارِ الَّتِي أَحْرَقَتْهُمْ وَأَحْرَقَتْ تِلْكَ الْأَمْوَالَ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا بِالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ أَهـ . وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ بَيَانٌ لْجَوَابِ قَوْمِ لُوطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّهُمْ لَمْ يَقَابِلُوا دَعْوَتَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّتِي دَعَاهُمْ فِيهَا لِسَعَادَتِهِمْ وَنَجَاتِهِمْ وَمَا نَصَحَهُمْ بِهِ بِجَوَابٍ مِنَ الْأَجُوبَةِ إِلَّا قَوْلَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ : أَخْرِجُوا لُوطًا وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْ إِلَّا هَذَا الْكَلَامَ الَّذِي يَسْتَحِيلُ فِي نَظَرِ ذَوِي الْفِطْرِ الْمُسْتَقِيمَةِ أَنْ يَكُونَ جَوَابًا لْكَلَامِ لُوطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَدًّا عَلَى مَا وَجَّهَهُ لَهُمْ مِنَ النَّصِيحِ وَالْإِشْرَادِ وَسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ عَنْهُمْ جَوَابٌ عَنْ مَقَالَاتِ لُوطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَوَاعِظِهِ إِلَّا هَذِهِ الْمَقَالَةُ الْبَاطِلَةُ كَمَا هُوَ الْمَتَسَارِعُ إِلَى الْأَفْهَامِ بَلِ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ عَنْهُمْ فِي الْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ مَرَاتِ الْمَحَاوِرَاتِ الْجَارِيَةِ بَيْنَهُمْ

وبين لوط عليه السلام إلا هذه الكلمة الشنيعة ، وإلا فقد صدر عنهم قبل ذلك كثير من الترهات حسبما حكى عنهم في سائر السور الكريمة ، وهذا هو الوجه في نظائره الواردة بطريق القصر كما قال أبو السعود العمادي في تفسيره . وقوله عز وجل : ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ تشييع على قوم لوط بأنهم عابوا لوطا ومن معه من المؤمنين بغير عيب ، وجعلوا علة الأمر بإخراج لوط والمؤمنين من قريتهم هو تنزههم وتطهرهم من الفواحش والخبائث ، وافتخروا بما هم فيه من القذارة ، وهكذا حال من انقلبت فطرهم «كالشيوخ» في عصرنا الحاضر ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ * وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴿﴾ بيان لنجاة المؤمنين وهلاك الكافرين . ومعنى قوله : ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي كانت من الهالكين ، ومعنى : ﴿وَأَمَطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي وأرسلنا عليهم حاصبا وأسقطنا عليهم حجارة من سجيل . وقد بين الله تبارك وتعالى في مواضع من كتابه الكريم كيفية إنجاء لوط ومن آمن معه من أهله وكيفية إهلاك الذين كذبوه حيث يقول عز وجل في سورة هود : ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي «يَعْنِي زَوْجَاتِكُمْ» هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ «أَي مِنْ رَغْبَةٍ وَشَهْوَةٍ» وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْنَا إِلَيْكَ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمَطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مُنْضُودٍ * مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ وقال في

سورة الحجر: ﴿فلما جاء آل لوط المرسلون * قال إنكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وأتيناك بالحق وإنا لصادقون * فأسر بأهلك بقطع من الليل واتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين * وجاء أهل المدينة يستبشرون * قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تحزون * قالوا أولم ننهك عن العالمين * قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين * لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون * فأخذتهم الصيحة مشرقين * فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل * إن في ذلك لآيات للمتوسمين * وإنها لبسبيل مقيم * إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ . وقال في سورة الأنبياء: ﴿ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين * وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين﴾ وقال في سورة الشعراء: ﴿كذبت قوم لوط المرسلين * إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين * أتأتون الذكران من العالمين * وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون * قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين * قال إني لعملكم من القالين * رب نجني وأهلي مما يعملون * فنجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزا في الغابرين * ثم دمرنا الآخرين * وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾ . وقال في سورة النمل: ﴿ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون * أننكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون * فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون * فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين﴾ وقال تعالى في سورة

العنكبوت : ﴿ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ * أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين * قال رب انصرني على القوم المفسدين * ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين * قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيَّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين * ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا مُنْجُوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون * ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴿ . وقال تعالى في سورة الصافات : ﴿وإن لوطا لمن المرسلين ﴾ * إذ نجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزا في الغابرين * ثم دمرنا الآخرين * وإنكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴿ وقال في سورة النجم : ﴿والمؤتفة أهوى فغشاها ما غشى ﴿ وقال في سورة القمر : ﴿كذبت قوم لوط بالنذر ﴾ * إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر * نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر ﴿ الآيات . هذا ومن غرائب الأمور إطلاق لفظ لوطي على من يأتي الذكران وقد شاعت هذه اللفظة واستعملها العلماء والعوام ، وهو إطلاق غير صحيح فلا يجوز أن تنسب هذه الجريمة إلى لوط عليه السلام فيقال لمرتكبها لوطي ، كما لا يجوز أن يقال في أبي جهل وأبي لهب إنهما محمديان ، ولا سبيل لصحة هذا الإطلاق بحال ، ولم يرد خبر صحيح عن رسول الله ﷺ في تسمية أهل هذه الجريمة لوطيين بل الآثار الواردة تقول : من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط الخ .

قال تعالى : ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين .

بعد أن ذكر الله عز وجل قصة لوط مع قومه ، وما أوقعه بالمكذبين به من أنواع العذاب ، شرع هنا في ذكر قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، وكانوا يسكنون الأرض المعروفة باسمهم قرب معان من أطراف الشام مما يلي أرض الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط المعروفة باسم البحر الميت على طريق يسلكه العرب في أسفارهم إلى الشام ، كما أنها على طريق يسلكه المسافرون بين مصر والشام والحجاز بالقرب من خليج العقبة ، والظاهر أنهم كانوا بعد هلاك قوم لوط بزمان غير بعيد كما أن أرضهم غير بعيدة من قرى قوم لوط عليه السلام ، كما يرشد إلى ذلك قوله عز وجل فيما قال شعيب لقومه : ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ كما قرن عز وجل قصته وذكره بقصة لوط وذكره في سورة الأعراف هنا وفي سورة هود وفي سورة الشعراء وفي سورة العنكبوت وفي سورة الحجر وفي سورة التوبة وفي سورة ق ، وقد وُصف شعيب عليه السلام بأنه خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكان قومه أهل مدين كفارا وكانوا يقطعون السبيل ويخيفون المارة ، وكانوا يعبدون مع الله آلهة أخرى منها الأيكة وهي شجرة أو غيضة تنبت السدر والأراك كما كانوا من أسوأ الناس معاملة وتعديا على الأموال ، يطففون في المكيال والميزان ويبخسون الناس أشياءهم

ويفسدون في الأرض بعد إصلاحها، وقد ساءهم الله عز وجل مدين باسم قبيلتهم كما وصفهم بأنهم أصحاب الأيكة . وقد توهم بعض الناس فزعم أن شعيبا أرسل إلى أُمَّتَيْنِ هما مدين وأصحاب الأيكة وهذا قول مردود وفهم غير سديد، فإن مدين هم أصحاب الأيكة، وإنما قال عز وجل: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا﴾ وقال في أصحاب الأيكة: ﴿إذ قال لهم شعيب﴾ ولم يقل: أخوهم، لأنه لما ذكر مدين وشعيب في نسبها - قال: ﴿أخوهم﴾ ولكنه لما ذكر أصحاب الأيكة وشعيب غير مشارك لهم في أيكتهم قال: ﴿إذ قال لهم شعيب﴾ ولم يقل أخوهم، وَهُمْ هُمْ، وهي إشارة بلاغية، وجملة الأوصاف التي وصف الله عز وجل بها أصحاب الأيكة هي جملة الأوصاف التي وصف الله بها أهل مدين . وفي قوله عز وجل: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا﴾ أي ولقد أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا، وقوله عز وجل: ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءكم بينة من ربكم﴾ تنبيه على تأكيد أن أهم وظائف الأنبياء والمرسلين هي الدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده، وأن الله عز وجل يؤيد رسله بالبينات التي يؤمن على مثلها البشر، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ ولا تقعدوا بكل صراط تُوعِدُونَ وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ تنبيه على أهم الوصايا التي وصَّى بها شعيب ﷺ قومه بعد دعوتهم إلى التوحيد، ومعنى قوله عز وجل: ﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾ أي أتموا للناس بالكيل الذي تكيلون به وبالوزن الذي تزنون به، ولا تنقصوا المكيال والميزان، ولا تكونوا من المطففين ﴿الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون﴾ وإذا كألوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ . وفي تقديم شعيب عليه السلام الوصية بإيفاء الكيل

والميزان على بقية وصاياه بعد توصيتهم بتوحيد الله عز وجل تنبيه للناس ليحترزوا من هذه الجريمة النكراء ولذلك قال عز وجل : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ثم وصاهم أن لا يبخسوا الناس أشياءهم ، وأن يتركوا الإفساد في الأرض ، وأن لا يقطعوا الطريق ، وأن لا يصدُّوا عن سبيل الله ، وأن يذكروا نعمة الله عليهم بتنميتهم وتكثيرهم ، وأن يعتبروا بما حل بالمكذبين قبلهم من قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط وهم يعلمون ما حل بهم ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم منها شيئاً ولا تخونوهم فيها وتأخذوها على وجه البخس وهو الظلم والنقص ، ويشمل ذلك تحريم الغصب والسرقة والرشوة والاستيلاء على حق الغير بطريق الحيل والمخادعة كتعيب السلع والتزهد فيها ظلماً ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي ولا تعملوا في أرض الله بمعاصيه وقد بيّن الله تبارك وتعالى لكم ما أحل وما حرّم حيث بعث لكم رسولاً منكم يرشدكم إلى الصراط المستقيم الذي يحفظ لكل ذي حق حقه ، فلا تجوروا عن هذا الصراط ، ولا تعدلوا عن شريعة الله فإن العدول عن شريعة الله يُظهِرُ الفساد في الأرض ، وقوله عز وجل : ﴿ذُلُّكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ . قال ابن جرير رحمه الله : ﴿ذُلُّكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يقول : هذا الذي ذكرت لكم ، وأمرتكم به ، من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وإيفاء الناس حقوقهم من الكيل والوزن ، وترك الفساد في الأرض ، خير لكم في عاجل دنياكم وأجل آخرتكم عند الله يوم القيامة ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يقول : إن كنتم مُصَدِّقِيَّ فيما أقول لكم ، وَأُوَدِّي إليكم عن الله من أمره ونهيه اهـ . ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ

سبيل الله من آمن به وَتَبَغُّوْنَهَا عِوَجًا واذكروا إذ كنتم قليلاً فَكَثَرْتُكُمْ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴿١﴾ أي ولا تجلسوا على الطرقات لتهديد المارة وتخويفهم وترويعهم وللصد عن سبيل الله بالبطش بالمؤمنين الذين صدقوا شعيباً عليه السلام ، وأنتم تحاولون الاعوجاج والعدول عن القصد وترغبون في النهج المعوج وتكرهون الصراط المستقيم . قال ابن جرير رحمه الله وقوله : ﴿٢﴾ واذكروا إذ كنتم قليلاً فَكَثَرْتُكُمْ ﴿٣﴾ يُذَكِّرُهُمْ شعيب نعمة الله عندهم بأن كثر جماعتهم بعد أن كانوا قليلاً عددهم ، وأن رفعهم من الذلة والخساسة يقول لهم : فاشكروا الله الذي أنعم عليكم بذلك ، وأخلصوا له العبادة ، واتقوا عقوبته بالطاعة واحذروا نقمته بترك المعصية ﴿٤﴾ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴿٥﴾ . يقول : وانظروا ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم حين عَتَوْا على ربهم وعصوا رسله من المثلات والنقمات ، وكيف وجدوا عقبى عصيانهم إياه ؟ ألم يهلك بعضهم غَرَقًا بالطوفان ، وبعضهم رجماً بالحجارة وبعضهم بالصيحة ؟ والإفساد في هذا الموضع معناه : معصية الله اهـ . وقوله عز وجل : ﴿٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٧﴾ وعد ووعيد وترغيب وترهيب وبيان لما ألقى الله عز وجل في قلب شعيب عليه السلام من الثقة في انتصار الله عز وجل للمؤمنين وإنزال عقوبته بأعدائه الكافرين ، وتسلية للمؤمنين وتثبيت لأفئدتهم . ومعنى قوله عز وجل : ﴿٨﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٩﴾ أي وإن كان فريق منكم يا أهل مدين قد صدقوني وآمنوا بما أُرسلني الله عز وجل به ، وفريق منكم قد كفر بي ولم يصدقني فيما أُرسلني الله عز وجل به فانظروا حتى يفصل الله بين الفريقين فيعز أوليائه ويذل أعداءه وهو خير الفاصلين . قال ابن جرير رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿١٠﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ

منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴿١﴾ قال أبوجعفر: يعني بقوله تعالى ذكره: ﴿وإن كان طائفة منكم﴾ وإن كانت جماعة منكم وفرقة ﴿آمنوا﴾ يقول: صدّقوا بالذي أرسلت به من إخلاص العبادة لله، وترك معاصيه وظلم الناس، وبخسهم في المكايل والموازين فاتّبِعُونِي على ذلك، ﴿وطائفة لم يؤمنوا﴾ يقول: وجماعة أخرى لم يصدقوا بذلك ولم يتبعوني عليه ﴿فاصبروا حتى يحكم الله بيننا﴾ يقول: فاحتبسوا على قضاء الله الفاصل بيننا وبينكم ﴿وهو خير الحاكمين﴾ يقول: والله خير من يفصل، وأعدّل من يقضي، لأنه لا يقع في حكمه مِثْلٌ إلى أحدٍ، ولا محاباةٌ لأحدٍ اهـ. وقد ذكر الله تبارك وتعالى في مقامات من كتابه الكريم أن شعبيّاً عليه السلام بيّن لقومه أنه لا يسألهم على تبليغ الرسالة أجراً، ولا يطلب منهم عن نصيحته لهم عوضاً، وأن قومه سخروا منه، واستهزءوا به وبصلاته، وقالوا: «إنما أنت من المسحurin . وما أنت إلا بشر مثلنا»، تماماً كما قال الكفار لرسول الله محمد ﷺ ولإخوانه الأنبياء من قبله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد قالوا له: يا شعيب أصلاتك تأمرك أن ندع عبادة الأوثان والأصنام التي عبدها آبائنا من قبل مجيئك لنا ودعوتك إيانا؟ وهل صلاتك تُقَيِّدُ حريتنا في التصرف في أموالنا كيف نشاء من نهب أو سلب أو غصب أو رشوة أو تطفيف الكيل والميزان، كنا قبل دعوتك نظنك حليماً رشيداً، وقد جهل هؤلاء أن رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم قد اتفقت دعوتهم على وجوب صيانة النفس والمال والعرض والعقل مع المحافظة على دين الله وتحليل ما أحل وتحريم ما حرّم وأنه لا يحل لأحد أن يأخذ من مال غيره شيئاً من غير طريق مشروع، وقد أجابهم شعيب عليه السلام بأن الله تفضل عليه وهده إلى هذا الدين الذي يسلك بهم صراط الله المستقيم، وأن هذا رزق حسن تفضل الله به على عباده، وأنه مستمسك بهذا

الدين وأنه لن يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه ، ولا يريد لهم إلا الخير والإصلاح ما استطاع ، وأن التوفيق بيد الله وحده عليه يتوكل وإليه ينيب ، ومع بيانه الواضح ودعوته المشرقة وفصاحة عبارته قالوا له : يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ، ولا شك أن في هذا القصص من أخبار شعيب عليه السلام مع قومه تثبيتا لفؤاد رسول الله ﷺ ومواساة للمؤمنين ، وتطيبا لخواطبرهم على ما يلاقونه من أذى من المشركين ، ليستقر في نفوسهم أن نصر الله قريب ، وأن العاقبة الحسنى للمؤمنين وأن دائرة السوء على الكافرين .

قال تعالى : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا ، قال أو لو كنا كارهين * قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علما ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين * وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين * فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أنه أرسل شعيبا عليه السلام إلى قومه مدين ، وأنه أمرهم بإخلاص العبادة لله وحده ، وأن الله عز وجل أيدته بالبينات التي يؤمن على مثلها البشر ، وأنه ﷺ أمرهم بإيفاء الكيل والميزان ، ونهاهم أن يبخسوا الناس أشياءهم ، ونهاهم عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها ، ونهاهم عن قطع الطريق وإخافة المارة ، كما نهاهم عن الصد عن سبيل الله ، وعن حرصهم على سلوك الطريق المَعْوَجِّ والمنهج غير الرشيد ، وذَكَرَهُم بنعم الله عليهم ، وخوفهم أن يصيبهم ما أصاب المكذبين بالرسل قبلهم كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح ، وما قوم لوط منهم ببعيد ، وتوعدهم بأن الله سَيَفْصِلُ بين الفريقين فينصر أوليائه ويُهْلِكَ أعداءه . شرع في بيان جواب قوم شعيب له ، وأن رؤساء قومه المستكبرين تطاولوا عليه وعلى من معه من المؤمنين بعد أن سمعوا هذه المواعظ القيمة ، والنصائح البينة وتوعدوهم بالنفي والإبعاد من أرضهم أو الإكراه على الدخول في ملتهم ومشاركتهم فيما هم عليه من الكفر والفسوق والعصيان ، وأن شعيبا عليه السلام بيَّن لهم أنَّ من دخل في

ملتهم فقد أعظم القرية على الله عز وجل ، وأنه ومن آمن معه قد توكلوا على الله الذي يحميهم من شر أعدائهم غير أن هؤلاء الكافرين المكذبين أصرّوا على كفرهم وتكذيبهم فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، ونجّى الله شعبيًا ومن معه من المؤمنين . وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ﴾ أي لَنَنْفِثَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَدِينَتِنَا وَأَرْضِنَا ، وهكذا لم يأت نبيُّ قومه بالرسالة إلا عادوه وهددوه بالإخراج من بلده ، ولذلك قال ورقة بن نوفل لما أخبره رسول الله ﷺ بما جاءه من الوحي في غار حراء : هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعًا ، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : أَوْخَرَجِيْ هُمْ ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُوْدِي . كما رواه البخاري . والمراد بالقرية هنا المدينة كما قال عز وجل في مكة : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلُكُنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ والمراد بالعود في قوله عز وجل : ﴿ أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ الصيرورة أي لتصيرن في ملتنا ، والعرب يستعملون عاد بمعنى رجع إلى ما كان عليه ، وبمعنى : استمر ومنه قوله عز وجل : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي وإن يستمروا على كفرهم ، وتأتي عاد بمعنى صار كالذي في هذا المقام ، قال ابن منظور في لسان العرب : تقول : عاد الشيء يعود عَوْدًا وَمَعَادًا إِذَا رَجَعَ وَقَدْ يَرِدُ بِمَعْنَى : صَارَ ، ومنه حديث معاذ : قال له النبي ﷺ : أَعُدَّتْ فِتْنَانَا يَا مَعَاذَ أَيِ صِرْتٍ ، ومنه حديث خزيمة ، عَادَ لَهَا النَّقَادُ مُجْرَثِمًا أَيِ صَارَ . اهـ

وهكذا كانت كل أمة تهدد رسولها وتتوعده بالنفي من أرضهم أو الصيرورة في ملتهم كما قال عز وجل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ أي أخرجوننا من قريبتكم وتصدوننا عن سبيل الله ونجبروننا على الدخول في دينكم ولو كنا كارهين لذلك . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عَدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ أي قد أعظمنا الفرية على الله واختلقنا عليه الكذب إن صرنا إلى ملتكم ودخلنا في دينكم ، لأن دينكم مبني على إقرار الشرك بالله واتخاذ الأنداد والأوثان من دونه ، وذلك أقبح الكذب وأعظم الظلم والافتراء على الله ، الذي له ما في السموات وما في الأرض وهو رب كل شيء وسيد ومليكه ، وقد خلصنا الله تبارك وتعالى من الشرك به ، فلن نشرك بربنا أحدا . وقوله عز وجل : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ أي وما ينبغي لنا ولا يتأتى منا أن نصير إلى دينكم وندخل في ملتكم ، ولا حول ولا قوة لنا إلا بالله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فإنه إن كان قضى على أحد من أهل ديننا أن يصير إلى دينكم ويرتد عن الدين الحق فإن مشيئة الله نافذة ، ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ومشيئته الكونية القدريّة ، وهو ربنا الذي بيده نواصينا وهو مالك أمورنا ومدبر شئوننا ومصلح أحوالنا ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ تبيّس لكفار قوم شعيب عليه السلام من دخول شعيب ومن معه من المؤمنين في ملتهم وصيرورتهم إلى دينهم ، وبيان بأن شعيبا ومن معه من المؤمنين قد استسلموا لله الذي أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ، واعتمدوا عليه عز وجل في تشيبتهم على الدين الحق الذي بعث الله به

شعبيًا عليه السلام ، وأعلنوا ضراعتهم إلى الله عز وجل أن يفصل بينهم وبين أعدائهم وأن يقضي بينهم بالحق وأن ينصر رسوله ﷺ ومن معه من المؤمنين ، فإنه عز وجل خير الفاصلين وأحكم الحاكمين . وقوله عز وجل : ﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعبيًا إنكم إذا لخاسرون ﴾ بيان بأن كفار قوم شعيب قد أصروا على كفرهم وعنادهم وتكذيبهم والصد عن سبيل الله ، وتنفير الناس من الدخول في دين شعيب عليه السلام . قال ابن جرير رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعبيًا إنكم إذا لخاسرون ﴾ قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره : وقالت الجماعة من كفرة رجال قوم شعيب — وهم الملأ — الذين جحدوا آيات الله ، وكذبوا رسوله ، وتمادوا في غيهم لآخرين منهم : لئن اتبعتم شعبيًا على ما يقول ، وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه من توحيد الله ، والانتهاه إلى أمره ونهيه ، وأقررتهم بنبوته ﴿ إنكم إذا لخاسرون ﴾ يقول : لمغبونون في فعلكم ، وترككم ملتكم التي أنتم عليها مقيمون ، إلى دينه الذي يدعوكم إليه ، وهالكون بذلك من فعلكم . اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ الذين كذبوا شعبيًا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعبيًا كانوا هم الخاسرين ﴿ بيان لما أصابهم بعد إصرارهم على تكذيب شعيب عليه السلام وبعد أن بلغوا أقصى غايات الضلال والإضلال ، وأن الله تبارك وتعالى قد سلط عليهم عقوبة زلزلتهم زلزالا شديدا من تحتهم ، وسحابة عذاب أظلمتهم من فوقهم ، وصيحة لم تبق منهم باقية فصاروا في أرضهم التي هددوا شعبيًا وصحبه بإخراجهم منها أجساما ملقاة في الأرض كالرماد الجاثم . واستؤصلوا وقُطِع دابرهم ، وخسروا الدنيا والآخرة ، وفاز شعيب ومن آمن معه ، ولم يلحقهم خسرانٌ ومعنى : ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أي كأنهم لم يقيموا بهذه الأرض ولم ينزلوا فيها ، كما قال الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والحدود العوائر
والعرب يسمون المنزل الأنيس مَغْنَى ، كما قال الشاعر:
ولقد غَنَوْنَا فيها بأنعم عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد
وكما قال رؤبة :

هاجت ومثلي نَوَّلُهُ أَنْ يَرْبَعَا حمامةٌ هاجت حمامًا سُجَّعَا
أبكت أبا الشعثاء والسَّمِيدَعَا وعَهْدُ مَغْنَى دِمْنَةٍ بَضْلَفَعَا
بادت وأمسى خَيْمُهَا تَدْعُدَعَا

وقد وصف الله تبارك وتعالى كيفية إهلاك الذين كذبوا شعيبا ، فقال هنا :
﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ . وقال تعالى في سورة هود :
﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجِينَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلَا بُعْدًا لِّلَّذِينَ كَمَا
بَعْدَتْ ثُمُودُ ﴾ وقال في سورة الشعراء في قصة شعيب مع قومه : ﴿ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ يَوْمَ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وقال في سورة
العنكبوت : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ
الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي
دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ وفي قوله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ
الْخَاسِرِينَ ﴾ بتكرير قوله : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا ﴾ لبيان علة ابتلائهم بعقوبة
قولهم للمؤمنين : ﴿ لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون ﴾ ولتعظيم المذلة لهم
وتفظيع ما يستحق هؤلاء المكذبون من العذاب على جهلهم وافتراءهم ،
ولتحذير كفار قريش من مغبة استمرارهم في تكذيب رسول الله محمد ﷺ .
ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ فتولى عنهم ﴾ وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات
ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ قال ابن جرير رحمه الله :

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فأدبر شعيب عنهم، شاخصاً من بين أظهرهم حين أتاهم عذاب الله، وقال لما أيقن بنزول نقمة الله بقومه الذين كذبوه حُزناً عليهم: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالاتي ربّي﴾ وأدبْتُ إليكم ما بعثني به إليكم من تحذيركم غَضَبُهُ على إقامتكم على الكفر به، وظلم الناس أشياءهم ﴿ونصحت لكم﴾ بأمري إياكم بطاعة الله ونهيكم عن معصيته، ﴿فكيف آسى﴾ يقول: فكيف أحزن على قوم جَحَدُوا وحدانية الله، وكذَّبوا رسوله، وأتوجع لهلاكهم؟! اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾ أي إنهم لا يستحقون أن يُحزَنَ عليهم لأنهم هم الذين أهلكوا أنفسهم بسبب إصرارهم على الكفر بربهم وتكذيب رسولهم.

قال تعالى : ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ﴾ * ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ * ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ * أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾ * أفأمنوا مكر الله ، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ * أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ * تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوبهم الكافرين ﴾ * وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ .

بعد أن ذكر تبارك وتعالى قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام تبييناً لفؤاد رسول الله ﷺ وطُمَأْنِينَةً لأصحابه رضي الله عنهم ومواساةً لهم على ما يلاقونه من أذى كفار قريش لهم ليستقر في نفوسهم أن نصر الله قريب من المؤمنين ، وأن وعد الله حق ، كما قال عز وجل : ﴿إنا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ وفي ذلك كله تحذير لكفار قريش ومن تبعهم من المكذبين وتخويف لهم بأنهم باستمرارهم على تكذيبهم لرسول الله محمد ﷺ يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لعقوبة من الله تحل بهم ، لينزجروا عما هم عليه من الكفر والتكذيب ، شرع هنا في تأكيد ذلك ببيان أن هذا هو سنة الله في الذين خَلَوْا من قبل ، وأنه ما أرسل في قرية من نذير إلا ابتلى أهلها ليحذرهم من تكذيب رسلهم ، وأن هذا ليس خاصاً بقوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط أو قوم شعيب بل هو عام لجميع الأمم ،

وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ﴾ * ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة حتى عَفَوْا وقالوا قد مَسَّ آبَاءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ أي وما بعثنا في مدينة من رسول وكذبه أهلها إلا ابتلينا أهل هذه القرية بالشدة والنقص في أموالهم وأنفسهم ، وسلّطنا عليهم الأوصاب والجذب ليتضرعوا إلى الله ويصدقوا رسوله ﷺ ، فلم يتضرعوا ولم ينيبوا فبدّل الله عز وجل حالهم واختبرهم بالسعة ورغد العيش حتى كثرت أموالهم وأولادهم فلم يشكروا الله على ذلك ، ولم ينيبوا إلى الله ونسبوا ما أصابهم من الشدة أَوَّلًا ومن الرخاء ثانيًا إلى الدهر ، ولم يتفطنوا إلى هذا الامتحان والابتلاء ، فأهلكهم الله عز وجل وسلط عليهم العذاب والعقوبة التي فاجأتهم وأصابتهم على غِرّة منهم وهم لا يدرون ولا يشعرون بوقت هجوم العذاب عليهم ، بسبب انطماس بصائرهم حيث لم يتفطنوا عندما سلط الله عليهم البأساء والضراء أولا وزعموا أنها لم تكن عقوبة لهم على كفرهم بالله وتكذيبهم لرسوله ﷺ حتى أخذهم أخذ عزيز مقتدر ، واستأصل شأفتهم وقطع دابرهم . وهذا ولا شك بخلاف حال المؤمنين الذين إذا أصابتهم الضراء صبروا واحتسبوا ذلك عند الله عز وجل وإذا أصابتهم السراء شكروا ربهم على ما أنعم به عليهم . كما روى مسلم في صحيحه من حديث صُهَيْب بن سنان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : عَجَبًا لأمر المؤمن ، إن أمره له كلّ خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . والمراد بالقرية في هذا المقام مدينة الأمة وأم قراها كما أشار الله تبارك وتعالى

إلى ذلك في قوله عز وجل : ﴿وما كان ربك مَهْلِكَ القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا، وما كنا مُهْلِكِي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ وقوله عز وجل : ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ أي جعلنا مكان ما يسوؤهم من الشدة والقحط والأوصاب ما يسرهم من الرخاء والسراء ، وغَيَّرنا أحوالهم من نكد الحياة إلى رغد العيش امتحانًا واختبارًا وابتلاء . وقوله تبارك وتعالى ﴿حتى عَفَوْا﴾ أي كثروا ، ولفظ عفا يستعمل لمعان كثيرة ، فيقال : عفا يعفو إذا أعطى وعفا يعفو إذا ترك حقًا ، وعفا القوم أي كثروا ، وعفا النبات والشَّعر وغيره يعفو فهو عاف أي كثر وطال ، قال ابن منظور في لسان العرب : وفي الحديث أنه ﷺ أمر بإعفاء اللحي ، هو أن يُوقَرَّ شعرها ويُكَثَّرَ ولا يُقَصَّ كالشوارب من عَفَا الشيء إذا كثر وزاد . اهـ
ومن ذلك قول لبيد :

ولكننا نُعَضُّ السيفَ منها بأسواقِ عَافِيَاتِ الشَّحْمِ كُومٍ
وقوله تبارك وتعالى : ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ ترغيب في الإيمان والتقوى وترهيب من الكفر والتكذيب بالرسول ، أي ولو أن هذه الأمم وأصحاب هذه المدائن صدقت بربها وخافت من عقابه وآمنت بما أرسل الله عز وجل لها من رسول وانقادت لما يأمرها الله عز وجل به وعملت بشريعة الله تبارك وتعالى لفتح الله عليهم أبواب الخيرات وتابَعَ عليهم سعة أرزاقهم فأرسل السماء عليهم مدرارا ، وأمدَّهُم بأموال وبنين وجعل لهم جنات وأنهارا ، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ولفاضت عليهم البركات من الأرض بالنبات والثمار وكثرة المواشي والأنعام ، كما قال عز وجل : ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتَّقَوْا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم * ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزَلْ إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم

ومن تحت أرجلهم ﴿ ومن الأمور المُجَرَّبَة أن كلَّ أمة طَبَّقَتْ شريعة الله عز وجل وانقادت لأوامر الله ونواهيه ووقفت عند حدوده فاضت عليها الخيرات والبركات وَعَمَّهَا الأَمْنُ والاستقرارُ، وأنها إذا ابتعدت عن تطبيق شريعة الله أذاقها الله عز وجل لباس الجوع والخوف كما قال عز وجل : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ولذلك قال هنا : ﴿ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المعاصي والمحارم والآثام . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوْ أَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ، فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ تخويف وتحذير لكفار قريش ولكل من كفر بالله وكذب المرسلين ، وانتهك الحرمات ، ولم يُقِمِ شرع الله ، وترهيب لهؤلاء أن يُنَزَلَ اللهُ بِهِمْ عِقَابُهُ وَأَنْ يَفَاجَهُمْ بِعَذَابِهِ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ، أَوْ أَنْ يَسْتَدْرِجَهُمْ ثُمَّ يَأْخُذَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ . والاستفهام في قوله : ﴿ أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى ﴾ وفي قوله : ﴿ أَوْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ . وفي قوله : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ للتوبيخ والتفريع ، والفاء في قوله ﴿ أَفَأَمِنْ ﴾ للعطف على مقدر يقتضيه المقام وكذلك الواو في قوله ﴿ أَوْ أَمِنْ ﴾ وكذلك الفاء في قوله ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ والمراد بمكر الله ما يستدرج به أعداءه من النعم حتى إذا فرحوا بما أُوتُوا أخذهم بغتة فإذا هم مبلسون ، كما قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ

مبلسون * فَقَطَعَ ذَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا، والحمد لله رب العالمين ﴿ والتعبير بأهل القرى وتكريره لتحذيرهم بأنهم مهما كان جمعهم فإنهم لن يُعجزوا الله إن أصروا على الكفر به وتكذيب رسوله كما أنهم مهما كثروا فإن الله تبارك وتعالى كفيل بأن يمدهم ببركات من السماء والأرض إن آمنوا بالله ورسوله واستقاموا على شريعة الله لأن جميع الإنس والجن من الأولين والآخرين لو وقفوا في صعيد واحد وسأل كل واحد منهم مسألة وأعطى الله كل سائل ما سأل ما نقص ذلك مما عند الله إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر، والتعبير بقوله : ﴿وهم يلعبون﴾ لتوبيخ الكفار على أعمالهم التي لا تجلب لهم نفعاً ولا تعود عليهم بالخير ولا تنقذهم من النار. قال الزجاج : وقوله : ﴿وهم يلعبون﴾ يقال لكل من كان في شيء لا يُجدي أو في ضلال : إنما أنت لاعب، وإنما قيل لهم : ﴿ضَحَى وهم يلعبون﴾ أي وهم في غير ما يُجدي عليهم. اهـ كما أن قوله عز وجل : ﴿وهم يلعبون﴾ للتنبيه على أنهم مستغرقون في اللهو، متمكنون في الغفلة وشر قلوب الخلق هو القلب اللاهي الغافل الجاحد لآلاء الله المكذب برسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي قوله عز وجل : ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ ترهيب شديد من الأمن من مكر الله، ولذلك أثنى الله تبارك وتعالى على الذين يُؤثثون ما آتوا وقلوبهم وَجَلَّةٌ أنهم إلى ربهم راجعون. وقال : ﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾. وقوله تبارك وتعالى : ﴿أَو لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر : يقول : أَو لَمْ يَبَيِّنْ لِلَّذِينَ يُسْتَخْلَفُونَ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ هَلَاكِ آخَرِينَ قَبْلَهُمْ كَانُوا أَهْلِهَا، فَسَارُوا سِيرَتَهُمْ وَعَمَلُوا أَعْمَالَهُمْ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ يقول : أَنْ لَوْ نَشَاءُ فَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا فَعَلْنَا بِمَنْ قَبْلَهُمْ فَأَخَذْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَعَجَّلْنَا لَهُمْ بِأَسْنَا كَمَا

عجلناه لمن كان قبلهم ممن ورثوا عنه الأرض ، فأهلكناهم بذنوبهم ﴿ ونطبع على قلوبهم ﴾ يقول : ونختم على قلوبهم ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ موعظة ولا تذكرة ، سَمَعَ متفَع بهما . اهـ وهذا شبيهه بقوله عز وجل : ﴿ أفلم يهد لهم كما أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النُّهى ﴾ وبقوله : ﴿ أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين * وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ هذا إخبار من الله تبارك وتعالى بأنه أهلك هؤلاء الذين استأصلهم من أهل القرى كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب ، الذين قص قصصهم لعلمه عز وجل أنهم مصرون على التكذيب وأنهم لن يؤمنوا أبدا كما قال عز وجل : ﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ وقال بعد قصة نوح في سورة يونس : ﴿ ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ، كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ أي وكما طبع الله عز وجل على قلوب الأمم المكذبة التي أهلكها كذلك يطبع على قلوب من علم أنهم لن يؤمنوا من قومك ، وما وجدنا لأكثر الأمم الماضية من عهد ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة حيث كانوا يطلبون من أنبيائهم آيات يقترحونها غير الآيات والمعجزات التي جاءتهم من قبل ، ويعاهدونهم على الإيمان إن جاءتهم فإذا جاءتهم الآية مبصرة نقضوا العهد وكانوا بها كافرين .

قال تعالى : ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين ﴿ حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل ﴾ قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ﴾ يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴿ قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين ﴾ يأتوك بكل ساحر عليم ﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴿ .

بعد أن ذكر تبارك وتعالى قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام بالأسلوب البلاغي الذي يقتضيه المقام المفيد للتأسي والاعتداء في الصبر والاحتساب بهؤلاء الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام والتحذير من السير في ركاب المكذبين بهم الذين عاقبهم الله بأنواع من العقوبات الرادعة لمن يكذب بالمرسلين ، ثم أكد ذلك ببيان أن هذه هي سنة الله في الذين خلوا من قبل وأنه ما أرسل في قرية من نذير إلا حذرهم من تكذيب رسلهم ، وأن هذا ليس خاصاً بقوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط أو قوم شعيب ، بل هو عام لجميع الأمم المكذبة الماضية ، شرع هنا في ذكر قصة موسى عليه السلام وساقها على سبيل الإطناب ، حيث بسطها أكثر من غيرها ، لاحتياج الناس إلى الاعتبار بها لأن فرعون قد بلغ من السلطان والتسلط والقهر لبني إسرائيل ما لم يبلغه أحد من المكذبين حتى

ادعى أنه الرب الأعلى ، وقال لقومه : ما علمت لكم من إله غيري ، وعلا في الأرض ، ولم تنتشر قصة نبي من أنبياء الله السابقين انتشار قصة موسى مع فرعون ، لذلك كانت العبرة بها أكبر والعظة بها أبلغ ، وثُمَّ في قوله تبارك وتعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها ﴾ لإفادة التراخي وطول الوقت بين زمن موسى عليه السلام وزمن مَنْ قَصَّ الله عز وجل قصصهم من الرسل الذين سبقوه ، كما أشار إلى ذلك في مقامات أخرى من الكتاب الكريم حيث قال في سورة يونس بعد ذكر قصة نوح : ﴿ ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ، كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ * ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين * فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين ﴾ الآيات . وقال عز وجل في سورة «المؤمنون» بعد ذكر إهلاك قوم نوح وبعض الأمم التي كذبت رسلها : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ﴾ * ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون * ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمةً رسولها كذبوه ، فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث ، فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ * ثم أرسلنا موسى ﴾ الآيات . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ هو مُوجَزٌ لقصة موسى عليه السلام مُقَدِّمٌ بين يَدَيِ تفصيل أنبائها ، التي تفيد أن الله عز وجل قد بعث موسى عليه السلام إلى فرعون مؤيدا بالآيات والمعجزات التي يؤمن على مثلها البشر ، فكفر بها فرعون وقومه فماذا كانت عاقبتهم ؟ فلقد أغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه ولقد أخذ فرعون يصرخ عندما أدركه الغرق يقول : آمنت بالذي آمنتُ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ، وشفى الله قلب موسى ومن معه من المؤمنين ، وفي هذا تثبيتٌ تامٌ لفؤاد رسول الله ﷺ ومن

معه من المؤمنين ، والواو في قوله عز وجل : ﴿وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين﴾ للاستئناف والشروع في تفصيل أنباء قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه ، وفرعون لقب ملك مصر في زمن موسى عليه السلام وليس اسماً لهذا الطاغية ، وقد استعمل العرب الفرعنة بمعنى الكبر والتجبر ، قال ابن منظور في لسان العرب المحيط : فَرَعَنَ : الفرعنة : الكبر والتجبر ، وفرعونُ كُلُّ نَبِيٍّ مَلَكَ دهره قال القَطَامِيُّ :

وَشُقَّ الْبَحْرُ عَنْ أَصْحَابِ مُوسَى وَغُرِقَتِ الْفِرْعَانَةُ الْكِفَارُ

الْكِفَارُ: جمع كافر كَصَاحِبٍ وَصِحَابٍ ، وفرعون الذي ذكره الله تعالى في كتابه من هذا ، وإنما تُرِكَ صَرْفُهُ في قول بعضهم لأنه لا سَمِيَّ له ، كإبليس فيمن أخذه من أْبَلَسَ ، قال ابن سيده : وعندي أن فرعون هذا الْعَلَمُ أعجميٌّ ، ولذلك لم يُصْرَفْ ، الجوهري : فرعونُ لقب الوليد بن مُضْعَبٍ ملك مصر ، وكلُّ عاتٍ فرعونٌ ، والعُتَاةُ الفراعنةُ ، وقد تَفَرَّعَنَ ، وهو ذو فَرَعَنَةٍ أي دَهَاءٍ وتكبر. اهـ ومعنى : قوله تعالى : ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي إني جديرٌ وقَمِنٌ وَحَرِيٌّ وخليق بسبب أني رسول رب العالمين أن أكون أبعد الناس عن الافتراء على الله الذي اختارني وأرسلني إليكم . ومعنى قوله : ﴿قد جئكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل﴾ أي قد أرسلني الله عز وجل إليكم وأيدني بالبرهان القاطع والمعجزة القاهرة الشاهدة بأنني مبعوث من الله الذي خلقكم وهو مالكم وسيدكم ورازقكم ، فأطلق بني إسرائيل وخَلَّ عنهم وَخَلَّصَهُم من العذاب المهين الذي يلاقونه منكم ، وقد كانت رسالة موسى ﷺ ذات شقين : الأول : دعوة فرعون وقومه وبني إسرائيل إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والثاني : تخليص بني إسرائيل من العذاب المهين الذي يلاقونه من فرعون وملئه ، وإلى ذلك يشير قوله تبارك وتعالى : ﴿ولقد فتنَّا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم * أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عِبَادَ

الله إني لكم رسول أمين * وأن لا تَعْلُوا على الله إني آتيكم بسلطان مبین ﴿ وقولُه تبارك وتعالى : ﴿ قال إن كنتَ جئتَ بآية فأت بها إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبین * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴿ أي قال فرعونُ لعنه الله لموسى ﷺ : إن كنتَ قد حضرتَ إلينا ومعك البرهان الذي تشير إليه فأبرزه لنا حتى نراه ونشاهده إن كنت من الصادقين في أنك رسولٌ من رب العالمين ، وأن معك آيةٌ تؤيدك فيما تدعي ، وقولُه عز وجل : ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبین * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴿ أي فرمى موسى ﷺ عصاه على الأرض أمامَ فرعون وملئه فانقلبت العصا حية لا يخطر على بال من يراها إلا أنها ثعبان حقيقي يهتز ويتحرك كما يتحرك الثعبان تماما ، وسارع موسى ﷺ فأخرج يده من درعه ورفعها في وجه فرعون وقومه فإذا هي بيضاء تتلأأ من غير برص ولا مرض وهم يعرفون أن موسى عليه السلام آدم اللون أسمر البشرة ، وقد جرت السنة الإلهية في أن يبعث الله كل نبي بمعجزة تفوق أعلى درجات العلم الذي برع فيه قومه ليكون أظهر للحق ، ويعرفوا أنه من عند الله وأنه لا يقدر على مثله البشر ، ولذلك أرسل محمداً ﷺ بالقرآن وجعله معجزته الكبرى لأن قوم محمد ﷺ قد برعوا في الفصاحة والبيان والبلاغة حتى أقاموا للخطباء والشعراء منابر في أسواق عكاظ ومجنة وذو المجاز ، وكما أرسل عيسى عليه السلام بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، لأن قومه قد بلغوا في الطب شأوا لم يُسبِقُوا إليه ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن فرعون وقومه قد أيقنوا في نفوسهم عندما رأوا العصا قد انقلبت إلى حية تسعى وأن يد موسى صارت بيضاء من غير سوء واعتقدوا أن هذه آية قاهرة فوق ما كانوا يطلبون من موسى ولكنهم جحدوها ظلماً وعُلوّاً حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ فلما جاءهم آياتُنَا مبصرةً قالوا هذا سحر مبین * وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً

وَعُلُوًّا، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴿ وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * ﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ إشارة إلى أن قوم فرعون وقفوا من الآية التي جاء بها موسى عليه السلام نفس الموقف الذي وقفه فرعون منها، إذ أن الله تبارك وتعالى أسند هذا الكلام أيضًا إلى فرعون مما يقضي بتطابق رأي فرعون وملئه فيما تشاوروا فيه حيث قال في سورة الشعراء : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّاطِرِينَ * ﴾ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ وهذا الجواب من فرعون وملئه بعد أن رأوا آية العصا واليد هو نوعٌ من الخداع لأتباعهم من الرعاع حتى لا يسارعوا إلى الإيمان بموسى عليه السلام، وحيلةٌ من حيلهم لإطفاء نوره وإخماد كلمته، ومعنى : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أي فَمَاذَا تَشِيرُونَ بِهِ عَلَيْنَا؟ ومعنى : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ أي أمهله وأخاه هارون ولا تعجل بمعاقبتهما واجعل بينك وبينه موعدًا واجمع له كل سحار عليم، فابعث رجالك إلى سائر أنحاء مدائن مملكتك ومدارس السحر فيها حاشرين أي جامعين لك كل خير متمكن من فنون السحر ليغلبوا موسى ويقضوا على سحره ويبطلوا دعوته، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في سورة طه حيث يقول : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لَتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * ﴾ قال موعدكم يوم الزينة وأن يُجَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى * فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴿ وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * ﴾ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴿

أي فأرسل فرعون في المدائن حاشرين فحشروا السحرة وجمعوهم عند فرعون ، فلما اجتمعوا قالوا لفرعون : هل لنا ثواب ومكافأة إذا غلبنا موسى وأبطلنا سحره نستحقه عندك ؟ قال : نعم لكم عندي مكافأة وأجر وأزيدكم على ذلك بأن تكونوا أقرب الناس إليّ في مجلسي ، وأجعلكم مستشاري في كل أموري . وقد أشار الله تبارك وتعالى في سورة الشعراء إلى أن فرعون وملائه لم يكتفوا بجمع السحرة لموسى بل جمعوا رعاعهم للمغالبة وإظهار التأييد للسحرة حيث يقول عز وجل : ﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ﴾ * يأتوك بكل سحار عليم * فجميع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين * فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين ﴿ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قالوا يا موسى إما أن تُلقِي وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ * قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴿ أي فلما اجتمع السحرة مع موسى في الموعد والمكان المتفق عليهما بين موسى وفرعون قال السحرة لموسى عند المبارزة : أختار أن تُلقِي عصاك أولا أو نلقي نحن عصيتنا أولا فكان من الحكمة البالغة أن وفق الله عز وجل موسى عليه السلام فقال لهم : ألقوا أنتم أولا ، لأنهم إذا ألقوا حباهم وعصيتهم وبهروا الناس ببهرجهم وأخافوهم من حباهم وعصيتهم التي صاروا يرونها ويخيل إليهم أنها تسعى ثم ألقى موسى عصاه فانقلبت حية وابتلعت جميع حباهم وعصيتهم أيقن الناس بمعجزة موسى عليه السلام ، ولذلك خسر السحرة ساجدين . ومعنى : ﴿ سَحَرُوا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ أي خيّلوا إلى أعين الناس وصرفوا أعينهم عن إدراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل حتى أدخلوا الرعب في قلوبهم وحتى أوجس في نفسه خيفة موسى عليه السلام بسبب هذا

السحر العظيم ، كما قال عز وجل : ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ * قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ .

قال تعالى : ﴿وَأَوْحِينَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغَلَبُوا هَنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَّتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا نَقَمُ مِنْهُ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّفْنَا مُسْلِمِينَ ۝﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أن السحرة خَيَّرُوا موسى عليه السلام بين أن يكون هو البادئ بإلقاء عصاه أو أن يكونوا هم البادئين ، وأن موسى عليه السلام أمرهم أن يكونوا هم أول من ألقى ، وأنهم لما أَلْقَوْا يعني حباهم وعصيتهم سحروا أَغَيَّنَ الناس وأدخلوا الفزع والرعب والرهبه والخوف في قلوبهم بسبب ما جاءوا به من السحر العظيم ، شرع عز وجل هنا فَيِّنَ أنه أَوْحَى إلى موسى بإلقاء عصاه فابتلعت جميع حباهم وعصيتهم التي خُيِّلَ إلى الناس أنها حَيَّاتٌ وثعابينُ ، وأن الله تبارك وتعالى قد أظهر برهان موسى ﷺ وأيده بهذه المعجزة الباهرة ، وأبطل ما جاء به السحرة ، فاندحر فرعون وقومه وانقلبوا أذلة صاغرين ، إلا السحرة ، فإنهم عندما عاينوا هذه الآية العظيمة وأنها ليست من قبيل السحر خَرُّوا ساجدين لله تبارك وتعالى ، وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ، فسارع عدو الله فرعونُ المخذولُ إلى توجيه اللوم للسحرة معاتبًا لهم أَوَّلًا على إيمانهم قبل استئذانه بذلك ، ثم أخذ في توجيه التهم لهم بأنهم تماثلوا مع موسى وهارون ليفسدوا في الأرض وليخرجوا منها أهلها ، ثم توعدهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وأن يُصَلَّبَهُمْ في جذوع النخل ليردهم بذلك عن الدين الحق إلى دينه الباطل ، فأعلنوا أنهم

لن يرجعوا عن الدين الحق أبدا مهما أودوا في الله عز وجل ونَدَدُوا بفرعون
وبدينه الباطل وتضرعوا إلى الله عز وجل أن يُفرِّغَ عليهم صبرا وأن يثبتهم على
الإيمان حتى يموتوا مسلمين . وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَأَوْحِينَا إِلَى
مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ إلى قوله تبارك وتعالى :
﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَأَوْحِينَا إِلَى
مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي وأمرنا موسى عليه
السلام بإلقاء عصاه فآلقها فانقلبت حية عظيمة وانطلقت بسرعة هائلة
تأخذ حبالهم وعصيتهم وتبتلعها حتى أَفْتَتَهَا عن آخرها والتَقَمَتْهَا جميعا ولم
تُبْقِ من إفكهم وكذبهم وباطلهم شيئا ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ
وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي فظهر الحق واستقر في نفوس الحاضرين أن
موسى رسول من رب العالمين ، وبطل السحر وذهبت مخايله وتمويهاته ، وقوله
تبارك وتعالى : ﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ أي فَهَزِمَ فرعون وملؤه
واندحروا وصاروا في مكان مبارزتهم أذلاء مقهورين مدحورين مبهوتين بعد
أن كانوا متكبرين متعاليين متغطرسين متعجرفين ، وقوله تبارك وتعالى :
﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون *
قال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره : وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ
عندما عاينوا من عظيم قدرة الله ، ساقطين على وجوههم سُجَّدًا لربهم ،
يقولون : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يقولون : صدَّقنا بما جاءنا به موسى ، وأنَّ
الذي علينا عبادته هو الذي يملك الجن والإنس وجميع الأشياء وغير ذلك ،
ويُدَبِّرُ ذلك كله ، ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ لا فرعون . اهـ وقوله تبارك وتعالى :
﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُوهُ فِي الْمَدِينَةِ
لِئُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ بيان لما
صار عليه حال فرعون المتردد بين الخَوَرِ والذُّلِّ من ناحية والتكبر والغطرسة

من ناحية أخرى حيث بدأ بالمعاقبة للسحرة على إيمانهم بموسى قبل استئذانه ، وهذا يدل على استخذه وحقه ثم انتقل إلى اتهامهم بأنهم قد اتفقوا مع موسى على هذا المكر والتدبير الذي أدى إلى هزيمتهم ثم انتقل إلى التهديد بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم على جذوع النخل ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات : يُخْبِرُ تعالى عما توعد به فرعون لعنه الله السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام ، وما أظهره للناس من كيد ومكره في قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ أي إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك كقوله في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل ، فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به ، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ، ومعاملة سلطنته ، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ، ممن اختار هو والملا من قومه ، وأحضرهم عنده ، ووعدهم بالعطاء الجزيل ، ولهذا قد كانوا أحرص الناس على ذلك ، وعلى الظهور في مقامهم ذلك ، والتقدم عند فرعون ، وموسى عليه السلام لا يعرف أحدا منهم ، ولا رآه ولا اجتمع به ، وفرعون يعلم ذلك ، وإنما قال هذا تَسْتَرًا وتدليسًا على رعا دولته وجَهْلَتِهِمْ كما قال تعالى : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ ﴾ فإن قوما صدقوه في قوله : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ من أجهل خلق الله وأضلهم . اهـ ومعنى قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ أي إن هذا الصنيع الذي صنعتوه من سجودكم وإعلانكم بأنكم آمتم برب موسى وهارون هو تدبير تم بينكم وبين موسى وخدعة وحيلة اتفقت عليها في المدينة قبل مجيئكم إلى هنا لتكون الدولة في مصر لكم أنتم وموسى وتطردوا الكبراء

والرؤساء منها وقوله: ﴿فسوف تعلمون﴾ تهديد ساقه عدو الله فرعون بطريق الإجمال للتهويل والترويع ثم فصله فقال: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لأَصْلَبُنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لأقطعن من كل واحد منكم رجله اليمنى ويده اليسرى أو رجله اليسرى ويده اليمنى، ثم لأصلبنكم أي لأعلقنكم على جذوع النخل لتبقى جثثكم شاهدا على تنكيلي بكم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قالوا إنا إلى ربنا منقلبون﴾ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا، ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال السحرة مُجِيبَةً لفرعون، إذ توعدهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف، والصلب: ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ يعني بالانقلاب إلى الله الرجوع إليه والمصير، وقوله: ﴿وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا﴾ يقول: ما تنكر منا يا فرعون وما تجد علينا إلا من أجل أن آمنا أي صدقنا ﴿بآيات ربنا﴾ يقول: بحجج ربنا وأعلامه وأدلته التي لا يقدر على مثلها أنت ولا أحد سوى الله الذي له ملك السموات والأرض. ثم فزعوا إلى الله بمسأله الصبر على عذاب فرعون، وقبض أرواحهم على الإسلام فقالوا: ﴿ربنا أفرغ علينا صبرا﴾. يَغْنُون بقولهم: ﴿أفرغ﴾ أنزل علينا حَبْسًا يَحْبِسُنَا عن الكفر بك عند تعذيب فرعون إيانا ﴿وتوفنا مسلمين﴾ يقول واقبضنا إليك على الإسلام دين خليلك إبراهيم ﷺ لا على الشرك بك. اهـ وقد وصف الله تبارك وتعالى ما كان من موسى والسحرة ومن فرعون وملئه وكيف سارع السحرة إلى الإيمان بموسى عندما ألقوا حبالهم وعصيتهم ثم ألقى موسى عصاه وانقلبت حية هائلة عظيمة وابتلعت جميع ما صنعوا فأيقن السحرة أن هذا لا يقدر عليه البشر ولا يأتي به إلا الله مالك القوى والقدر فخروا لله ساجدين معلنين إيمانهم بالله ورسله صابرين على كل بلاء يصيبهم في مرضاة الله، فذكر ذلك هنا في سورة الأعراف، وقال عز وجل في سورة

طه : ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ * قال لهم موسى ويلكم لا تفترؤا على الله كذبا فَيُسْحِتْكُمْ بعذاب وقد خاب من افترى * فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى * قالوا إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ يَرِيدُ أَنْ يَمُخِّرَ جَاكُمُ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوْا صَفًّا ، وقد أفلح اليومَ مَنْ استعلى * قالوا يا موسى إما أَنْ تُتْلَى وَإِما أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قال بل أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وألق ما في يمينك تَلَقَّفْ ما صنعوا إِنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى * فَأَلْقَى السِّحْرَ سُجْجًا قالوا آمنا برب هارون وموسى * قال آمَنتُمْ له قبل أَنْ أَدْنَى لَكُمْ إِنَّه لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قالوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى ما جِئْنَا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنما تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنَا خِطايانا وما أَكْرهْتِنا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ ، والله خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وقال عز وجل في سورة الشعراء : ﴿ فَجَمَعَ السِّحْرَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السِّحْرَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السِّحْرُ قالوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنْ لَنَا أَجْرُ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قال نعم وإنا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قال لهم موسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَعِصِيَهُمْ وقالوا بعزة فرعون إنا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى موسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ * فَأَلْقَى السِّحْرَ ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون * قال آمَنتُمْ له قبل أَنْ أَدْنَى لَكُمْ إِنَّه لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قالوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنا خِطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ .

ومن وجوه التصريف البلاغي في هذا المقام أنه قال هنا : ﴿ قال فرعون
آمنت به قبل أن آذن لكم إن هذا لكم مكرتموه في المدينة ﴾ وقال : ﴿ ثم
لأصلبنكم أجمعين ﴾ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ وفي سورة طه وفي الشعراء
قال : ﴿ قال آمنت له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾
وقال في سورة الشعراء : ﴿ ولأصلبنكم أجمعين ﴾ قالوا لا ضيرَ إنا إلى ربنا
منقلبون ﴾ فإن جرس الكلام «وموسيقاه» وكونه فوق القمة من الفصاحة
والبلاغة من ميزان الحروف اقتضى أن يجيء كل نص من هذه النصوص على
الوصف الذي جاء به ليكون وجهًا مشرقًا من وجوه إعجاز القرآن المتشابه
المثاني، الذي يعجز الإنسان والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض
ظهيرًا، والتعبير بِثُمَّ في قوله هنا : ﴿ ثم لأصلبنكم ﴾ وبالواو في قوله في طه
وفي الشعراء : ﴿ ولأصلبنكم ﴾ لأن الواو صالحة للمهلة والتراخي فهي لمطلق
الجمع ولا تقتضي التعقيب .

قال تعالى : ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلجتك ، قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أنه أوحى إلى موسى عليه السلام أن يُلقِي عصاه لتبتلع ما ألقاه السحرة من عصيهم وحبالهم التي انقلبت في أعين المشاهدين إلى ثعابين تُخَيِّفُ الناظرين وترهبهم وأن يُخْرِجَ يَدُهُ من درعه آيَةً أخرى حيث تصير بيضاء تَتَلَأَلُ من غير برص ولا مرض ، وأن موسى عليه السلام لما ألقى عصاه التقمت جميع إفكهم فانقلبوا صاغرين وأُلْقِيَ السحرة ساجدين وأعلنوا إيمانهم برب العالمين رب موسى وهارون ، فتوعدهم فرعون بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وَصَلَبِهِمْ ، وأن السحرة لم يَعْبَثُوا بِوَعِيد فرعون وتهديده وسألوا الله عز وجل أن يفرغ عليهم صبرا وأن يتوفاهم مسلمين ، شرع هنا في بيان موقف قوم فرعون بعد انقلابهم صاغرين ، حيث سلكوا سبيل المهزوم في المحاجة ، العاجز عن إظهار الحجة فأخذوا في تحريض فرعون على التكيل بقوم موسى عليه السلام وتشديد العذاب على بني إسرائيل ، وإغراء فرعون بهم لعل ذلك يُثْنِيهِمْ عن الوقوف صفًا واحدًا مع موسى عليه السلام والانتصار للدين الحق ، وقد سارع فرعون فأعلن أنه سيوقع ببني إسرائيل أشد العذاب ، ويجدد عليهم العقوبة التي كان قد

تراجى فيها وهي تقتيلُ أبنائهم واستحياءُ نسائهم وقهرهم وإذلالهم بشتى
وسائل القهر والإذلال ، وأن موسى عليه السلام عندما سمع وعيد فرعون
وتهديده قال لقومه من بني إسرائيل : لا يُرْهِبْكُمْ وعيدُ فرعون وتهديده واطلبوا
من الله عز وجل أن يعينكم على عدوكم واحبسوا أنفسكم عن الجزع مما قد
يلحقكم من أذاه وأيقنوا أنَّ الله عز وجل ناصرهم عليه فإنه تعالى مالك
الأرض وما فيها ومن فيها يُعْزُّ من يشاء ويذل من يشاء والعاقبة للمتقين فقال
بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : لقد وقع علينا الأذى من فرعون من قبل أن
يبعثك الله إلينا رسولا ومن بعدما بعثك الله إلينا رسولا ، فقد عَانَيْنَا من فرعون
وقومه صنوفَ الاضطهاد والعذاب دهرًا طويلا فبشرهم موسى عليه السلام
بأن نصر الله قريب من المحسنين ، وقال لهم : أرجو أن تستقيموا فتكونَ
العاقبةُ الحسنى لكم ، وأن يهلك الله عز وجل عدوكم ويمكنكم في الأرض
امتحانا لكم لتصبروا في الضراء وتشكروا في السراء ، وقد بدأت بشائر النصر
للمؤمنين فسلط الله تبارك وتعالى على فرعون وقومه الجذب والقحط والجوائح
التي تصيب ثمارهم كي يتذكروا ويتعظوا ويؤمنوا بالله ورسوله ، لكنهم صاروا
إذا رأوا بريقا من العافية والخصب والرخاء وما يحبونه من دنياهم أسندوا ذلك
إلى أنفسهم ، وإذا رأوا الجذب والقحط وقلة الثمرة وما يسوؤهم في دنياهم
تشاءموا من موسى ونسبوا ذلك إلى مجيئه عليه السلام لهم وتشاءموا كذلك
من المؤمنين الذين اتبعوا موسى عليه السلام . والواقع أن سبب شؤمهم هو
كفرهم بالله ورسوله ومعاداة أوليائه . لكنهم جاهلون لا يعرفون أن كفرهم هو
سبب بلائهم . وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر
موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلتهك ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ ألا
إنما طائرتهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ والمقصود من الاستفهام في
قول قوم فرعون لفرعون ﴿ أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك

وَأَهْلَكَ ﴿ هو تحريضهم فرعون وإثارته وتهيججه لإيقاع أشد العذاب بموسى وقومه أي أترك موسى وقومه طليقين حتى يتمكنوا من الإفساد في بلادك بنشر دينهم ويكفُّوا الناس عن الانقياد لك وعن عبادة أهلك؟ والظاهر أن قوم فرعون لما أَحَسُّوا الذلَّةَ والصَّغَارَ في نفس فرعون بعد أن التقت عصا موسى ما ألقاه السحرة خافوا أن يراود فرعونُ موسى على أن يكف موسى عن التنديد بفرعون وديانته ويكفَّ فرعونُ عن إلحاق الأذى بموسى وقومه وتتم بينهما معاهدة مصالحة ومصالمة . وفي قوله : ﴿وَأَهْلَكَ﴾ إشعار بأن فرعون وقومه كانوا يعبدون أربابا كثيرة ، وقد ادعى لهم فرعون أنه ربهم الأعلى ، وقد بلغ الذروة في الاستخفاف بقومه عندما قال لهم : ما علمت لكم من إله غيري ، ولا شك أن بقايا آثارهم تدل على كثرة معبوداتهم . وفي قوله : ﴿سَنُقْتُلْ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ دون أي وعيد لموسى عليه السلام إشعار بما وقر في قلب فرعون من المهابة لموسى عليه السلام وخوفه من إلحاق الأذى به وعلمه في قرارة نفسه بأن موسى رسول من رب العالمين لكنه جحد ذلك مع الاستيقان به هو وقومه . ومعنى قوله : ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ أي قال موسى عليه السلام لقومه ناصحًا لهم ومبشِّرًا ومواسيًا ومخذرا من أن يلحقهم الضجر من وعيد فرعون وتهديده : اطلبوا العون من الله عز وجل على فرعون وقومه واحبسوا أنفسكم عن الجزع مما قد يصيبكم من آل فرعون من المكاره ، وأيقنوا أن فرعون وقومه مملوكون لله يفعل بهم ما يشاء ويحكم فيهم بما يريد وأن الأرض لله يُمكن فيها من يشاء من عباده ، وستكون العاقبة الحسنى لكم لأن العاقبة الحسنى للمتقين ، وقد أنجز الله تبارك وتعالى لقوم موسى ما وعدهم به كما سيجيء في الآية السابعة والثلاثين بعد المائة من هذه السورة حيث يقول عز وجل : ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق

الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يَعْرِشُونَ ﴿١﴾ ولا شك أن تهديد فرعون لقوم موسى بتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم وزيادة قهرهم وإذلالهم قد أخاف بني إسرائيل وأحدث في نفوسهم الرعب ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله عز وجل في سورة يونس : ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ، وَإِنْ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ * وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ أي قال قوم موسى لموسى عليه السلام حين قال لهم : ﴿استعينوا بالله واصبروا﴾ قد وقع علينا الأذى من فرعون وقومه قبل أن نجئنا برسالة الله إلينا حيث كان فرعون يأمر بتقتيل أبنائنا واستحياء نسائنا ، ويقع علينا الأذى من فرعون وملئه بعد مجيئك بالرسالة من الله إلينا حيث أمر فرعون الآن بتقتيل أبنائنا واستحياء نسائنا وإلحاق أنواع القهر بنا ، فأجابهم موسى عليه السلام حاضاً لهم على الصبر والثبات فقال لهم : لعل الله ربكم أن يهلك عدوكم فرعون وقومه ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم ، وتتمكنون في البلاد ، لا تخافون أحداً من الناس ، فيرى ربكم ما تعملونه بعد أن يُمَكِّنَ لكم في الأرض وسيجازيكم على ما يكون منكم من الخير أو الشر ، فإن من دأب عباد الله الصالحين أنهم إذا مُكِّنَ لهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وأعلّوا راية الدين . كما أشار إلى ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا

الزكاة وأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر ، والله عاقبة الأُمُون ﴿١﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿٢﴾ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴿٣﴾ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يَطِئُوا بِمُوسَى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ شروع في تفصيل تسليط عقوبات الله تبارك وتعالى على آل فرعون ، ومبادئ الانتصار لموسى وقومه مع بيان جهل آل فرعون وتماديهم في الغي والضلال ، وَقَلْبُهُمْ لِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ ، وعدم ارتداعهم بما يشاهدونه من الآيات الكونية التي يمتحنهم الله عز وجل بها تأييدا لموسى عليه السلام ، والمراد بآل فرعون : فرعون وقومه ، والمراد بالسنين : القحط والجذب ، من قولهم : أسنت القوم أي أجذبوا . كما قال عبدالله بن الزُّبَيْرِي في هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ :

عَمَرُو الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ قَوْمٌ بِمَكَّةَ مُسْتَتِينَ عِجَافٌ
وقد استعمل العرب السنة بمعنى الحول وبمعنى الجذب وهو المراد هنا كما وصفت . والمراد بنقص من الثمرات : هو قلة الثمرات التي تحملها أشجارهم أو إصابتها بالآفات التي تقلل محصولهم من الثمار . ومعنى : ﴿١﴾ لعلهم يذكرون ﴿٢﴾ أي كي يتعظوا ويرتدعوا ويتوبوا إلى الله ويصدقوا موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم . ومعنى قوله عز وجل : ﴿٣﴾ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴿٤﴾ أي فإذا نَفَسْنَا لَهُمْ بين الحين والحين وأصابتهم بنوع من الرخاء امتحانا وابتلاء نسبوا ما أصابهم من الخير لأنفسهم وأنهم حصلوا على ذلك بسبب ذاتي لهم كما قال قارون : ﴿٥﴾ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴿٦﴾ وكما قال عز وجل : ﴿٧﴾ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴿٨﴾ أما إذا أصابهم قحط أو جذب نسبوه إلى موسى ومن معه من المؤمنين وجعلوا ذلك بزعمهم من شؤم محبي موسى إليهم

وإيمان من آمن به ، وقالوا ما أصابتنا هذه المصائب إلا من شؤمك وشؤم من معك ، فازدادوا بذلك جهلا على جهلهم وضلالا فوق ضلالهم ، وسلخوا نفس المسلك الذي سلكه المكذبون من قبلهم ومن بعدهم ولم يعتبروا ولم يتعظوا ولم يتذكروا ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى عن قوم صالح عليه السلام أنهم : ﴿ قالوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِئْسَ مَعَكَ ، قال طائرُكم عند الله بل أنتم قوم تُفْتَنُونَ ﴾ كما ذكر عز وجل عن أصحاب القرية في ردهم على المرسلين : ﴿ قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجنكم وليمسنكم منا عذاب اليم * قالوا طائرُكم معكم أثن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴾ ومعنى قوله : ﴿ ألا إنا طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي إن أسباب بلائهم وما حل بهم من العقوبات عند الله علمه وهو وحده المدبر لكل شيء ، ولكن أكثرهم جاهلون بالله ولا يدرون أن المعاصي تجلب المصائب . والتطير هو التشاؤم وهو الفأل السيئ ضد التيمن وهو الفأل الحسن . وقد نهى رسول الله ﷺ عن الطيرة وقال : الطيرة شرك كما رواه أبوداود والترمذي وصححه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه . وقد كانوا في الجاهلية إذا عزموا على أمرٍ مهم أرسلوا طائرا أو نظروا في جو السماء إلى طائر فإن وجدوه اتجه يمينا فرحوا ومضوا في طريقهم وإن اتجه شمالا تشاءموا ورجعوا عن قصدهم واعتقدوا عدم نجاح خطتهم وقد أطلقوا على ذلك اسم التطير حتى ولو تشاءموا من سماع اسم لا يرضونه أو شهر أو يوم أو مكان ، فأبطل الإسلام ذلك وحذر منه ، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لا طيرة ولا هامة ولا صفر .

قال تعالى : ﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين * فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين * ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون * فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمت ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أن قوم فرعون أخذوا في تحريض فرعون على التنكيل بقوم موسى عليه السلام وتشديد العذاب على بني إسرائيل وإغراء فرعون بهم لعل ذلك يثنىهم عن الوقوف صفًا واحدًا مع موسى عليه السلام والانتصار للدين الحق ، وقد سارع فرعون فأعلن أنه سيوقع ببني إسرائيل أشد العذاب ويجدد عليهم العقوبة التي كان قد تراخى فيها وهي تقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم ، وأن موسى عليه السلام عندما سمع وعيد فرعون وتهديده لقوم موسى عليه السلام قال لبني إسرائيل : لا يرهبكم وعيد فرعون وتهديده واطلبوا من الله عز وجل أن يعينكم على عدوكم ، واحبسوا أنفسكم عن الجزع مما قد يلحقكم من أذاه ، وأيقنوا بنصر الله وتأييده لكم ، فقال بنو إسرائيل لموسى : لقد وقع علينا الأذى من فرعون من قبل مجيئك إلينا ومن بعد ما جئتنا وعانينا من فرعون وقومه صنوف العذاب دهرًا طويلا فطمأنهم موسى عليه السلام بأن نصر الله قريب من المحسنين ورجا الله عز وجل أن تكون العاقبة الحسنى لبني إسرائيل ، وأن يمكن لهم في الأرض ، وقد بدأت

العقوبات تتوالى على فرعون وقومه حيث سلط الله عليهم الجذب والقحط أحيانا كثيرة والرخاء في بعض الأحيان ليبثليهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون عن غيهم وضلالهم لكنهم كانوا إذا أصابهم الرخاء نسبوه إلى أنفسهم وإذا أصابتهم الضراء نسبوها إلى مجيء موسى إليهم تشاؤما منه ، شرع عز وجل يبين هنا أن فرعون وقومه تمادوا في غيهم وضلالهم وأكدوا لموسى عليه السلام بأنهم لن يؤمنوا به مهما جاءهم به من الخوارق والمعجزات واعتبروا أن كل ما يحييهم به موسى عليه السلام هو سحر ، فسلط الله عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مُفَصَّلَات فاستكبروا ولم ينزجروا حتى اشتد بهم الرجز فطلبوا من موسى أن يسأل ربه كشف العذاب عنهم ووعدوه أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بني إسرائيل إن كشف الرجز عنهم ، فلما كشف الله عز وجل الرجز عنهم امتحانا لهم إذا هم ينقضون عهدهم ويستمرون على كفرهم وغيهم وضلالهم ، فانتقم الله عز وجل منهم فأغرقهم وأورث بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاريها ومكَّن لهم فيها وحقق لهم ما وعدهم به موسى عليه السلام وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ بيان لتمررد فرعون وقومه وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل ، حيث أعلنوا لموسى عليه السلام أنهم لن يصدقوه أبدا مهما جاءهم به من الخوارق والمعجزات وقالوا له : إن جئتنا بكل آية لتخدعنا بها وتلفتنا عما نحن عليه فلن نصدقك أبدا ، ولن ننقاد لك بحال من الأحوال ، وعندما وصلوا إلى هذا الحد من التعنت والجحود والكفران ، بدأت عقوبات الله تتابع عليهم ، وقد جعل الله عز وجل هذه العقوبات لافِتَةً لانتباه الإنسان إذا كان عنده ذرة من العقل ، فهي

عقوبات مؤذية مزعجة واعظة شاهدة بأن الله قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء ، وهذه العقوبات هي الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم ، حيث يقول عز وجل : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ والمراد بالطوفان المياه الجارفة والسيول المغرقة لمزارعهم دون أن يلحق ببني إسرائيل منها أذى ، والجراد معروف ، وقد سلطه الله عز وجل عليهم فأتلف زروعهم وثمارهم ولم يصب بني إسرائيل بأذى ، على أن في تمكين الجراد منهم لفت انتباهه إلى عجزهم وضعفهم أمام هذا الجراد الضعيف ، الذي جعل الله عز وجل في صورته آية من آيات قدرته ، كما قال شريح رحمه الله : الجرادة فيها خلقة سبعة جبابرة ، رأسها رأس فرس ، وعنقها عنق ثور ، وصدرها صدر أسد ، وجناحها جناح نسر ، ورجلاها رجلا جمل ، وذنبها ذنب حية ، وبطنها بطن عقرب . اهـ أما القُمَّل فإنه يُطْلَقُ على السوس الذي يتوالد في الحبوب فيأكل لُبَّهَا ويُبْقِي قشرها ، كما يطلق القُمَّل على صغار الذر وعلى القُمَّل والبراغيث ونوع من القراد ، ويطلق أيضا على دُويبة خبيثة الرائحة شديدة الأذى تشبه الحَلَمَ ، فصار هذا القُمَّل يخالطهم في جميع أحوالهم لا يلمسون شيئا إلا وجدوه فيه ، وأما الضفادع فهي دابة نهرية تَنَقُّ كثيرا ، وقد قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : وذكر الأطباء أن الضفدع نوعان : بَرِّيٌّ وبحريٌّ فالبري يقتل آكله والبحري يضره . اهـ وقد سلط الله عز وجل على قوم فرعون الضفادع فملأت بيوتهم وطعامهم وشرابهم ، ثم سلط عليهم الدم فصاروا لا يتناولون شيئا إلا وجدوه مغطى بالدم وقد امتزجت به مطاعمهم ومشاربهم وكان من آيات الله أن صان بني إسرائيل من كل هذه العقوبات . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ﴾ أي علامات ودلالات على صحة نبوة موسى عليه السلام ومعجزات مؤيدات لصدقه في أنه رسول من رب العالمين ، وقد

جعلها الله عز وجل متواترة متتابعة يتلو بعضها بعضا . وقد فصل بينها ،
وَبَيَّنَّا لَهُمْ حَتَّى لَا يَشْكُلَ عَلَى عَاقِلٍ أَنَّهَا آيَاتٌ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَنَّهَا تَحْذِيرٌ
مِنْ نَقْمَةٍ تَكُونُ أَكْبَرَ مِنْهَا ، كَمَا فَعَلَ بِهِمْ لَمَّا عَتَوْا فَأَغْرَقَهُمْ فِي الْيَمِّ وَقَضَى
عَلَيْهِمْ ، وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ قَالَ ابْنُ
جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : يَقُولُ تَعَالَى ذَكَرَهُ : فَاسْتَكْبَرُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَرْسَلَ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ
وَتَصْدِيقِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَاتَّبَاعِهِ عَلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ ، وَتَعْظُمُوا عَلَى اللَّهِ
وَعَتُّوا عَلَيْهِ ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ يَقُولُ : كَانُوا قَوْمًا يَعْمَلُونَ بِمَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ مِنْ
الْمَعَاصِي وَالْفُسْقِ عُتُّوا وَتَمَرَّدُوا . اهـ وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ
الرَّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعِ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِئَن تَكْشِفَ عَنَّا الرَّجْزَ
لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلِنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرَّجْزَ إِلَى أَجَلٍ
هُمْ بِالْغَوَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا
بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ أَيُّ وَلَمَّا نَزَلَتْ بِهِمْ هَذِهِ الْعُقُوبَاتُ وَهِيَ الطُّوفَانُ
وَالْجَرَادُ وَالْقُمَّلُ وَالضَّفَادِعُ وَالدَّمُ وَالْمُتَّهَمُ أَلَمَّا شَدِيدًا صَارُوا يَلْجِثُونَ إِلَى مُوسَى
عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَدْعُو اللَّهَ لَهُمْ لِيَكْشِفَ عَنْهُمْ هَذَا الرَّجْزَ ، وَيَعِدُّوهُ بِأَنَّهُ إِذَا
كَشَفَ الرَّجْزَ عَنْهُمْ آمَنُوا بِهِ وَأَرْسَلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَهَذَا شَبِيهٌ بِمَا كَانَ بَيْنَ
قَرِيشٍ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ حِينَمَا دَعَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعِينَهُ عَلَى قَرِيشٍ
بَسَنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ أَوْ أَشَدَّ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ ، فَذَهَبُوا إِلَى رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ وَسَأَلُوهُ أَنْ يَدْعُو اللَّهَ لِيَكْشِفَ عَنْهُمْ هَذَا الْعَذَابَ ، وَقَالُوا رَبَّنَا اكْشِفْ
عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ إِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الْعَذَابَ ، فَلَمَّا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ
الْعَذَابَ اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي
صَحِيحَيْهِمَا وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ فِي بَابِ إِذَا اسْتَشْفَعَ الْمُشْرِكُونَ بِالْمُسْلِمِينَ عِنْدَ
الْقَحْطِ ، مِنْ طَرِيقٍ مَسْرُوقٍ قَالَ : أَتَيْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ فَقَالَ : إِنْ قَرِيشًا أَبْطَأُوا

عن الإسلام فدعا عليهم النبي ﷺ فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام، فجاءه أبوسفيان فقال: يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم، وإن قومك هلكوا فادع الله، فقرأ: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ ثم عادوا إلى كفرهم، فذلك قوله: ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾ يوم بدر ثم قال البخاري: وزاد أسباط عن منصور: فدعا رسول الله ﷺ فَسُقُوا الغيث. وهكذا لجأ قوم فرعون إلى موسى عليه السلام ليدعو الله عز وجل حتى يكشف الرجز عنهم، فدعا موسى عليه السلام ربه فكشف عنهم الرجز الذي أنزله بهم ورفع العذاب عنهم إلى أجل هم بالغوه أي ليستوفوا أيامهم التي جعلها الله لهم من الحياة أجلا، إذا هم ينقضون عهودهم التي عاهدوا موسى عليها ويسيئون على كفرهم ولا يرسلون بني إسرائيل، فلما نكثوا عهودهم أنزلنا بهم نقمنا فسقناهم إلى البحر وأغرقناهم فيه، وقد فعلنا بهم ذلك بسبب تكذيبهم بآياتنا التي أيدنا بها موسى عليه السلام وبسبب ما أقمناه لهم من البراهين الساطعة والحجج القاطعة بأن الله على كل شيء قدير، وأن أعداءه لا يستطيعون الإفلات من عقابه والهروب من عذابه مهما كانوا عليه من القوة والبطش إذا أصروا على الكفر به وتكذيب رسله والغفلة عن آياته التي ينصبها أمامهم، ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ بيان لما وعد به موسى بني إسرائيل حيث رجا الله عز وجل أن يمكن لهم في الأرض وأن يستخلفهم فيها حيث قال لهم: ﴿استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ وقال لهم: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ وقد تمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل

بما صبروا ، وأنجز لهم وعده وأهلك عدوهم واستخلفهم في الأرض وجعلهم
مسيطرين على مشارقها ومغاربها في الشام ومصر ومنحهم بركاتها التي باركها
بها حيث مكن لرسوله سليمان عليه السلام فيها وسخر له الريح تحمله إلى
أطرافها غدوها شهر ورواحها شهر ، وجاءته ملكة سبأ منقادة وأسلمت مع
سليمان لله رب العالمين . وكما قال عز وجل : ﴿ ونريد أن نمنَّ على الذين
استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في
الأرض ونُريَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ وقد أنهى الله
عز وجل بهذه الآيات في هذا المقام من هذه السورة المباركة قصة فرعون وقومه
مع موسى عليه السلام .

قال تعالى : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغِيرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ .

بعد أن قصَّ الله تبارك وتعالى قصة موسى وما لقيه من المتاعب من فرعون وأَنْتَهَى هذه القصة بإغراق فرعون وجنوده في اليم ، وإنجاء موسى ومن تبعه من بني إسرائيل ، شرع هنا في ذكر قصة موسى مع بني إسرائيل ، فما أن استراح موسى عليه السلام من متاعب فرعون وملئه حتى بدأت متاعبه من بني إسرائيل ، حيث رأوا — بعد نجاتهم من فرعون ورؤيتهم معجزة كبرى حيث ضرب موسى بعصاه البحر فانفلق وجعل لهم طريقا في البحر يَسَوا ورأوا بأعينهم غرق فرعون ومن معه — رأوا قوما يعبدون أصناما لهم قد عكفوا عليها فقالوا لموسى عليه السلام : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، فوبخهم موسى عليه السلام وبيَّن لهم أن هَؤُلَاءِ الوثنيين يهلكون أنفسهم بهذا الشرك فهم مبطلون وعملهم باطل ، وذكَّرههم بفضل الله وآلائه عليهم وتخليصهم من العذاب المهين الذي وقع عليهم من فرعون وملئه ، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي وقطعنا بموسى وقومه البحر وعبرنا بهم من الشاطئ الغربي إلى الشاطئ الشرقي ، وقد بيَّن الله تبارك وتعالى

كيفية عبورهم البحر حيث قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ
 بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ * فأتبعهم
 فرعونُ بجنوده فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وأضل فرعونُ قومه وما هدى ﴿
 وقال عز وجل : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ * فأرسل
 فرعونُ في المداائن حاشرين * إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ *
 وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم *
 كذلك وأورثناها بني إسرائيل * فأتبعوهم مُشْرِقِينَ * فلما تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ
 أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فأوحينا إلى
 موسى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ *
 وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الْآخَرِينَ ﴿
 وقد أقر رسول الله ﷺ على أَنْ إغراق فرعون وقومه ونجاة موسى وقومه كان
 في اليوم العاشر من المحرم فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من
 حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أَنَّ رسول الله ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَوَجَدَ
 الْيَهُودَ صِيَامًا يَوْمَ عَاشُورَاءَ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي
 تَصُومُونَهُ ؟ فَقَالُوا : هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ أَنْجَى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى وَقَوْمَهُ وَغَرَّقَ فِرْعَوْنَ
 وَقَوْمَهُ ، فَصَامَهُ مُوسَى شُكْرًا ، فَنَحْنُ نَصُومُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : فَنَحْنُ
 أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ ، فَصَامَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ . ومعنى قوله عز
 وجل : ﴿ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا
 كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ * إِنَّ هَؤُلَاءَ مُتَّبَرُّ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿ أي وبعد أَنْ قطعنا ببني إسرائيل البحر بعد هذه الآيات الكبار
 التي شاهدوها ورأوها بأبصارهم في فلق البحر لهم وإغراق عدوهم فلم
 تزجرهم تلك الآيات ولم ينتفعوا بهذه العبر ولم يتعظوا بهذه المواقظ المُبْصِرَةِ
 التي صنعها الله عز وجل لهم فما أَنْ خرجوا من البحر حتى مَرُّوا بِقَوْمٍ عَاكِفِينَ

على أصنام لهم يلازمونها ويقيمون حولها ويعبدونها من دون الله فقال بعض جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام: اتَّخِذْ لَنَا صنما نعبده كما يعبد هؤلاء أصنامهم وتماثيلهم، فوبخهم موسى عليه السلام، ونبَّههم إلى أن هذا الطلب جهالة منكم، فإن العبادة لا تنبغي ولا تصح إلا لله الواحد القهار، إنكم أيها القوم تجهلون عظمة الله وحقه في أن يُفَرَّدَ بالعبادة وأن يُخَصَّصَ بالألوهية فكيف لا تعلمون أنه لا إله إلا الله، وأن الإقرار بكلمة التوحيد يقتضي أن لا يُصَرَفَ شيء من العبادة مهما كان إلا لله وحده لا شريك له .

إنَّ هؤلاء العاكفين على أصنامهم مُتَبَرِّ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون أي هالك فاسد، ومضمحل زائل لا يعود على أهله إلا بالشر ولا يجلب شيئا من الخير لهم فكلُّ عبادةٍ لغير الله باطلة، والله أغنى الشركاء عن الشرك، فمن أشرك معه غيره رَدَّه وشِرْكُهُ وأحبط عمله، ومعنى قوله عز وجل: ﴿قَالَ أَغِيرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي أَطْلُبُ لكم شيئا تعبدونه غير الله، الذي فضَّلكم على عَالَمِي زمانكم حيث بعث إليكم رسوله وكنيسته موسى، فعليكم أن تعرفوا نعمة الله عليكم ولا تَنْسُوا هذه الآلاء التي منحكم إياها ولا يليق بواحد منكم أن يطلب معبوداً غير الله عز وجل ليشابهه المشركين عَبَدَةَ الأوثان، ولا شك أنه لم يكن كلُّ بني إسرائيل قد طلب إلهاً آخر، وإنما هو طلب بعض جهلتهم، وقد ذكر كثير من المفسرين ومؤلفي السيرة النبوية خبراً من طريق معمر عن الزهري عن سنان بن أبي سنان الديلي عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قَبْلَ حُتَيْنٍ فمررنا بسدرة، فقلت، يا نبي الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون عليها، فقال النبي ﷺ: الله أكبر، هذا كما قال بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . إنكم تركبون سَنَنَ من كان قبلكم . قال ابن كثير في تفسيره: أورده ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم

من حديث كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده مرفوعا . اهـ أقول : قال الحافظ ابن حجر في التقریب : كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف المزني المدني ضعيف من السابعة ، منهم من نسبته إلى الكذب . اهـ فإن صح هذا الخبر مُجَلَّ على أنه قول واحد من حدثاء العهد بالجاهلية كما جاء مصرحاً به في رواية عن أبي واقد الليثي قالوا : وقد كان لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها : ذات أنواط يأتونها كل سنة فيُعَلَّقُونَ عليها أسلحتهم ، ويذبحون عندها ، ويعكفون عليها يوما ، قال أبو بكر الطرطوشي المالكي : فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرَةً أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها فاقطعوها . اهـ والاستفهام في قوله : ﴿أَغَيَّرَ اللهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهَا﴾ للإنكار والتعجب والتوبيخ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ، وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيمٌ ﴿ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله عز وجل : ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره لليهود من بني إسرائيل الذين كانوا بين ظهرائي مهاجر رسول الله ﷺ : واذكروا مع قبلكم هذا الذي قلتموه لموسى بعد رؤيتكم من الآيات والعبر ، وبعد النعم التي سَلَفَتْ مني إليكم والأأيادي التي تَقَدَّمَتْ — فِعَلَكُمْ ما فعلتم — ﴿إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وهم الذين كانوا على منهاجه وطريقته في الكفر بالله من قومه ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يقول : إِذْ يُحْمَلُونَكُمْ أَقْبَحَ الْعَذَابِ وَسَيِّئُهُ . اهـ وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تبارك وتعالى في سورة البقرة حيث يقول عز وجل : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴿ كما أن بها شَبَهاً من قوله تبارك

وتعالى في سورة إبراهيم حيث يقول عز وجل : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وقد ذكرت في تفسير آية سورة البقرة أن قوله عز وجل : ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ هو تفسير لقوله عز وجل : ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ والعطف بالواو في سورة إبراهيم حيث قال عز وجل : ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ للإشارة إلى أن فرعون وجنده كانوا يُوقعون بني إسرائيل ألوانا من العذاب المهين وكان منها قتلُ آبائهم واستحياءُ نسائهم ، فعطف بالواو في سورة إبراهيم لبيان أنهم كانوا يعذبونهم بالذبح واستحياء النساء وغير ذلك ، إذ كانوا يكلفون الذكور بالأعمال القذرة والشاقة من قطع الحجارة من الجبال وحملها ونقلها لبناء قصور آل فرعون ، ومن الحراثة والزراعة وحمل القاذورات ، واستخدام النساء في أعمال غير كريمة وفي خدمة نساء آل فرعون مبالغةً في إذلال بني إسرائيل وشدة إيذاؤهم ، ولذلك وصف الله تبارك وتعالى ذلك بقوله : ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ في تذييل هذه الآيات في هذه المقامات الثلاث من الذكر الحكيم ، كما أشار عز وجل إلى أن العذاب الذي كان يوقعه فرعون وجنوده ببني إسرائيل كان عذاباً مُهيناً حيث يقول تبارك وتعالى في سورة الدخان : ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ كما وصف ما أوقعه فرعون وجنوده ببني إسرائيل بأنهم صاروا في كرب عظيم حيث يقول عز وجل : ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ والمقصود من هذه الآيات هو تذكير بني إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﷺ ولمن يجيء بعدهم منهم بأن هذا الإنجاء لأبائهم هو إنجاء لهم ، إذ أن تنجية الآباء هي تنجية للأبناء والذرية

إذ لو هلك الآباء تحت التعذيب ما وُجدَ هؤلاء الأبناء ، والمراد بالبلاء الامتحان
والاختبار بالخير والشر ليظهر في عالم الوجود، الشاكرون والصابرون أو
الجاحدون والكافرون كما قال عز وجل : ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وكما قال تبارك وتعالى : ﴿وَنَبِّلُوكُم بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا
تُرجعون﴾ .

قال تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ * ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك ، قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ * قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ .

بعد أن نَجَّى الله موسى وقومه وأغرق فرعون وجنده ، وجاوز عز وجل بيني إسرائيل البحر ورأوا قوما يعكفون على أصنام لهم وقالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، وأن موسى عليه السلام وبخهم على ذلك وذكرهم بنعمة الله عليهم حيث نجاهم من آل فرعون ، وأن العبادة لا تجوز إلا لله وحده فهو المستحق لجميع أنواعها ومن عَبَدَ غيرَ الله فهو هالك وعمله مضمحل زائل فاسد لا يعود عليه إلا بالشر والعذاب ، وقد كان موسى عليه السلام عندما بعثه الله إلى فرعون إنما بعثه بأصول الدين من التوحيد وإقامة الصلاة لذكر الله ووجوب الإيمان بالبعث بعد الموت ، ولم يكن قد أنزل عليه التوراة ، فلما انتهت مهمة موسى عليه السلام الخاصة بفرعون وملئه ، وأغرق الله فرعون وجنده ، وَخَلَصَ موسى إلى سيناء وصار مختصا بيني إسرائيل وهم في حاجة ماسَّة إلى نظام يشمل حوائجهم في معاشهم ومعادهم ، هَيَّاَ الله عز وجل موسى عليه السلام لِيُلْقِيَ عليه التوراة المشتملة على الأحكام التي تسلك بأهلها صراط الله المستقيم ، وحالة موسى عليه السلام هذه تُشَبِّهُ حالة رسول الله محمد ﷺ في حياته النبوية قبل الهجرة وبعدها ، فإن القرآن المكّي كان ينزل لتقرير التوحيد والرسالة والإيمان بالبعث بعد الموت أما القرآن المدني فإنه

زيادة على ذلك جاء بتقرير نظام الدولة الإسلامية وإقامة المجتمع السعيد، وما يحتاجه كل فرد لصالح معاشه ومعاده، وقد واعد الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام أربعين ليلة يتهاى فيها لتلقي الشريعة، وقد سأله بعض قومه من المتعنتين المنتظعين أن يريهم الله جهرة، وأن يسأل ربه ذلك، ولما أراد موسى التوجه لميقات ربه قال لأخيه هارون: أنت خليفتي على بني إسرائيل فأصلح أمورهم ولتكن سياستك لهم سياسةً رشيدة، واحذر دعاة الضلالة المفسدين في الأرض، فلما جاء موسى لميقات ربه وقد اختار من قومه سبعين رجلاً لهذا الميقات فلما انتهوا إلى الجبل وكلم الله موسى تكليماً قال موسى: رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن كان هذا الطور لا ينهد إذا تجلى الله له فإنك تقدر على رؤيتي، وأراد الله عز وجل أن يضرب لموسى وغيره مثلاً على أن الله عز وجل قد احتجب بالنور عن خلقه لأنهم لم يهيئوا في هذه الحياة الدنيا لرؤية الله، وإنما يرونه في الدار الآخرة، إذا ماتوا على الإيمان. كما قال عز وجل: ﴿وَجُودُ يَوْمُئِذٍ نَاضِرٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاضِرَةٌ﴾ لأن المؤمنين يجعلهم الله عز وجل في الدار الآخرة أهلاً للتمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، بخلاف حالهم في الدنيا، فإن حجابهم عز وجل النور أو النار لو كشفه لأحرقن سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَنَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أي وأوحينا إلى موسى أن يهيئ نفسه لمناجاتنا وكلامنا وتلقي التوراة منا بلا واسطة في موعد وقته له بثلاثين ليلة وعشر ليالٍ فبلغ الميقات تمام أربعين ليلة، وفي هذا التعبير من الدقة ما ليس فيما لو قيل: واعدناه شهراً وعشر ليالٍ لأن الشهر القمري قد يكون تسعاً وعشرين ليلة كما يكون ثلاثين ليلة، كما أن الشهر عند القبط قد يكون ثلاثين ليلة، وقد يكون إحدى وثلاثين ليلة، والأشهر التي تتعلق بها العبادات هي الأشهر القمرية، كما قال عز

وجل ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ وثبوتها يكون مبنياً على رؤية الهلال، ويحتاج إلى تحريره، وقد أراح الله عز وجل موسى عليه السلام من انتظار رؤية الهلال وتحريره لأن الله العليم الخبير يعلم أن هذا الشهر من الميقات المؤقت لموسى عليه السلام هو ثلاثون ليلة وليس تسعا وعشرين ليلة، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المُفْسِدِينَ﴾ أي ولما عَزَمَ موسى عليه السلام على التوجه لميقات ربه وَصَّى أخاه نبي الله ورسوله هارون عليهما السلام وقال له: أنت خليفتي على بني إسرائيل حتى أرجع من مناجاة الله وتلقي الشريعة، فأصلح أمورهم بحملك إياهم على طاعة الله وعبادته ولتكن سياستك لهم سياسة رشيدة، واحذر دعاة الضلالة المفسدين في الأرض، ولا تمكن أحدا منهم من العمل بغير طاعة الله، لأن إظهار المعصية إفساد في الأرض، وليس مقصود موسى عليه السلام أنه يخاف على هارون أن يتبع سبيل المفسدين، لأنه يعلم أن هارون عليه السلام نبي كريم ورسول عظيم يعصمه الله عز وجل من سلوك سبيل المفسدين، وإنما المقصود هو التذكير والتنبيه والتحذير لبني إسرائيل من الفساد في الأرض على حد قول القائل: إياك أعني واسمعي يا جارة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك، قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلَّ ربه للجبل جعله دكاً وخَرَّ موسى صِعْقاً، فلَمَّا أَفَاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ أي ولما جاء موسى لميقات الله تعالى وَحَصَلَ له التكليم من الله وبلغ هذه المرتبة العالية التي سُمِّيَ بسببها كليم الله سأل الله عز وجل أن ينظر إليه فقال: ﴿رب أرني أنظر إليك قال لن تراني﴾ أي لأنه لن يطيق بَشَرُ النظر إلَيَّ وهو في دار الدنيا لأن حجاب ذي الجلال والإكرام النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما

انتهى إليه بصره من خلقه كما جاء في صحيح مسلم حيث قال رحمه الله :
 حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالا : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش
 عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن أبي موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ
 بخمس كلمات فقال : إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يَخْفِضُ
 القسط ويرفعه ، يُرْفَعُ إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعَمَلُ النهار قبل
 عمل الليل ، حجابُه النور — وفي رواية أبي بكر — النار ، لو كشفه لأحرقت
 سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بَصَرُهُ من خلقه — وفي رواية أبي بكر عن
 الأعمش — ولم يقل حدثنا . اهـ وقد زعم بعض أهل الأهواء أن قوله تبارك
 وتعالى لموسى عليه السلام : ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ دليل على استحالة الرؤية في الدنيا
 والآخرة بدعوى أن ﴿لَنْ﴾ تفيد تأييد النفي ، وجهلوا أن الله عز وجل قال في
 اليهود : ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ثم قال : ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا
 قَدِمْت أَيْدِيهِمْ﴾ مع أنهم سَيَتَمَنَّوْنَ الموت وهم في جهنم ، إِذْ يُنَادُونَ مع
 نظرائهم من الكفار : ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ وقوله تبارك وتعالى
 لموسى عليه السلام : ﴿وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ ،
 فلما تجلَّى ربُّه للجبل جعله دكًا وخَرَّ موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك
 تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴿أي إذا أردت أن تعرف أنك في هذه الدنيا لن
 تطبق النظر إِلَيَّ فانظر إلى الجبل ذلك الطور الأشم فإن كان هذا الطُّور لا
 يَنْهَدُ إذا تجلَّى الله له فإنك تقدر على رؤيتي ، وأراد الله عز وجل أن يضرب
 لموسى وغيره مثلا على أن الله عز وجل قد احتجب عن خلقه بالنور لأنهم لم
 يَهَيِّئُوا في هذه الحياة الدنيا لرؤية الله تعالى ، وإنما يراه في الجنة من يموت على
 الإيمان ، وقد كان موسى عليه السلام قد اختار من قومه سبعين رجلا لهذا
 الميقات فلما تجلَّى الله تبارك وتعالى للجبل جعله دكا أي مدكوكا مستويا
 بالأرض وخر موسى صعقا أي وسقط موسى مغشيا عليه ، وقد خر كذلك

السبعون رجلا الذين كانوا مع موسى عليه السلام، فلما أفاق موسى عليه السلام من صعقته اعتذر إلى الله عز وجل وقال: تبت إليك وأنا أول المؤمنين، ولما رأى موسى عليه السلام أن السبعين الذين معه لا يزالون في صعقتهم دعا الله عز وجل أن يكشف عنهم، واعتذر إلى الله عز وجل بأنه أراد يسْؤَالِهِ أن يقطع شبهة هؤلاء السفهاء الذين كانوا سألوه قبل أن يتوجه لميقات ربه أن يريهم ربهم جهرة، وقد أجاب الله عز وجل دعوة موسى عليه السلام، فأفاق السبعون من صعقتهم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى صعقة السبعين رجلا في الآية الخامسة والخمسين بعد المائة من هذه السورة الكريمة حيث يقول عز وجل: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا مِمِّيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّاي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِينَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن قول بعض بني إسرائيل لموسى عليه السلام: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، هو من أكبر الكبائر حيث يقول عز وجل: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بثبوت رؤية المؤمنين ربهم في الجنة، وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابيا من أصحاب رسول الله ﷺ وقد أخرجها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن، ولا ينفى عنها إلا من زاغ عن مذهب أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء وقد سقت جملة من هذه الأحاديث التي أخرجها البخاري ومسلم في صحيحيهما في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ كما سقت دليلا من صريح كتاب الله تبارك وتعالى في ذلك حيث يقول عز وجل: ﴿وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾

وقوله تبارك وتعالى : ﴿قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي
وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ قال ابن كثير رحمه الله : يذكر
تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على عَالَمِي زمانه برسالاته وكلامه ، ولا
شك أن محمدًا ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين ، ولهذا اختصه الله بأن
جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة ، وأتباعه
أكثر من أتباع الأنبياء كلهم ، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل ثم
موسى بن عمران كليم الرحمن عليه السلام ، ولهذا قال الله تعالى له : ﴿فخذ
ما آتيتك﴾ أي من الكلام والمناجاة ﴿وكن من الشاكرين﴾ أي على ذلك ،
ولا تطلب ما لا طاقة لك به . اهـ وهذا المقام من الأدلة القطعية على ثبوت
صفة الكلام لله عز وجل ، والله الحمد والمنة .

قال تعالى : ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾
فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها، سأوريكم دار الفاسقين *
سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا
يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه
سبيلاً، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * والذين كذبوا بآياتنا
ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون * واتخذ قوم
موسى من بعده من حلبيهم عجلاً جسداً له خوار، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا
يهديهم سبيلاً، اتخذوه وكانوا ظالمين * ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد
ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين *.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أنه واعد موسى عليه السلام أربعين ليلة يتهياً
فيها لتلقي التوراة وأن موسى عليه السلام وصّى أخاه هارون عليه السلام أن
يخلفه في بني إسرائيل وأمره أن يصلح أمورهم وأن تكون سياسته لهم سياسة
رشيدة، وحذره من دعاة الضلالة المفسدين في الأرض، وأن موسى عليه
السلام لما جاء لميقات ربه وكلمه الله تكليماً سأل موسى ربه أن ينظر إليه
فأفهمه الله عز وجل أنه لن يستطيع ذلك وضرب له ولغيره مثلاً بأن ينظر إلى
الجبلى فلما تجلى الله عز وجل للجبلى جعله دكا وخر موسى صعقاً، فلما أفاق
اعتذر إلى الله عز وجل وقال : تبت إليك وأنا أول المؤمنين، فبشره الله عز
وجل بأنه اصطفاه على عالمي زمانه برسالاته وبكلامه، وأمره أن يستمسك بما
يوحىه الله عز وجل إليه وأن يكون من الشاكرين، شرع هنا في بيان أنه عز
وجل قد كتب لموسى في الألواح بيان جميع ما تحتاجه بنو إسرائيل من
التشريعات الشاملة لمعاشهم ومعادهم وما يسلك بهم صراط الله المستقيم
وأنه تبارك وتعالى أمر موسى عليه السلام أن يستمسك بتعاليم هذه الشريعة

وأن يأمر بني إسرائيل أن يستمسكوا بها ، وتوعد تبارك وتعالى من ينحرف عن صراطه المستقيم ويفسق عن أمر الله ويتكبر في الأرض بغير الحق بأن يخذله الله عز وجل فلا يسدده ولا يعينه على الخير ولا يهديه سبيل الرشاد ، فتطمس أمامه الحقائق فيرى الغي رشدًا والرشد غيًا . وذكر عز وجل أن قوم موسى عليه السلام قد اتخذوا من بعد خروجه للميقات عجلا جسدا له خوار وجعلوه إلهًا وعبدوه ، وأنه لما سُقِطَ في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا تابوا إلى الله وندموا على جريمتهم وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَكُنَّا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَكُنَّا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي وكتبنا لموسى عليه السلام في ألواح الشريعة من كل شيء يحتاج إليه بنو إسرائيل ومما لا غنى لهم عنه من معرفة ربهم وأحكام دينهم ومراسيم شريعتهم وما يتعظون به ويرقق قلوبهم وجعلنا فيها تبيان كل شيء حتى لا يضلوا إن استمسكوا بهذه الشريعة ، والألواح جمع لوح قال ابن منظور في لسان العرب المحيط : اللُّوح : كل صفيحة عريضة من صفائح الخشب . الأزهري : اللُّوح صفيحة من صفائح الخشب ، والكتفُ إذا كتب عليها سميت لوحًا ، واللوح : الذي يكتب فيه . اهـ وظاهر قوله تبارك وتعالى ﴿ وَكُنَّا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ ﴾ يدل على أن موسى عليه السلام تلقى التوراة من ربه مكتوبة في الألواح ، وأنها نزلت جملة واحدة ، أما القرآن العظيم فقد أنزله الله عز وجل على نبيه ﷺ مُفْرَقًا في ثلاث وعشرين سنة تثبتًا لفؤاد رسول الله ﷺ كما قال عز وجل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ وقد وصف

الله عز وجل التوراة بالهدى والنور وأن فيها تفصيل كل شيء حيث يقول عز وجل : ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بَلَقَاءَ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي فاستمسك بأحكام التوراة وعض عليها بالنواجذ وأمر بني إسرائيل بأن يستمسكوا بها ويلتزموا بأحكامها ويعضوا على تعاليمها بالنواجذ فإنها قد اشتملت على أحسن التعاليم التي تسلك بأصحابها والملتزمين بها صراط الله المستقيم ، ولفظ أحسن قد يرد لغير التفضيل وكذلك لفظ خير، ومن ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ وقد تكون بعض الأحكام الشرعية على التخيير بين الحسن والأحسن كالتخيير بين القصاص والعفو، إذ العفو أفضل وأحسن، كما قال عز وجل : ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذْنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ وكما قال عز وجل ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ والشرائع السماوية تأمر بالعدل وتحض على العفو في مقامات كثيرة ومعنى قوله عز وجل : ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي ستبصرون وترون بأعينكم عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي ، وكيف يكون مآلهم من الهلاك والدمار والتباب والخسران؟ وفي هذا حض على الاستمسك بالتوراة ووعيد شديد لمن تكبر عنها وخرج على تعاليمها وكفر بها ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿سَأَصْرَفُ

عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يَرَوْا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يَرَوْا سبيل الرشـد لا يتخذوه سبيلا وإن يَرَوْا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم ، هل يُجْزَوْنَ إلا ما كانوا يعملون ﴿ وعيد شديد أيضا لمن تكبر في الأرض بغير الحق وتهديـدٌ له بأن الله عز وجل سيخذله ولا يسدده ولا يوفقه للخير فتتطمس الحقائق أمامه فيرى الرشـد غيا والغـي رشـدا فيضيق صدره إذا سمع ذكر الله وينشرح صدره للطاغوت كما قال عز وجل : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ فهؤلاء المتكبرون في الأرض بغير الحق يُجْرَمُونَ من الانتفاع بآيات الله الكونية والمتلوة ، قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ أي سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق ، أي كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل ، كما قال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ وقال بعض السلف : لا ينال العلم حيي ولا مستكبر ، وقال آخر : من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبدا ، وقال سفيان بن عيينة في قوله : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ قال : أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي . اهـ وقال ابن جرير رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يُجْزَوْنَ إلا ما كانوا يعملون ﴾ قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره : وهؤلاء المستكبرون في الأرض بغير الحق وكلُّ مُكذِّبٍ حجج الله ورسله وآياته وجاحـدٍ أنه يوم القيامة مبعوث بعد مماته ، ومُنْكَرٍ لِقَاءِ الله في آخرته ذَهَبَتْ أعمالهم فبطلت ، وحصلت لهم أوزارها فثبَّتت ، لأنهم عملوا لغير الله ، وأتعبوا أنفسهم في غير ما يرضي الله ، فصارت

أعمالهم عليهم وبالا، يقول الله جل ثناؤه: ﴿هل يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول: هل يثابون إلا ثواب ما كانوا يعملون؟ فصار ثواب أعمالهم الخلود في نار أحاط بهم سراقها، إذ كانت أعمالهم في طاعة الشيطان دون طاعة الرحمن، نعوذ بالله من غضبه. اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حُلِيِّهِمْ عَجَلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً، اتخذوه وكانوا ظالمين﴾ * ولما سُقِطَ في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرجعنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي وعكف قوم موسى من بعد أن فارقهم متجها لميقات الله على صنم صنعه لهم السامري من حليهم عجلاً جسداً يخرج من فمه صوت البقر مع أن هذا التمثال لا حياة فيه، وقد عَمُوا عن أنه لا يكلمهم ولا يهديهم، فعبدوه من دون الله وارتكبوا أقبح الظلم وأبشعه حيث أشركوا بالله وعبدوا تمثالا على صورة مجسمة لعجل، وقد أضلهم به السامري لما شعر أنهم مائلون لعبادة الصور والتماثيل حيث طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً مثل الأصنام التي رأوا قوما يعكفون عليها بعد أن جاوز الله بهم البحر، وقد رَوَّجَ له دعاة الضلالة منهم وقالوا: هذا إلهكم وإله موسى، وقد نصحهم هارون عليه السلام وقال لهم: يا قوم إنما فُتِنْتُمْ به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري، قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى، والظاهر أن موعظة هارون عليه السلام أثرت في بعضهم فندموا وتابوا إلى الله وعلموا أنهم قد ضلوا وقالوا لئن لم يرجعنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين، قال الزجاج: والجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز، إنما معنى الجسد معنى الجثة فقط. اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولما سُقِطَ في أيديهم﴾ هو كناية عن ندمهم على ما فرط منهم يقال للنادم على ما فعل المتحسر على ما فرط منه: سُقِطَ في يده. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ أي وعلموا أنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً فتابوا من جريمتهم وآبوا إلى ربهم وثابوا إلى رشدهم.

قال تعالى : ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بشئما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴾ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا ، وكذلك نجزي المفترين ﴾ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ ولما سكنت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴿ .

بعد أن ذكر الله عز وجل أنه قد كتب لموسى في الألواح بيان جميع ما تحتاجه بنو إسرائيل من التشريعات الشاملة لمعاشهم ومعادهم ، وما يسلك بهم صراط الله المستقيم وأنه عز وجل أمر موسى عليه السلام أن يستمسك بتعاليم هذه الشريعة وأن يأمر بني إسرائيل بأن يدوروا في فلكها ، وتوعد من ينحرف عنها ويفسق عن أمر الله ويتكبر في الأرض بغير الحق بأن يخذله الله عز وجل فتنطمس أمامه الحقائق فيرى الرشد غيا والغى رشدا ، وذكر عز وجل أن قوم موسى قد اتخذوا من بعد خروجه للميقات عجلا جسدا له خوار وجعلوه إلهًا وعبدوه ، وأنه لما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا تابوا من جريمتهم وندموا على خطيئتهم ، شرع عز وجل هنا يبين موقف موسى من قومه حين رجع إليهم ، وموقفه من أخيه هارون عليه السلام ، وموقف

هارون عليه السلام من ذلك ، وتوعد عز وجل الذين اتخذوا العجل ورغَّب
 في التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ، وذكر قصة صَعَق السبعين الذين كانوا مع
 موسى عليه السلام في الميقات ، وضراعة موسى إلى الله عز وجل أن يَمُنَّ
 عليهم بالإفاقة من صعقتهم ، وأن يغفر لهم ويرحمهم ، وفي ذلك يقول عز
 وجل : ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ﴾ إلى قوله تبارك وتعالى :
 ﴿ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ ومعنى قوله عز وجل :
 ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ﴾ أي ولما عاد موسى إلى قومه من
 ميقات ربه رجع إليهم ممتلئاً غَضَبًا وحزناً ، وسَبَبَ رجوعه غضبان أسفاً أن
 الله تبارك وتعالى قد أعلمه وهو في المناجاة أن قومه قد عبدوا عجلاً صَنَعَهُ لهم
 السامري ، كما ذكر ذلك عز وجل حيث يقول : ﴿ وما أَغْجَلَكْ عن قومك يا
 موسى ﴾ قال هم أولاء على أثري وَعَجَلْتُ إليك رب لترضى * قال فإنا قد
 فَتَنَّا قومك من بعدك وأضلهم السامري * فرجع موسى إلى قومه غضبان
 أسفاً ومعنى قوله عز وجل : ﴿ قال بشئنا خلفتموني من بعدي أعجلتُم أمر
 ربكم ﴾ أي بشئ وقَبَحَ وَدُمَّ الفعلُ الذي فعلتموه من عبادة العجل بعد فراقِي
 إياكم وَخَلَفْتُمُونِي في قومي وديني بهذا الشر الذي ارتكبتموه ، أرغبتم أن
 يُعَجَّلَ الله أمره بإنزال العذاب بكم وأن يحل عليكم غضب من ربكم ، وأنتم
 قد علمتم أن الله عز وجل قد أنزل عقوبته بفرعون وقومه لما عَتَوْا عن أمر
 ربهم ، وشهدتم بأنفسكم مصارعهم ، وقوله عز وجل : ﴿ وَالْقَى الْأُلُوْح
 وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ، قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي
 فَلَا تُشْمِثْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ قال رب اغفر لي
 ولأخي وَأَدْخِلْنَا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴾ بيان لموقف موسى عليه
 السلام من أخيه وخليفته في قومه أثناء غيابه هارون عليه السلام ، وموقف
 هارون من ذلك ، وما اعتذر به لموسى عليه السلام ، وأن موسى عليه السلام

قبل عذره وسأل الله عز وجل أن يغفر له ولأخيه هارون وأن يدخلهما في رحمة
 أرحم الراحمين . ومعنى : ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ أي
 ووضع ألواح التوراة على الأرض بسرعة وأمسك برأس هارون وأخذ يجذبه
 نحوه ليعاتبه على عدم رده لهؤلاء الذين عبدوا العجل ، ومعنى قوله : ﴿قَالَ
 ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا
 تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي فاعتذر هارون عليه السلام لموسى ﷺ وقال
 مخاطباً له : يا ابن أُمي لا تجذبني هكذا ولا تأخذ برأسي ، فقد نصحت لهم
 وحذرتهم من عبادتهم العجل وشركهم بالله وقلت لهم يا قوم إنما فتنتم به وإن
 ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري ، وأنهم قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى
 يرجع إلينا موسى ، فأصر دعاة الضلالة منهم على باطلهم ، واستضعفوني
 وكادوا يقتلونني فلا تفعل بي شيئاً يكون سبباً لشيأتهم بي ، ولا تؤاخذني بما
 فعل هؤلاء الظالمون فإني نهيتهم عن المنكر فلم ينتهوا وزجرتهم فلم ينزجروا .
 وقد حاول هارون عليه السلام أن يستدر شفقة موسى عليه السلام وحنانه
 فناداه بقوله : يا ابن أُمي مع أنه شقيقه فهو أخوه لأبيه وأمه ، لأن ذكر أمه
 يجعله أرق له وأكثر حناناً وشفقة عليه صلوات الله وسلامه عليهما . وقد قبل
 موسى اعتذار أخيه هارون عليهما السلام وقال : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي
 وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وقد ذكر الله تبارك وتعالى في سورة
 طه مزيد بيان لما كان بين موسى صلى الله عليه وسلم وقومه من عبدة العجل
 وما أجابوه به ، وما ذكروه عن السامري ، وموقف هارون عليه السلام ،
 ومعاقبة السامري وتحريق العجل ونسفه في اليم ، والتأكيد على أنه لا إله إلا
 الله الذي وسع كل شيء علماً حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى
 قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ، قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ، أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ
 الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْلِلَ عَلَيْكُمْ غُضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي * قَالُوا مَا

أخلفنا موعدك بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى * قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي * قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا * إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا * وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعَجَلَ سَيُنَاغِمُ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ * وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وعيد لعبدة العجل ولكل مُفْتَرٍ عَلَى اللَّهِ، ووعد لكل من وقع في المعاصي ثم أقلع عنها وتاب إلى ربه وانقاد لشرعه ظاهرًا وباطنًا، أي إن الذين عبدوا العجل واتخذوه إلهًا من دون الله وأصروا على ذلك وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم سيحل بهم سخط من ربهم ويصيبهم الذل والهوان في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأشق، وهذا جزاء كل من يفترى على الله ويتخذ إلهًا غيره، ويصر على ضلالتة، وأما من وقع في المعاصي واجترح السيئات سواء كانت شركًا أو ما دونه من الكبائر لكنه أقلع عنها وتاب منها وانقاد لشرع الله ظاهرًا وباطنًا فإن الله عز وجل يعفو عنه ويغفر له ويتوب عليه لأنه هو الغفور الرحيم، كما قال عز وجل:

﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم﴾ * وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتكم العذاب ثم لا تنصرون ﴿وقوله عز وجل: ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هُدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ أي ولما سكن عن موسى الغضب حمل الألواح التوراة وقد كُتِبَ فيها هدى أي بيان لكل ما يحتاجه بنو إسرائيل وتفصيل لكل شيء وفيها رحمة للخلق بإرشادهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في دنياهم ودينهم ويتنفع بذلك منهم الذين يخشون ربهم ويخافونه ويمتنعون عن المعاصي من أجل ربهم فيسلكون صراطه المستقيم. ولفظ سكت يكون بمعنى سكن ومصدره السكْتُ، ويكون بمعنى انقطع عن الكلام ومصدره السكوت. قال الزجاج في تفسيره: يقال: سكت يَسْكُتُ سَكْتًا إذا هو سَكَنَ، وسكت يَسْكُتُ سَكُوتًا وسَكْتًا إذا قطع الكلام. اهـ هذا وفي قوله: ﴿أخذ الألواح﴾ دليل على أنها لم تتكسر عندما ألقاها، ولم يثبت في خبر صحيح أن الألواح تكسرت عندما ألقاها موسى عليه السلام. قال القرطبي رحمه الله: قال أبو الفرج الجوزي: مَنْ يُصَحِّحُ عَنْ موسى عليه السلام أنه رماها رَمَيَ كَاسِرٍ؟ والذي ذُكِرَ في القرآن ألقاها، فَمِنْ أين لنا أنها تكسرت؟ اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال ربِّ لو شئتَ أهلكتهم من قبلُ وإياي أهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تُضِلُّ بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ قد أشرت في تفسير قوله: ﴿فلما تجلَّى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ إلى أن موسى عليه السلام لما أفاق من صعقته واعتذر إلى ربه ورأى موسى عليه السلام أن السبعين الذين معه لا يزالون في صعقتهم دعا الله عز وجل أن يكشف عنهم وأن الله عز وجل قد

أجاب دعوة موسى عليه السلام فأفاق السبعون من صعقتهم ، ومعنى الآية :
واضطحب موسى معه لميقاتنا سبعين رجلا من خيار قومه وفضلائهم ، فلما
تجلى الله للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا وأخذت الصعقة السبعين
الذين كانوا معه ، فلما أفاق موسى اعتذر إلى ربه ودعا الله أن يكشف عن
السبعين صعقتهم ، وقال : رب لو أردت أهلكتنا من قبل أن نسألك الرؤية ،
أتهلكنا بعمل سفهائنا الذين قالوا : أرنا الله جهرة ، وأنت وحدك تفعل ما
تشاء ، وتحكم ما تريد وتختبر عبادك فتفضل من تشاء عدلا وتهدي من تشاء
فضلا ، أنت حافظنا وناصرنا فاستر علينا واحفظنا وأدخلنا في رحمتك وأنت
خير من صفح عن جرم وعفا عن ذنب .

قال تعالى : ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هذنا إليك ، قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ .

بعد أن بين الله تبارك وتعالى موقف موسى من قومه حين رجع إليهم وموقفه من أخيه هارون عليهما السلام وموقف هارون عليه السلام من ذلك وما توعد الله عز وجل به عبَّاد العجل ، وقصة صق السبعين الذين اختارهم موسى لميقات ربه ، وأن موسى عليه السلام تضرَّع إلى الله عز وجل أن يمنَّ عليهم بالإفاقة من صعقتهم وسأل الله عز وجل مغفرته ورحمته بينَ في هذا المقام بقية دعاء موسى عليه السلام وما أجابه الله تبارك وتعالى به مبيِّناً سعة رحمة الله وشروط التأهل لها ، حيث لا ينالها إلا المتقون ، المؤتون الزكاة ، المؤمنون بآيات الله التي يؤيد بها رسله ، المتبعون لرسول الله محمد ﷺ إذا بعث ، المعروف لأهل الكتب السماوية بما وصفه المرسلون لأممهم من صفاته وبخاصة في التوراة والإنجيل ، المبعوث بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإباحة الطيبات وتحريم الخبائث ، وتيسير التشريع ، وأنه لن يفلح إلا من آمن به وأيده ونصره واتبع النور الذي أنزل معه ، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾ إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿فالذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي

الآخرة ﴿أي وتفضل علينا وامنحنا وحقق لنا خير الدنيا والآخرة، بأن تحيينا حياة طيبة في الدنيا وتجعل رزقنا فيها رغدا، وتمنحنا الصحة والعافية والأمن، وتحفظنا من الشرور والمعاصي والآثام، ولا تجعل عيشنا نكدًا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا ما أحيتنا، وهب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما، وتوفنا مسلمين غير خزايا ولا نادمين ولا مفتونين، واجعلنا في الفردوس الأعلى في جنات النعيم، ودعوة موسى عليه السلام هذه شبيهة بدعوة المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثّر الدعاء بها فيقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. ومعنى قوله: ﴿إنا هدنا إليك﴾ أي تبنا وأنبأنا ورجعنا إليك، قال في القاموس المحيط: الهُوْدُ التوبة والرجوع إلى الحق. ومعنى قوله عز وجل: ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء﴾ أي قال الله تعالى مجيبا لموسى عليه السلام مبيّنًا له أنه يعاقب من يشاء من عصاة عباده ويعفو عن من يشاء لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، ولا يظلم ربك أحدا، وأن رحمته غلبت غضبه، وأنها وسعت كل شيء في الدنيا، حيث أنزل عز وجل جزءًا من مائة جزء من رحمته إلى الأرض فمن هذا الجزء من رحمة الله يتعاطف الخلق ويتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها، وأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة خص بها عباده المؤمنين يوم القيامة، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي، وفي رواية: غلبت غضبي، وفي رواية: سبقت غضبي، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءا

واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه، وفي رواية للشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: إن الله تعالى مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تعالى تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة. وفي لفظ لمسلم من رواية سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله تعالى مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق بينهم وتسع وتسعون ليوم القيامة، وفي لفظ قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة، كل رحمة، طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن من رحمته أنه من عمل سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإن الله يغفر له ويرحمه حيث يقول عز وجل: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ﴿إلى قوله عز وجل: ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ بيان لشروط التأهل لرحمة الله الدائمة في جنات النعيم التي جعلها الله عز وجل رحمته الخاصة بالمؤمنين التي لا تفنى ولا تزول، فلا يريمون منها ولا يتحولون عنها بحال من الأحوال، وأول هذه الشروط المؤهلة للجنة تقوى الله عز وجل ويشمل ذلك طاعة الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه، ومنها إيتاء الزكاة، والإيمان بآيات الله الكونية والمتلوة، واتباع الرسول النبي الأمي، والمراد به محمد رسول الله ﷺ الذي لم

يبعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق أن يبشر به أمته حتى يؤيدوه وينصروه
 عندما يبعثه الله عز وجل ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ
 النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ
 لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا ،
 قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ وقد وصفه الله عز وجل هنا بأنه
 الرسول النبي الأمي المكتوب في التوراة والإنجيل الأمر بالمعروف والناهي عن
 المنكر الذي يحل الطيبات ويحرم الخبائث ويضع عن الإنسانية الإصر
 والأغلال التي كانت عليهم ، وأنه لن يفلح إلا من آمن به وعزّره ونصره
 واتبع النور الذي أنزل معه . وهذه الصفات التي وصف الله عز وجل بها نبيه
 محمداً ﷺ ، قد وصفه بها كل نبي من أنبياء الله ورسله لأمته وبشر قومه به
 حتى وقف آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم خطيباً في بني إسرائيل
 يقول لهم : ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا
 بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ ولذلك كان علماء أهل الكتاب يعرفون
 صفات النبي محمد ﷺ كما يعرفون أبناءهم بسبب بشارات الأنبياء بمحمد
 ﷺ ووصفهم له لأمتهم حتى يؤمنوا به إذا جاء ، ومن صفاته عندهم أنه
 يُبْعَثُ بالحنيفية دين إبراهيم عليه السلام ، وأنه يخرج بأرض العرب ، وأنه
 يهاجر إلى أرض سبخة ذات نخيل بين لابتين ، وأنه يأكل الهدية ولا يأكل
 الصدقة ، وأن في كتفه خاتم النبوة كزر الحجلة . وفي التوراة التي بيد اليهود
 والنصارى : سأقيم لبني إسرائيل من إخوتهم مثلك يا موسى ، أنزل عليه
 تورا ، وأجعل كلامي على فيه . ولم يأت أحد من الرسل يذكر أن معجزته
 كلام الله غير محمد ﷺ الذي جعل الله معجزته الكبرى ، وآيته العظمى
 القرآن العظيم والذكر الحكيم ، الباقي محفوظاً بحفظ الله حتى يرث الله
 الأرض ومن عليها ، والتوراة معناها الشريعة كما جاء أيضاً في وصف رسول

الله ﷺ في التوراة: تجلى الله أو جاء الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلى أو استعلن من جبال فاران، وهو إشارة إلى دين موسى الذي أوحى الله إليه به في طور سيناء. وبشارة بعيسى عليه السلام الذي أنزل الله عليه الوحي في جبال ساعير من أرض الجليل بقرية تدعى الناصرة، ويقال لها أيضا: نصرانة التي سُمِّيَ من ينتمي إلى المسيح عليه السلام بها فيقال لهم: النصارى. وقوله: واستعلى أو استعلن من جبال فاران أو من بركة فاران بشارة واضحة جلية بمحمد ﷺ الذي أنزل الله تعالى عليه الوحي ببرية أو جبال فاران وهي أرض مكة بلا خلاف بين المسلمين وأهل الكتاب. وهذه البشارة الواردة في التوراة تطابق ما جاء في قوله تعالى: ﴿والتين والزيتون﴾ * وطور سينين * وهذا البلد الأمين ﴿فالتين والزيتون جبلان بالأرض المقدسة بعث الله عندهما عيسى عليه السلام، وطور سينين هو الجبل الذي كلم الله موسى عنده وآتاه التوراة فيه، والبلد الأمين هو مكة المكرمة التي بعث منها محمد ﷺ. وقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: وجدت في التوراة في صفة النبي محمد ﷺ يقول الله سبحانه: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأمين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، ويفتح عيوننا عميا وأذانا صما، وقلوبا غلفا بأن يقولوا: لا إله إلا الله اهـ والمراد بالتوراة في هذا الحديث بعض كتب العهد القديم. والمراد بكونه أميا أنه ما كان يتلو قبله من كتاب ولا يخطه يمينه، وأمه الأميون الذين كانوا قبل بعثته لا يكتبون ولا يحسبون. والمراد بالإصر التكاليف الثقيلة إذ أصل الإصر الثقل والشدة والضيق والحبس، والأغلال التي كانت عليهم كالقتل في القصاص وعدم قبول الدية، وتحريم العمل

يوم السبت وعدم قبول الصلاة إلا في أبنية خاصة وعدم جواز التيمم عند فقد الماء ، وقد كان من حرّم على نفسه شيئاً باليمين فلا كفارة له وصار محرماً عليه إلى يوم القيامة ، ومعنى : «وعزروه» أي أيّدوه وعظّموه ووقروه ، والمراد بالنور الذي أنزل معه الكتاب والسنة النبوية .

قال تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فثامنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون * ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل بقية دعاء موسى عليه السلام وما أجابه الله تبارك وتعالى به مبيناً سعة رحمة الله الذي يقبل توبة التائبين ويغفر لهم ويرحمهم كما أشار إلى ذلك قوله عز وجل في دعاء حملة العرش ومن حوله للمؤمنين حيث يقولون : ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم ﴿ وبين عز وجل شروط التأهل لرحمة الله حيث لا ينالها إلا المتقون ، المؤتون الزكاة ، المؤمنون بآيات الله التي يؤيد بها رسله ، المتبعون للرسول النبي الأمي إذا بُعث ، المعروف لأهل الكتب السماوية بما وصفه المرسلون لأمرهم من صفاته وبخاصة في التوراة والإنجيل ، المبعوث بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإباحة الطيبات وتحريم الخبائث وتيسير التشريع ، وأنه لن يفلح إلا من آمن به وأيده ونصره واتبع النور الذي أنزل معه ، شرع هنا فأمر نبيه ورسوله محمداً ﷺ أن يعلن لجميع بني آدم من جميع أجناسهم وألوانهم وأمصارهم وأعصارهم ممن عاصره أو يجيء بعده إلى يوم القيامة أنه رسول الله إليهم جميعاً ، وقد بعثه إليهم الله الذي له ملك السموات والأرض الذي لا يستحق العبادة أحد سواه ، الذي يحيي ويميت ، فيبده وحده إيجاد الخلق وإعدامهم وإحيائهم بعد موتهم ، فعلى

العباد أن يصدقوا بالله الذي لا إله إلا هو ويقرُّوا بالوحيته وربوبيته وأسمائه الحسنی وصفاته العلی وأن يصدقوا برسوله محمد ﷺ ليهتدوا ويسعدوا، ثم أثنى الله عز وجل على بعض قوم موسى الذين انقادوا للحق وصدقوا بجميع المرسلين، وبخاصة رسول الله محمد ﷺ الذي لم يبعث الله عز وجل رسولا إلا وصف لأتمته صفته، وعرفهم به حتى صاروا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، كما أكد ذلك عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي رضي الله عنهما فيما صح عنهما من الخبر بذلك، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له مُلكُ السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون * ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ والمقصود الذي سيق له قوله عز وجل: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾ بيان عموم رسالته ﷺ إلى جميع البشر، وقد أكد الله تبارك وتعالى ذلك في مقامات كثيرة من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ ويقول عز وجل: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾ ويقول عز وجل: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا﴾ ويقول عز وجل: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ ويقول عز وجل: ﴿وأوحى إليّ هذا القرآن لأُنذركم به ومن بلغ﴾ وقال تعالى: ﴿وقل للذين أتوا الكتاب والأمين أسلمتم، فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ ويقول تبارك وتعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ ويقول تبارك وتعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ ولو سألت يهوديا أو نصرانيا أو غيرهما من أهل الأديان عن أتباع محمد ﷺ لقال: هم المسلمون. وقد روى البخاري في صحيحه من حديث

جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي ، نَصَرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ ، وَأَحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبِعَثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً . وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِلَفْظٍ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي ، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبِعَثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ ، وَأَحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ صَلَّى حَيْثُ كَانَ ، وَنَصَرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ . كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ . وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ بَيَانٌ وَتَقْرِيرٌ بِأَنَّ الَّذِي أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ الَّذِي لَهُ السُّلْطَانُ التَّامُّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْأُلُوهَةُ وَالْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِنْشَاءِ وَخَلْقِ كُلِّ شَيْءٍ وَإِحْيَائِهِ ، وَإِفْنَائِهِ إِذَا شَاءَ وَإِمَاتَتَهُ ، وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَسَيِّدُهُ وَمَلِكُهُ ، لَهُ الْخَلْقُ وَلَهُ الْأَمْرُ ، وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ وَلَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ . وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿فَأَمْنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أَيُّ فَصَدَقُوا بِاللهِ وَصَدَقُوا بِرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْمُوصُوفِ بِالْأُمِّيِّ الَّذِي مَا كَانَ يَتْلُو مِنْ قَبْلِ بَعْثِهِ كِتَابًا وَلَا يَخْطُهُ بِيَمِينِهِ ، وَقَدْ بَعَثَهُ مِنَ الْأُمِّيِّينَ فَصَارَ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ فَصَارُوا أُمَّةَ الدُّنْيَا عُلَمَاءَ وَسُلُوكًا وَأَبْصَرَ خَلْقَ اللَّهِ بِالْكَوْنِ وَمَا فِيهِ مِنْ

الآيات الشاهدة على أن الله هو رب كل شيء وسيده ومليكه كما أشار إلى ذلك قوله عز وجل : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم * ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ﴿ وقد جعل الله عز وجل معجزته الكبرى وحجته العظمى كتابه الكريم الجامع لجميع ما تحتاجه الإنسانية من نظام يجلب لها سعادة الدنيا والآخرة في جميع أعصارها وأمصارها وألوانها وأجناسها ، وبدأ إنزال الكتاب عليه بقوله عز وجل : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ وكان من آيات الله في هذا الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أنه كان ينزل على هذا النبي الأمي وقد يكون النازل في المرة الواحدة سورة طويلة كسورة الأنعام فيقرؤها جبريل على رسول الله ﷺ مرة واحدة فتنتطح في قلب رسول الله ﷺ فلا ينسى منها حرفا واحدا ، ولما كان يردد الآية أو الجملة عندما يسمعها من جبريل في أول نزول القرآن ويحرك بها لسانه من شدة حرصه عليه ، قال الله عز وجل له : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه ﴿ وقد ثبت أن الله عز وجل في قلبه مع طوله وكونه كتابا متشابها مثاني ، فكان حفظه ﷺ لهذا القرآن - وهو النبي الأمي - معجزة ظاهرة وحجة باهرة ، لأن القرآن أشد تفلتا من صدور الرجال من الإبل المعقلة فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة ، إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت . كما

روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن
 النبي ﷺ قال : تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده هو أشدُّ تَقْصِيًّا من الإبل
 في عقلها . وقد وصف الله تبارك وتعالى نبيه الأُمِّي محمداً ﷺ بأنه يؤمن بالله
 وكلماته وأمر جميع الناس باتباعه ليكونوا من المهتدين ، وقوله عز وجل :
 ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ أي ومن بنى إسرائيل
 طائفة يتبعون الحق ويعدلون بسبب الاستمساك به فيصدقون بجميع
 المرسلين ويؤمنون بالنبي الأُمِّي ومن هؤلاء عبد الله بن سلام رضي الله عنه .
 وقد أشار الله تبارك وتعالى بذلك إلى أن أهل الكتاب ليسوا سواء ، كما قال
 عز وجل : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم
 يسجدون ﴾ * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
 ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ * وما يفعلوا من خير فلن
 يكفروه ، والله عليم بالمتقين ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وإنَّ من أهل الكتاب
 لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات
 الله ثمنا قليلا ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم ، إن الله سريع الحساب ﴾ وقال
 عز وجل : ﴿ إنَّ الذين أوتوا العلم من قبله إذا بُتِيَ عليهم يخرون للأذقان
 سجدا ﴾ * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ﴾ * ويخرون للأذقان
 يكون ويزيدهم خشوعا ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من
 قبله هم به يؤمنون ﴾ * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحقُّ من ربنا إنا كنا من
 قبله مسلمين ﴾ * أولئك يؤتُون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة
 السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ * وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا
 ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ .

قال تعالى : ﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ، وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم ، وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المنّ والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ * وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين ﴾ * فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾ .

بعد أن أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يعلن لجميع بني آدم من جميع أجناسهم وألوانهم وأعصارهم وأمصارهم ممن عاصره أو يجيء بعده إلى يوم القيامة أنه رسول رب العالمين إليهم جميعاً ليعبدوا الله وحده لا شريك له وأنّ عليهم أن يصدقوا بالله ورسوله ليهتدوا ويسعدوا ، ثم أثنى عز وجل على بعض قوم موسى الذين انقادوا للحق وصدقوا بجميع المرسلين وبخاصة رسول الله النبي الأمي محمد ﷺ . شرع هنا في شرح بعض أحوال بني إسرائيل مع موسى عليه السلام مبينا بعض ما أنعم به عليهم منذّاً بما كانوا يقابلون به نعم الله وأوامره من الجحود والعصيان حتى أرسل عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون ، وقد ساق الله عز وجل ذلك في صور بلاغية من التشابه المثاني تأكيداً على نبوة ورسالة الرسول النبي الأمي محمد ﷺ ، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ، وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم﴾ إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿وقطعناهم اثنتي عشرة

أسباطاً أمماً ﴿أي وقد فرقنا بني إسرائيل فرقاً اثنتي عشرة وقوله: ﴿أسباطاً﴾ بدل من ﴿اثنتي عشرة﴾ كأنه قال: جعلناهم أسباطاً، وفرقناهم أسباطاً كما قال الزجاج، وقد تقدم تفسير الأسباط في سورة البقرة، وقوله ﴿أمماً﴾ نعت ﴿أسباطاً﴾ والأمم جمع أمة والمراد بها الجماعة كما قال عز وجل: ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾ أي وجد عليه جماعة من الناس يسقون. وقد ساق الله تبارك وتعالى في هذا المقام من سورة الأعراف وهي مكية قصة الاستسقاء وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى والأمر بأن يسكنوا القرية وأن يأكلوا منها من حيث يشاؤون، وأن يقولوا حطة وأن يدخلوا الباب سجداً، وذكر عصيانهم هذه الأوامر وإرسال الرجز عليهم وساقها في سورة البقرة وهي مدنية حيث قال: ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين * فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون * وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر الآية وكلا السياقين يشبه بعضه بعضاً في الحسن والجمال والإتقان مع اختلاف في العبارة واتفاق في المعاني على صورة قد بلغت في البلاغة أعلى الدرجات، واشتملت على دُرر المعاني والبيان والبديع من مناسبة المقال للمقام، حيث قدّم قصة الاستسقاء في هذا المقام على غيرها مع أنها جاءت في سورة البقرة متأخرة عن بقية هذه الأحوال، وذلك لبدئه بيان هذه الأحوال هنا بقوله تبارك وتعالى: ﴿وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً﴾ فناسب أن يتبع ذلك مباشرة بذكر الاستسقاء لأن الحجر الذي ضربه موسى بعصاه قد انفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعدد الأسباط، بخلاف سورة البقرة فإنه لم يذكر

هناك أنه قطع بني إسرائيل أسباطا اثنتي عشرة فرقة، ومن أظهر هذه الأبواب
 البديعية في هذا المقام الاحتباك وهو أن يثبت قيда في مقام ويحذفه في المقام
 الآخر لدلالة المذكور على المحذوف، وهذا الباب من أعظم أبواب البلاغة،
 وقد ورد كثيرا في كتاب الله عز وجل كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
 عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ * الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً،
 فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ
 بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فقد قيد العشرين في قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
 عَشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ بقيدين وهو كون العشرين منكم، وكونهم صابرين، ثم
 قال: ﴿يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ ولم يقيدها بقيد، ثم قال: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ
 يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فلم يقيد المائة هنا بقيد الصبر اكتفاء بالقيد
 السابق وهو كونهم صابرين، وقيد الألف بكونهم من الذين كفروا، فكان
 قوله: ﴿مِائَتِينَ﴾ مقيدا بهذا القيد في المعنى أي يغلبوا مائتين من الذين
 كفروا، وقال: ﴿يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فكان إذن الله قيда في الجميع،
 وهكذا في هذا المقام حيث قال عز وجل: ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ فَقَلْنَاهُ اضْرِبْ
 بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ وقال في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقَلْنَاهُ
 اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ فدل المذكور على المحذوف في المقامين وعلم أن قوم
 موسى طلبوا منه الاستسقاء فاستسقى لهم، وأن الأمر بضربه الحجر بعصاه
 مرتب على استسقاؤه لا على استسقاؤهم، وقال في سورة البقرة: ﴿فَانفَجَرَتْ
 مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وقال هنا: ﴿فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ فدل على
 أن الانفجار والانبجاس بمعنى واحد، وهو إشارة إلى كنوز فقه اللغة العربية
 التي لا يستطيع إنسان مهما كان أن يحيط بلغات القبائل المتحدثة بها، وقال
 هنا: ﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا

رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿ وقال في سورة البقرة :
 ﴿ وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما
 رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ بتوجيه الخطاب في
 سورة البقرة إلى بني إسرائيل المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم
 تقرّيعا لهم ، لأن النعمة على آبائهم نعمة عليهم ، وهم لم يشكروا النعمة
 العظمى حيث بعث فيهم رسول الله خاتم النبيين وإمام المرسلين الذي
 يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فلم يؤمنوا به وكذبوه ، وعلم أن قوله في سورة
 البقرة : ﴿ وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ أي على
 آبائكم ، وخير ما يُفسّر القرآن بالقرآن . وفي قوله عز وجل في سورة البقرة :
 ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا ﴾ وقال في هذا
 المقام : ﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم ﴾ فقال في
 سورة البقرة ﴿ قلنا ادخلوا ﴾ وقال هنا : ﴿ قيل لهم اسكنوا ﴾ فدل ذلك على
 أن موسى عليه السلام قال لهم اسكنوا هذه القرية بأمر من الله عز وجل ، كما
 دل أيضا على أن المراد بالدخول هو الولوج إلى القرية للسكنى لا للعبور ،
 والتعبير في هذا المقام بقوله : ﴿ قيل لهم ﴾ وترك هذا القيد في سورة البقرة
 لدلالة المذكور هنا على المحذوف هناك ، ولا منافاة بين التعبير بالفاء في قوله
 في سورة البقرة : ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغدا ﴾ والتعبير بالواو في قوله في
 هذا المقام : ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ لما عُلِمَ في علم معاني الحروف بأن
 الحرف قد يستعمل في معان كثيرة قد يتلاقى في بعضها مع بعض معاني
 الحروف الأخرى ، فالواو لمطلق الجمع لا تقتضي ترتيبا ولا تعقيبا فلا تتعارض
 مع الفاء المقتضية للتعقيب ، ويكون التعبير بالفاء في سورة البقرة للدلالة
 على أنهم سيجدون ما يرغبون في أكله بمجرد دخول القرية ولا يحتاجون إلى
 كبير عناء في الحصول على ذلك ، والتعبير بالواو في هذا المقام لا ينافي ذلك ،

وقد أشرت في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ بأن مجيء التعبير بقوله : ﴿ثم﴾ في هذا المقام لا يتنافى مع التعبير بالواو في قوله عز وجل في طه والشعراء : ﴿ولأصلبنكم أجمعين﴾ إلى أنه لا تنافي بين الحرفين في الدلالة على المقصود وحذف كلمة «رغدا» في هذا المقام للدلالة عليها بذكرها في سورة البقرة . وهذا سر من أسرار إعجاز القرآن وإشارة إلى تعاور الحروف والكلمات ، ومجيء بعضها مكان بعض ، ولذلك قال في هذا المقام : ﴿وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا﴾ وقال في سورة البقرة : ﴿وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة﴾ بالتقديم والتأخير لما ذكرت قريبا من أن الواو لمطلق الجمع لا تقتضي ترتيبا ولا تعقيبا ، كما أنه لا منافاة بين معنى قوله في سورة البقرة : ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ وقوله هنا : ﴿نغفر لكم خطيئاتكم﴾ وإنما المغايرة اللفظية جاءت للتصريف البلاغي ولفت الانتباه إلى أن هذا الكتاب العظيم الذي نزل على النبي الأمي قد أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ومجيء الواو في قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وسنزيد المحسنين﴾ وحذفها هنا حيث قال : ﴿سنزيد المحسنين﴾ لدلالة المذكور على المحذوف مع أن حذف الواو قد يفيد الاستئناف المترتب على تقدير سؤال نشأ من الإخبار بالغفران كأنه قيل : فماذا بعد الغفران ، فقيل : ﴿سنزيد المحسنين﴾ ولا فرق بين قوله عز وجل في سورة البقرة : ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون﴾ وقوله هنا ﴿فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون﴾ حيث سجل عليهم في سورة البقرة أنهم ظالمون فاسقون ، فانطبق عليهم هنا كونهم ظالمين فاسقين أيضا لكنه في هذا المقام أورد ضميرهم حيث قال ﴿عليهم﴾ وفي سورة البقرة قال : ﴿على الذين ظلموا﴾ فذيل الآية بقوله ﴿يفسقون﴾ وهنا ذيل الآية بقوله : ﴿يظلمون﴾ ولا شك أنهم خارجون عن طاعة الله ظالمون لأنفسهم ، هذا

وقد مر تفسير ألفاظ هذه الآيات في سورة البقرة، وقد بينت أن أرسل وأنزل المذكورين في قوله في سورة البقرة: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء﴾ وفي سورة الأعراف هنا: ﴿فأرسلنا عليهم رجزا من السماء﴾ هما بمعنى واحد، أي سلطنا عليهم عذابا من فوقهم وأطلقناه عليهم بسبب ظلمهم وفسقهم حيث عصوا ربهم، وبدّلوا قولا غير الذي قيل لهم، ولا يظلم ربك أحدا.

قال تعالى : ﴿وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرْعًا ويوم لا يسبّتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ * وإذا قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون ﴾ * فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون ﴾ * فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ * وإذا تأذن ربك لبيعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ * وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ .

بعد أن شرح الله تبارك وتعالى بعض أحوال بني إسرائيل مع موسى عليه السلام وبين بعض ما أنعم به عليهم ونذّر بما كانوا يقابلون به نعم الله وأوامره من الجحود والعصيان حتى أرسل عليهم رجلا من السماء بما كانوا يظلمون ، مما يتضمن مواساة رسول الله محمد ﷺ مما يلاقيه من اليهود وغيرهم من الكفار مع تحذير هؤلاء المكذبين من أن يحل بهم ما حل بمن سبقهم من الجاحدين الكافرين شرع هنا في ذكر بعض أحوال بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام وما كانوا يعملونه من الحيل والمكر السيئ لارتكاب المعاصي ومخالفة أوامر الله ونواهيه ، وموقف بعض صالحهم الذين قاموا بوعظهم وتذكيرهم لعلهم ينتهون عن غيهم وضلالهم ، وموقف بعض القاصرين المتشددین المتنطعين الذين أيقنوا أن هؤلاء العصاة لا توبة لهم وأن الله معاقبهم لا محالة ، وأنهم لما نسوا ما ذكروا به أنجى الله الذين ينهون عن السوء وأخذ الذين ظلموا بعذاب شديد بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة ربهم ، وأنهم لما عتوا عما نهوا عنه مسخهم قردة خاسئين وأعلن عز وجل أنه

سيسلط على اليهود الكافرين من يذيقهم سوء العذاب إلى يوم القيامة مع قبوله توبة التائبين، ثم ذكر عز وجل تقطيع بني إسرائيل في الأرض جماعات، منهم من ينيب إلى الله، ومنهم دون ذلك وأنه عز وجل اختبرهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وَبَلَّوْنَاَهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ والمراد بالسؤال في قوله عز وجل: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ هو تقرير اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ وتوبيخهم على كفرهم برسول الله ﷺ، وإفحامهم بأن محمداً ﷺ وهو الأمي يعلم حقيقة هذه القصة التي يحرصون على كتمانها وإخفائها، ولا سبيل له إلى معرفتها إلا بالوحي من الله العزيز العليم، وهم موقنون بذلك، مع ما يتضمنه هذا السؤال من تهديدهم بعقوبة من الله على كفرهم برسوله محمد ﷺ، لأنه إذا كان الذين اعتدوا في السبت قد مسخهم الله وجعلهم قردة خاسئين مع أنهم إنما خالفوا فرعا من فروع الشريعة واحتالوا لارتكاب المحرم فما بالك بمن كفروا بالشريعة كلها وكذبوا إمام المرسلين محمداً ﷺ، وجحدوا نبوته؟ قال الزجاج في تفسير هذه الآية: والسؤال على ضربين، فأحد الضربين أن تسأل لتستخير عما لا تعلم لتعلم. والضرب الثاني أن تسأل مستخبراً على وجه التقرير، فتقول للرجل: أنا فعلت كذا؟ وأنت تعلم أنك لم تفعل فإنما تسأله لتقرره وتوبّخه، فمعنى أمر النبي ﷺ أن يسأل أهل الكتاب عن أهل هذه القرية - وقد أخبر الله جل ثناؤه بقصتها - ليقرهم بقديم كفرهم، وأن يعلمهم ما لا يعلم إلا بكتاب أو وحي. اهـ ولم يرد نص في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ يُعيّن هذه القرية، ومعنى كونها حاضرة البحر أي واقعة على شاطئ البحر قريبة منه

وبحضرته ، ومعنى : ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي ينتهكون ما حَرَّمَ الله عليهم ويعتدون على شريعة الله التي حرمت عليهم الصيد في يوم السبت وقد ندد الله تعالى باعتداء اليهود في السبت في سورة البقرة في قوله عز وجل : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ وصرَّح في سورة النساء بأنه عز وجل حَرَّمَ السبت حيث قال في الآية الرابعة والخمسين بعد المائة : ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ ، كذلك نَبَلُّوهُمْ بها كانوا يفسقون ﴿أَيَّ كَانَتِ الْحِيتَانُ وَهِيَ السَّمَكُ تَرْفَعُ رُؤُوسَهَا فَوْقَ الْمَاءِ مَقْبَلَةً عَلَى السَّاحِلِ يَوْمَ السَّبْتِ وَيَسْهَلُ عَلَى مَنْ يَرِيدُ صَيْدَهَا أَنْ يَصِيدَهَا - وَالصَّيْدُ مُحْرَمٌ عَلَيْهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ - فَإِذَا ذَهَبَ يَوْمَ السَّبْتِ اخْتَفَتْ مِنَ الْمَاءِ الْقَرِيبُ مِنْهُمْ فَلَا يَرُونَهَا إِلَى السَّبْتِ الْآخِرِ ، اخْتَبَارًا لَهُمْ وَامْتِحَانًا ، فَاحْتَالُوا عَلَى صَيْدِهَا بِوَسَائِلٍ كَأَن يَحْفَرُوا حِيَاضًا كَبِيرَةً تَتَّصِلُ بِالْبَحْرِ فَتَدْخُلُهَا الْحِيتَانُ يَوْمَ السَّبْتِ وَلَا تَسْتَطِيعُ الرَّجُوعَ إِلَى الْبَحْرِ فَيَصِيدُونَهَا يَوْمَ الْاِحْدِ وَالْاَيَّامِ الْاُخْرَى غَيْرَ السَّبْتِ ، وَهَكَذَا اخْتَبَرَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَلَمْ يَنْجَحُوا فِي الْاِخْتِبَارِ ، بِسَبَبِ فَسَقِهِمْ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَتَمَرْدِهِمْ عَلَى أَوْامِرِ اللَّهِ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿شُرَّعًا﴾ أَيَّ شَارِعَةً ظَاهِرَةً عَلَى الْمَاءِ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ وَنَاحِيَةِ كَشُورَاعِ الطَّرِيقِ ، وَمَعْنَى : ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أَيَّ وَيَوْمَ لَا يُعْظَمُونَهُ تَعْظِيمَهُمُ السَّبْتَ ، وَالْمُرَادُ بَقِيَّةُ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ ، لَا تَأْتِيهِمُ الْحِيتَانُ ، وَقَدْ ذَكَرْتُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَلُونَكُمْ اللَّهُ شَيْءًا مِنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِهَ الْمُؤْمِنِينَ وَحَذَرَهُمْ مِنْ قَتْلِ الصَّيْدِ وَهُمْ مُحْرَمُونَ بِحُجٍّ أَوْ عَمْرَةٍ أَوْ حَالَةِ كَوْنِهِمْ دَاخِلَ حُدُودِ الْحَرَمِ وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ سَيُخْتَبَرُهُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ وَهُمْ مُحْرَمُونَ ، فَصَارَ الصَّيْدُ يَقْتَرِبُ مِنْهُمْ حَتَّى يَسْتَطِيعَ الْمُحْرَمُ أَنْ يَأْخُذَهُ بِيَدِهِ

وذكرت أن هذا الاختبار شبيه بما اختبر الله عز وجل به بني إسرائيل الذي قصه الله عز وجل عن أصحاب القرية التي كانت حاضرة البحر، فلم ينجحوا في هذا الاختبار فجعلهم الله قردة خاسئين، أما أصحاب رسول الله ﷺ فقد نجحوا في الامتحان وفازوا فيه حيث صار الصيد يسقط عليهم وهم محرمون عام الحديبية فخافوا الله عز وجل وعصمهم الله من تناوله، وحامهم من معصيته ومخالفة أمره، ولا شك أن هذه التربية العملية والنجاح فيها أبرز برهان على أن أصحاب محمد ﷺ أهل لأن يشرفهم الله بصحبة خير المرسلين ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُم وَلَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾ فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَيِّنٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. قال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق، فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطیاد السمك يوم السبت. كما تقدم بيانه في سورة البقرة، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي لِمَ تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكهم إياهم؟ قالت لهم المنكرة: ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُم﴾ قرأ بعضهم بالرفع كأنه على تقدير: هذا معذرة، وقرأ آخرون بالنصب أي نفعل ذلك «معذرة إلى ربكم» أي فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «لعلهم يتقون» يقولون: ولعل لهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ

بئس ﴿ فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين ، لأن
الجزء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيما
فيُذَمُّوا . اهـ والبئس هو الشديد الموجه من البأس وهو الشدة . وقوله تبارك
وتعالى : ﴿ فلما عَتَوْا عما نُهَوْا عنه قلنا لهم كونوا قردةً خاسئين ﴾ أي فلما
استحكموا في الفساد واستمروا في التمرد والعناد واستمروا صيد السمك
وأكله يوم السبت ولم يلتفتوا إلى وعظ الواعظين ونصح الناصحين قلنا لهم
كونوا قردة خاسئين ، وقد بينت في سورة البقرة أن هذا الأمر بقوله ﴿ كونوا ﴾
هو أمر كوني أي إنما قلنا لهم كونوا قردة فصاروا قردة ، ويعبر البلاغيون عنه
بأنه أمر تسخير وتكوين ، والأمر الكوني لا يتخلف على حد قوله تعالى :
﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وإذ
تأذن ربك ليعثنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، إن ربك
لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ أي وإذ أعلم ربك ليسلطن على اليهود
من يجعل عليهم الذلة والمسكنة إلى يوم القيامة كما قال عز وجل : ﴿ وضربتْ
عليهم الذَّلَّةَ والمسكنة وباءوا بغضب من الله ﴾ وكما قال عز وجل :
﴿ ضُرِبَتْ عليهم الذلة أين ما تُقِفُوا إلا بحَبْلٍ من الله وحبل من الناس وباؤوا
بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ﴾ وقد قلت في تفسير قوله عز
وجل : ﴿ إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ أي إلا بإمداد من الله عز
وجل يكون بسبب تقصير من يُسَلِّطُ عليهم اليهود في حق الله وتفريطهم في
جنبه ، وعدم إقامتهم شريعة الله فإن اليهود الرعايد الجبناء لم ينتصروا على
المسلمين ويحتلوا بيت المقدس في عصرنا بشجاعتهم وإنما بذنوبنا وتفرق
كلمتنا لأنه إذا عصى الله من يعرفه سلط عليه من لا يعرفه ، كما أنهم قد
يَمَدُّون من بعض الأمم المعادية للإسلام لا حبا في اليهودية وإنما لحرب
الإسلام ولا شك أن قوله عز وجل : ﴿ إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾

معجزة ظاهرة على مدى التاريخ يشاهدها القاصي والداني في مشارق الأرض ومغاربها . هذا وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة بيان فضل الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر وأنهم أهل الفلاح والفوز والنجاة ، كما تضمنت الوعيد الشديد للذين يصرون على المعاصي ، وأشارت إلى أنه ينبغي للدعاة إلى الله ألا يأسوا من رَوْح الله فإنه الغفور الرحيم الذي يقبل توبة التائبين ، وكما قال تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَن عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي وفرقنا بني إسرائيل في الأرض فرقا وشتتناهم في المشارق والمغارب ، فكان منهم المستقيمون ومنهم دُونَ ذلك كانوا طرائق قددا ، واختبرناهم بالخير والشر ، ليرجعوا إلى ربهم ويتوب المسيئون من غيرهم .

قال تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ، والذَّار الآخرة خيرٌ للذين يتقون ، أفلا تعقلون ﴾ * والذين يُمَسِّكُونَ بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ * وإذ نَتَقْنَا الجبل فوقهم كأنه ظِلَّةٌ وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى بعض أحوال بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام وما كانوا يعملونه من الحيل والمكر السيئ لارتكاب المعاصي ، ومخالفة أوامر الله ونواهيه وموقف بعض صالحهم الذين كانوا يعظونهم ويخوفونهم من الله لعلهم يتتهون عن غيهم وضلالهم وموقف بعض المتشددين المنتطعين الذين أيقنوا أن هؤلاء العصاة لا توبة لهم وأن الله معاقبهم لا محالة وأنهم لما نسوا ما ذكروا به أنجى الله الذين ينهون عن السوء وأخذ الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون ، وأنهم لما عَتَوْا عما نُهَوْا عنه مسخهم قردة خاسئين وأعلن عز وجل أنه سيسلط على اليهود الكافرين من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة مع قبوله توبة التائبين ، وبين عز وجل أنه قطع بني إسرائيل في الأرض جماعات منهم من ينيب إلى الله ، ومنهم دون ذلك ، وأنه اختبرهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون . شرع هنا في شرح بعض أحوال الذين جاءوا من بعد هؤلاء الذين تقدم ذكرهم ليقرر أنهم كانوا خَلَفَ سَوْءَ وأكثر تَمَرْدًا على كتاب ربهم ومواريث أنبيائهم ، فإنهم قد ازدادت دراستهم لكتابهم الذي ورثوه أي انتقل إليهم من أسلافهم ، ومع ذلك فإنهم كانوا يرتكبون القبائح ويزعمون أنهم لن يؤاخذوا بها ولن يعاقبوا عليها وأن الله سيغفر لهم ، ويتمنون على الله الأمانى ، ويقولون على الله غير الحق ، ولم

يَمْتَنَعُوا عَنِ الْمَسَارَعَةِ إِلَى ارْتِكَابِ الْمُحْظُورِ مَتَى لَاحَ لَهُمْ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَخَذَ عَلَيْهِمِ الْمِيثَاقَ فِي الْكِتَابِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ أَلَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، وَقَدْ قَرَأُوهُ وَعَرَفُوهُ مَا فِيهِ ، وَلَكِنَّهُمْ اشْتَرَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَبَاعُوا آيَاتَ اللَّهِ بِالثَمَنِ الزَّهِيدِ وَلَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ مَا بَاعُوا جَنَّاتِ النَّعِيمِ بِهَذَا الْخَطَامِ الْفَانِي وَالْعَرَضِ الزَّائِلِ ، ثُمَّ أَثْنَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَبَشَّرَهُمُ بِالْأَجْرِ الْجَزِيلِ وَوَصَفَهُمُ بِأَنَّهُمْ مُصْلِحُونَ ، وَذَكَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا فَعَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِآبَائِهِمُ الْأَوَّلِينَ حَيْثُ رَفَعَ الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ حَتَّى أَيقِنُوا أَنَّهُ وَقَعَ بِهِمْ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَمْسِكُوا بِالْكِتَابِ وَأَلَّا يَتَرَاخَوْا فِي تَطْبِيقِ أَحْكَامِهِ وَتَنْفِيزِ تَعَالِيمِهِ وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ ، لِيَعْرِفُوا رَبَّهُمْ وَيَخَافُوهُ وَيَتَّقُوهُ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ الْآيَةُ هُوَ شَبِيهِه بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ بَعْدَ ذِكْرِ الصَّالِحِينَ : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ : فَتَبَدَّلَ مِنْ بَعْدِهِمْ بَدَلٌ سَوْءٌ ، وَرِثُوا كِتَابَ اللَّهِ فَعَلَّمُوهُ ، وَضَيَّعُوا الْعَمَلَ بِهِ ، فَخَالَفُوا حُكْمَهُ ، يُرْشَوْنَ فِي حُكْمِ اللَّهِ ، فَيَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ فِيهِ مِنْ عَرَضِ هَذَا الْعَاجِلِ ﴿ الْأَدْنَى ﴾ يَعْنِي بِالْأَدْنَى الْأَقْرَبَ مِنَ الْأَجْلِ الْأَبْعَدِ ، وَيَقُولُونَ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ : إِنَّ اللَّهَ سَيُغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا ، تَمَنِّيًّا عَلَى اللَّهِ الْأَبَاطِيلِ ، كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاءُهُ فِيهِمْ : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ

هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴿١﴾ وإن يأتهم عرضٌ مثله يأخذوه ﴿٢﴾ يقول : وإنْ أشرف لهم ذنب حرام مثله من الرشوة بعد ذلك أخذوه واستحلوه ولم يرتدعوا عنه ، يخبر جل ثناؤه عنهم أنهم أهل إصرار على ذنوبهم وليسوا بأهل إنابة ولا توبة . اهـ ومعنى قوله عز وجل : ﴿٣﴾ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ﴿٤﴾ أي قد أخذنا عليهم العهد الموثق في الكتاب الذي بأيديهم أن لا يفتروا على الله الكذب وقد قرءوا هذا الكتاب مرة بعد مرة ، وهم ذاكرون لذلك لم ينسوه ، قال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره : ﴿٥﴾ ألم يؤخذ ﴿٦﴾ على هؤلاء المرتشين في أحكامهم ، القائلين : سيغفر الله لنا فعلنا هذا ، إذا عوتبوا على ذلك ﴿٧﴾ ميثاق الكتاب ﴿٨﴾ وهو أخذ الله العهود على بني إسرائيل بإقامة التوراة ، والعمل بما فيها ، فقال جل ثناؤه لهؤلاء الذي قص قصتهم في هذه الآية ، موبخا على خلافهم أمره ، ونقضهم عهده وميثاقه : ألم يأخذ الله عليهم ميثاق كتابه ألا يقولوا على الله إلا الحق ، ولا يضيفوا إليه إلا ما أنزله على رسوله موسى ﷺ في التوراة ، وأن لا يكذبوا عليه . اهـ والاستفهام في قوله : ﴿٩﴾ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ﴿١٠﴾ للتقرير والتقريع والتوبيخ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿١١﴾ والدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون ﴿١٢﴾ زيادة تقرير للحقيقة الثالثة من الحقائق الثلاث التي تدور في فلكها السور المكية وهي تقرير أنه لا إله إلا الله وتقرير أن محمدا رسول الله ، وتقرير الإيمان بالبعث بعد الموت ، لأن تقرير توحيد الله وتقرير رسالة المرسلين وتقرير البعث بعد الموت هي الأسس التي لا سعادة للناس إلا بها ، وفي قوله عز وجل : ﴿١٣﴾ والدار الآخر خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون ﴿١٤﴾ لفت الانتباه إلى أنه من سفاهة الرأي أن يبيع الإنسان نعيم الجنة بالخطام الزائل من عرض الحياة الدنيا ، وأن الذين يتقون الله ويعملون بأوامره

ويجتنبون نواهيهِ ويقفون عند حدوده هم أهل النعيم المقيم ، حيث يمتعهم الله عز وجل في الجنة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ زُوجْنَاَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ أَمِينٍ * لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لَقَابُ قَوْسٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ، وَالِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ عز وجل : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ للتوبيخ كما أن الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لتشديد التوبيخ ، إذ مقتضى السياق أن يقال : أفلا يعقلون ، لكن مقتضى الحال من تشديد توبيخ الذين يبيعون نعيم الجنة بعرض زائل اقتضى الالتفات من الغيبة إلى الخطاب فقال : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ أي والذين يعملون بما في كتاب الله الذي بأيديهم فيحلون حلاله ويحرمون حرامه ويقفون عند حدوده ، ويستمسكون بتعاليمه التي تقتضي المسارعة إلى تصديق النبيين ، وتأييد المرسلين والإيمان بمحمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين ، وقيامون بالصلاة بحدودها ، ولم يضيعوا أوقاتها ، وكانوا فيها خاشعين لا يضيع أجرهم عند الله عز وجل لأنهم مصلحون والله تبارك وتعالى لا يضيع أجر المصلحين ، قال ابن منظور في لسان العرب : ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ ﴾ أي يؤمنون به ويحكمون بما فيه ، الجوهري : أمسكتُ بالشيء وتمسكت به ، واستمسكت به ، وامتسكتُ ، كله بمعنى اعتصمت وكذلك مسكتُ به تمسكا . اهـ وقال الإمام محيي السنة أبو محمد البغوي في تفسيره : يقال : مسكت بالشيء ولا يقال :

أمسكت بالشيء إنما يقال : أمسكته . اهـ والصالح ضد الفساد والصالح المستقيم ، والإصلاح نقيض الإفساد ، وهذه الآية بعمومها تشمل المؤمنين من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه الذين تمسكوا بالكتاب الذي جاء به موسى ولم يحرفوه ولم يكتموا منه صفة النبي محمد ﷺ ، ولم يتخذوه مأكلة ، وسارعوا إلى الإيمان برسول الله محمد ﷺ ، كما يشمل المستمسكين بالقرآن من أمة محمد ﷺ ، المعتصمين به العاملين بما فيه المحلين لحلاله المحرمين لحرامه الواقفين عند حدوده ، ولذلك وصى رسول الله ﷺ المسلمين بكتاب الله تبارك وتعالى ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أوصى بكتاب الله عز وجل وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ قد ساق الله تبارك وتعالى قصة رفع الجبل فوق رؤسهم في هذا المقام وفي الآية الثالثة والستين من سورة البقرة حيث قال عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ كما ذكرها في الآية الثالثة والتسعين من سورة البقرة حيث قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ الآية . كما ذكرها في الآية الرابعة والخمسين بعد المائة من سورة النساء حيث قال : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ وكلها جاءت في سياق حكاية جناية من جنایات بني إسرائيل وبيان تمردهم على أحكام الله وعدم قبولهم للحق ونقضهم للعهود والمواثيق حيث لا يستقرون على عهد ولا يستقيمون على ميثاق ، وقد قلت في تفسير الآية الثالثة والستين من سورة البقرة : أي واذكروا يا بني إسرائيل وقت أخذنا عليكم العهد الموثق بأن تحافظوا على

الشرية وأن تؤيدوا المرسلين وأن تؤمنوا بما يبعث الله من نبي وما يرسل من رسول، وجعلنا لكم آية حسيّة للدلالة على قدرتنا عليكم وأنكم لا تستطيعون الإفلات من عقوبة الله إن عصيتم أمره وكذبتم رسله إذ رفعنا الجبل فوق رؤوسكم كأنه سحابة تظللکم حتى صرتم في رعب وفزع تخشون أن يسقط عليكم فيهلككم وأمرناكم والحالة هذه أن تحافظوا على الشريعة وأن تلتزموا بأحكام التوراة ووصاياها، وأن تجتهدوا في تنفيذ أوامر الله وطاعة المرسلين لكي تجعلوا لأنفسكم وقاية من عذاب النار وسخط الجبار. وقد بينت أن معنى قوله: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي خذوا ما أنزلنا عليكم من الشريعة بجد وعزيمة ونشاط واجتهاد، ومعنى ﴿واذكروا ما فيه﴾ أي احفظوه ولا تنسوه واجعلوه دائما على ذكر منكم بالعمل به وتطبيق ما فيه على شئون معاشكم ومعادكم، ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لكي تجعلوا لأنفسكم وقاية من سخط الله وعذابه ولتتنظموا في سلك عباده المتقين. لكنهم مع ذلك نقضوا الميثاق وأعرضوا عن الوفاء كما قال عز وجل: ﴿ثم توليتم من بعد ذلك فلو لا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾.

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ * أو تقولوا إنما أشركنا آباءنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون * وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون * واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ .

بعد أن شرح الله تبارك وتعالى بعض أحوال بني إسرائيل الذين خلفوا من سبقوهم ، وكانوا خلف سوء وأكثر تمرداً على كتاب ربهم ومواريث أنبيائهم ، حيث كانوا يدرسون الكتاب الذي انتقل إليهم من أسلافهم ومع ذلك كانوا يرتكبون القبائح ويزعمون أنهم لن يؤاخذوا بها ولن يعاقبوا عليها ويتمنون على الله الأمانى ، ويقولون على الله غير الحق ، وكانوا يسارعون إلى أكل السحت متى عرض لهم ، ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذه مع إقرارهم بأن الذي يأخذه هو محرم عليهم ثم أثنى عز وجل على الذين يستمسكون بالكتاب ويطبقون الصلاة وبشرهم بالأجر الجزيل ، وذكر بني إسرائيل بقصة رفع الجبل فوق رؤوس آبائهم حتى يستمسكوا بالكتاب ولا يفرطوا فيه ، شرع هنا في بيان أنه عز وجل قد أوضح لعباده أنه رب كل شيء ومليكه وأنه لا إله إلا هو ، وحذرهم من الشرك به وقص عليهم قصة الذي عرف الحق فانسلخ منه فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، وضرب له مثلاً بالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث وأن هذا المثل ينطبق على سائر

المكذبين بآيات الله الظالمين لأنفسهم الذين يعرفون الحق ولا ينقادون له حيث يقول عز وجل : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ . إلى قوله عز وجل : ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ * أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون * وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكنهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجَبَلَهُمْ عليه قال تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كل مولود يولد على الفطرة وفي رواية : على هذه الملة - فابواه يهودانه ويُنصِّرانه ويُمَجِّسانه ، كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء . وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم . ثم قال ابن كثير رحمه الله : قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي ، ثم قال رحمه الله : قالوا ولهذا قال : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴾ ولم يقل : من آدم من «ظهورهم» ولم يقل : من ظهره «ذرياتهم» أي جعل نسلهم جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن كقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ وقال : ﴿وَيَجْعَلُكُمْ

خلفاء الأرض ﴿ وقال : ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ ثم قال :
 ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ أي أوجدتهم شاهدين
 بذلك قائلين له حالاً وَقَالَا ، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله : ﴿ قالوا
 شهدنا على أنفسنا ﴾ الآية ، وتارة تكون حالاً كقوله تعالى : ﴿ ما كان
 للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ أي حالهم
 شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وإنه على ذلك
 لشهيد ﴾ كما أن السؤال تارة يكون بالمقال وتارة يكون بالحال كقوله : ﴿ وآتاكم
 من كل ما سألتموه ﴾ قالوا : ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا
 الإشهاد حجة عليهم في الإشراف فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال لكان
 كل أحد يذكره ليكون حجة عليه ، ثم أكد ابن كثير رحمه الله هذا التفسير
 فقال : فدل على أنه الفطرة التي فُطِرُوا عليها من الإقرار بالتوحيد ، ولهذا
 قال : ﴿ أن تقولوا ﴾ أي لئلا تقولوا ﴿ يوم القيامة إنا كنا عن هذا ﴾ أي التوحيد
 ﴿ غافلين ﴾ أو تقولوا إنا أشرك أبائنا ﴾ الآية . اهـ وقال الزجاج : ومعنى :
 ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ﴾ أن كل بالغ يعلم أن الله واحد ،
 لأن كل ما خلق الله تعالى دليل على توحيده ، وقالوا : لولا ذلك لم تكن على
 الكافر حجة ، وقالوا : فمعنى : ﴿ أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ﴾
 دلهم بخلقه على توحيده . اهـ ولا معارضة بين شهادة الفطرة التي فسر بها
 ابن كثير والزجاج هذه الآية وبين ما رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري
 في كتاب الأنبياء من صحيحه من حديث أنس يرفعه أن الله يقول لأهون أهل
 النار عذاباً : لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به قال : نعم
 قال : فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي
 فأبيت إلا الشرك . اهـ فإن قدرة الله عز وجل لا تعجز عن شيء ، وكما قال
 ابن كثير رحمه الله فإن السؤال تارة يكون بالمقال وتارة يكون بالحال ، والعلم

عند الله عز وجل . ومعنى قوله عز وجل : ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي أو لئلا تعتذروا بأن آباءكم قد أشركوا قبل مجيئكم إلى الدنيا وقد صرتم ذرية لهم وقلدتموهم في الشرك بالله ، وما جاءوا به من الباطل ، وتظنوا أن تقليدكم لأبائكم المبطلين ينجيكم من شرككم برب العالمين ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي وكذلك نبين البراهين ونقيم الحجج ليتدبروها ولكي يرجع هؤلاء المكذبون المشركون عن تكذيبهم لرسول الله محمد ﷺ ويتوبوا من شركهم بالله عز وجل قبل فوات الأوان ، وضياح زمان اكتساب العمل الصالح ، وقوله عز وجل : ﴿وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ﴾ قال الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية في كتابه «الفوائد» في قوله تعالى : ﴿وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ﴾ : فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه ، وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه ، وذلك من وجوه : أحدها : أنه ضل بعد العلم ، واختار الكفر على الإيمان عمدا لا جهلا ، وثانيها : أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدا فإنه انسلك من الآيات بالجملة كما تنسلك الحية من قشرها ولو بقي معه منها شيء لم ينسلك منها ، وثالثها : أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه ، ولهذا قال : ﴿فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ ولم يقل تبعه فإن في معنى أتبعه أدركه ولحقه وهو أبلغ من تبعه لفظا ومعنى . ورابعها : أنه غوى بعد الرشد ،

والغي : الضلال في العلم والقصد ، وهو أخص بفساد القصد والعمل ، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد ، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، وإذا افترنا فالفرق ما ذكر ، وخامسها : أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم ، فكان سبب هلاكه ، لأنه لم يُرَفَّعْ به فصار وبالا عليه ، فلو لم يكن عالما كان خيرا له وأخف لعذابه ، وسادسها : أنه سبحانه أخبر عن خسة همته ، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى ، وسابعها : أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس ، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض ومِثْلٍ بكليته إلى ما هناك ، وأصل الإخلاد : اللزوم على الدوام كأنه قيل : لزم الميل إلى الأرض ، ومن هذا يقال : أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به . قال مالك بن نويرة :

بأبناء حيٍّ من قبائل مالك وعمر بن يربوع أقاموا فأخلدوا
وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض ، لأن الدنيا هي الأرض وما فيها ، وما يستخرج منها من الزينة والمتاع ، وثامنها : أنه رغب عن هذاه واتبع هواه فجعل هواه إماما له يقتدي به ويتبعه ، وتاسعها : أنه شَبَّهَهُ بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همةً ، وأسقطها نفسا ، وأبخلها وأشدّها كَلْبًا ، ولهذا سمي كَلْبًا ، وعاشرها : أنه شبه لهته على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدائها وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد ، وهكذا هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا ، وإن وُعِظَ وَزُجِرَ فهو كذلك ، فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب ، قال ابن قتيبة : كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال الري وحال العطش ، فضربه الله مثلا لهذا الكافر ، فقال : إن وعظته فهو ضال ، وإن تركته فهو ضال ، كالكلب إن طردته لهث وإن تركته على حاله لهث ، وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب وإنما

وقع بالكلب اللاهث وذلك أخس ما يكون وأبشعه . اهـ وقال ابن منظور في لسان العرب في مادة لهث : الجوهرى : لهث الكلب بالفتح يَلْهَثُ لَهْثًا وَلَهْثًا بالضم إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش ، وكذلك الرجل إذا أعبأ ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ لأنك إذا حملت على الكلب نبج وولَّى هارباً ، وإن تركته شد عليك ونبح ، فيتعب نفسه مقبلاً عليك ومدبراً عنك فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان ، قال أبو إسحاق (يعني الزجاج) ضرب الله عز وجل للتارك لآياته والعاقل عنها أخس شيء في أخس أحواله مثلاً فقال : ﴿ فمثله كمثل الكلب ﴾ إن كان الكلب لَهْثًا ، وذلك أن الكلب إذا كان يلهث فهو لا يقدر لنفسه على ضر ولا نفع ؛ لأن التمثيل به على أنه يلهث على كل حال ، حملت عليه أو تركته ، فالمعنى : فمثله كمثل الكلب لاهثاً . اهـ وفي قوله عز وجل : ﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ * ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ إشعار بأن هذا المثل ليس خاصاً بشخص معين بل يشمل كل من كذب بآيات الله وعرف الحق فأعرض عنه واتبع هواه فقبح مثلهم ، فلهم مثل السوء وقد ظلموا أنفسهم وما عليك أيها الرسول الكريم إلا البلاغ فاتل عليهم ما أوحى إليك من ربك لعلهم يتدبرون ويتذكرون ويتعظون ، ويرجعون عن غيهم وضلالهم .

قال تعالى : ﴿من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴿ والله الأسماء الحسنی فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾ .

بعد أن بين الله عز وجل أنه قد أوضح لعباده أنه رب كل شيء ومليكه وأنه لا إله إلا هو ، وحذرهم من الشرك وقص عليهم قصة الذي عرف الحق فانسلك منه فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين وضرب له مثلا بالكلب اللاهث ، وأن هذا المثل ينطبق على سائر المكذبين بآيات الله الظالمين لأنفسهم الذين يعرفون الحق ولا ينقادون له ، شرع هنا في ترغيب عباده وتحريضهم على أن يتضرعوا إلى الله ليهديهم سبيل الرشاد لأن الهداية بيد الله وحده فمن يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وحذرهم من سلوك طريق الضالين الخاسرين فإن من سلكها كان حَرِيًّا بأن يكون في عِداد أهل جهنم التي ذرأ الله لها كثيرا من الجن والانس الذين انطمست بصائرهم وعميت أعينهم وُصِّمَتْ آذَانُهُمْ فَصَارُوا كالأنعام بل هم أضل ثم أرشد عباده إلى أن يدعوا الله بأسمائه الحسنی وأن يدعوا الذين يُلحدون في أسمائه الذين يُعَرِّضُونَ أنفسهم للعذاب الأليم ، على ما يرتكبونه من الجُرْم العظيم بالإلحاد في أسماء الله الحسنی ، وصفاته العلی ، فيسمون الله تبارك وتعالى بغير ما سَمَّى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ ، ويدخل في ذلك أهل التشبيه والتعطيل والتأويل والتحريف وفي ذلك يقول : ﴿من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿سَيُجْزَوْنَ ما كانوا يعملون﴾ والمراد بالهداية في قوله تبارك وتعالى : ﴿من يهد الله فهو

المهتدي ﴿ هي هداية التوفيق إلى الدين الحق والإعانة إلى سلوك الصراط المستقيم ، قال ابن جرير رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿ من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾ قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره : الهداية والإضلال بيد الله ، والمهتدي - وهو السالك سبيل الحق الراكب قصد المحجة في دينه - من هداه الله لذلك فوفقه لإصابته ، والضال : من خذله الله فلم يوفقه لطاعته ، ومن فعل الله ذلك به فهو الخاسر يعني الهالك . اهـ وقال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى : من هداه الله فإنه لا مضل له ، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة ، فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود : « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد وأهل السنن وغيرهم . اهـ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ﴾ أي ولقد هيأنا للنار خلقا كثيرا من الجن والإنس لم ينتفعوا بما أعطاهم الله عز وجل من أدوات الاستبصار والهداية والاعتبار ، فانطمست بصائر قلوبهم فلم يفقهوا آيات الله التي أقامها للدلالة عليه ، ولم يعقلوا الحجج والبراهين التي جعلها الله عز وجل في الآفاق وفي أنفسهم ، كما أنهم قد عميت أبصارهم فلم يستفيدوا مما يشاهدونه من الآيات والبراهين الثابتة والمتجددة ، وكذلك لم يسمعوا داعي الحق عندما يناديهم إلى ما فيه سعادتهم في العاجلة والآجلة ، ولا شك أن القلب يطلق على قطعة اللحم الصنوبرية الشكل الموضوعة في تجويف الصدر كما يطلق القلب على اللطيفة الربانية التي تقوم بالقلب اللحمي

الصنوبري الشكل والتي بها يحصل الإدراك والعقل والفهم وترسم بسببها العلوم والمعارف ، وهي البصر الحقيقي للقلب اللحمي وهي التي تميز بها الإنسان عن البهائم الأليفة والوحشية فإذا علم الله من العبد طلبا للحق استعمله في طاعته فاستنارت بصيرة قلبه ، وإذا علم منه بغضا للحق خذله ، وإذا خذله عميت بصيرته ، كما أن العين تطلق على الجارحة المعروفة التي جعل الله عز وجل للإنسان منها اثنتين في وجهه وركب كل واحدة منهما في حجاجها وجهها بأدوات الإبصار من القرنية والعدسة والشبكية والأعصاب والمجاري ، وهي بهذه المثابة موجودة في جميع الناس مؤمنهم وكافرهم ، كما أنها موجودة في البهائم الوحشية والأليفة ، وقد تفضل الله عز وجل فأودع في العين الحسية لطيفة ربانية ، فإذا علم الله من العبد خيرا واستعمله في طاعته انتفع بهذه اللطيفة الربانية ففرق بها بين مشاهد الحق ومشاهد الباطل ، وإذا علم الله من العبد شرا خذله ، فصار يرى الرشد غيا والغى رشدا كما قال عز وجل : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ كما تطلق الأذن على الجارحة المعروفة وهي كذلك موجودة في الحيوانات الأليفة والوحشية ، وقد أودع الله عز وجل في أذن الإنسان لطيفة ربانية تفرق بين ما تسمعه من الخير وما تسمعه من الشر ، فإذا خذل الله العبد حرم من فوائد هذه اللطيفة فلا يسمع صوت الحق ولا يستفيد منه ، وهذه اللطائف التي جعلها الله عز وجل في القلوب والأعين والأذان هي الثمرات الحقيقية للقلوب والأعين والأذان فإذا حُرِمَ العبد الاستفادة منها ، صارت هذه الجوارح جوارح بهيمية محضة ، ولذلك قال الله عز وجل في هؤلاء الذين لم يستفيدوا من قلوبهم وأعينهم وآذانهم ولم يهتدوا بها إلى ما يقربهم إلى الجنة ويباعدهم عن النار : ﴿ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ ﴾ ولما كانت الأنعام قد استفادت من جوارحها فلا ترعى النبات الذي يضرها ولا

تُقْبِلُ إِلَّا عَلَى مَا يَنْفَعُهَا، وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُمْ أَضَلُّ مِنَ الْأَنْعَامِ حَيْثُ قَالَ: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ وَوَصَفَهُمْ كَذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَرُّ الدَّوَابِّ حَيْثُ قَالَ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمَّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ قَالَ: يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أَيَّ خَلْقًا وَجَعَلْنَا لِجَهَنَّمَ ﴿كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ أَيَّ هَيَأَنَاهُمْ لَهَا، وَبَعَمَلِ أَهْلِهَا يَعْمَلُونَ فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ عَلَّمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ كَوْنِهِمْ، فَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ فِي كِتَابٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، كَمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ. أَهـ وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَوْلُهُ: ﴿أَوَلَيْكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَفْتَ صِفَتَهُمُ الْقَوْمَ الَّذِينَ غَفَلُوا يَعْنِي سَهَوُ عَنْ آيَاتِي وَحُجْجِي وَتَرَكُوا تَدْبِيرَهَا وَالْإِعْتِبَارَ بِهَا وَالِاسْتِدْلَالَ عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ رَبِّهَا، لَا الْبَهَائِمَ الَّتِي قَدْ عَرَفَهَا رَبُّهَا مَا سَخَرَهَا لَهُ. أَهـ وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قَالَ أَبُو السَّعُودِ الْعِمَادِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ تَنْبِيْهُ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى كَيْفِيَّةِ ذِكْرِهِ تَعَالَى وَكَيْفِيَّةِ الْمَعَامَلَةِ مَعَ الْمُخَلَّيْنِ بِذَلِكَ الْغَافِلِينَ عَنْهُ سَبْحَانَهُ عَمَّا يَلِيْقُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ وَمَا لَا يَلِيْقُ بِهِ إِثْرَ بَيَانِ غَفْلَتِهِمُ التَّامَةِ وَضَلَالَتِهِمُ الطَّامَةِ، وَالْحُسْنَى تَأْنِيْثُ الْأَحْسَنِ أَيُّ الْأَسْمَاءِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الْأَسْمَاءِ وَأَجْلُّهَا لِإِنْبَائِهَا عَنْ أَحْسَنِ الْمَعَانِي وَأَشْرَفِهَا. أَهـ وَمَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَيُّ وَلِلَّهِ أَكْرَمُ الْأَسْمَاءِ وَأَجْلُّهَا وَأَحْسَنُهَا وَهِيَ خَاصَّةٌ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ فَاسْأَلُوهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا وَتَوَسَّلُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِذِكْرِهَا، وَاعْبُدُوهُ وَنَادُوهُ بِهَا، وَسَمُّوهُ بِهَا، وَهُوَ وَحْدَهُ أَعْلَمُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ فَلَا تَسْمُوهُ

إلا بما سُمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ وكل أسمائه حسنى وكل صفاته عُلَى ومَهَّلُوا الذين يلحدون في أسمائه فيسمونه بغير ما سُمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ من الملحدين المشركين والمعطلين والمشبّهين والمؤولين والممثلين والمحرّفين والمكيفين ، واتركوهم إلى أجل هم بالغوه وسوف يجزون بما كانوا يفترونه على الله وبما كانوا يعملونه من المعاصي والسيئات ، وقد تفضل الله تبارك وتعالى على أهل السنة والجماعة فأثبتوا لله ما أثبتته لنفسه أو أثبتته له رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العُلَى من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تحريف ولا تكيف ولا تعطيل ولا تأويل فإنه عز وجل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وقد سُمى الله عز وجل نفسه حفيظا عليما ، وسُمى بعض عباده حفيظا عليما وليس الحفيظ العليم الذي سُمى الله بهما نفسه كالحفيظ العليم الذي سُمى الله بهما بعض عباده ، ولذلك قال الخضر لموسى عليه السلام لما ركبوا السفينة ووقع عصفورٌ على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر: يا موسى ما علمك وعلمي وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفورٌ منقاره كما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي بن كعب ، فأسماء الله وصفاته لا تليق إلا به ، وأسماء العباد وصفاتهم لا تليق إلا بهم ، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة . قال النووي : اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه فليس معناه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين ، وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة ، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء ، ولهذا جاء في الحديث : أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك . اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : ثم ليعلم أن الأسماء

الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبي سلمة الجهني عن القاسم ابن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما أصاب أحدا قط همٌّ ولا حزنٌ فقال : اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيَّ حكمك ، عدلٌ فيَّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سَمَّيتَ به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحاً » . فقليل : يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال : « بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها » . وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستي في صحيحه بمثله . اهـ وقد صحح هذا الحديث ابن القيم وغيره ، وأصل الإلحاد في كلام العرب : العدول عن الصراط المستقيم . وقال الزجاج رحمه الله : وقوله : ﴿ والله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ لا ينبغي أن يدعوه أحد بها لم يصف نفسه به أو لم يسم به نفسه ، فيقول في الدعاء : يا الله ، يا رحمن ، يا جَوَادُ ولا ينبغي أن يقول يا سبحان لأنه لم يصف نفسه بهذه اللفظة ، وتقول يا رحيم ولا تقول : يا رفيق ، وتقول : يا قوي ، ولا تقول : يا جلدُ . اهـ والله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . وقد وصف الله تبارك وتعالى أسماءه بأنها الحسنى في هذا المقام وفي آخر سورة الإسراء وفي أول سورة طه وفي آخر سورة الحشر حيث قال عز وجل في أواخر سورة الإسراء : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ وقال عز وجل في أوائل سورة طه : ﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ وقال في آخر سورة الحشر : ﴿ هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ﴾ .

قال تعالى : ﴿ ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ * والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملى لهم ، إن كيدى متين * أو لم يتفكروا ، ما بصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذيرٌ مبينٌ * أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون * من يضل الله فلا هادي له ، ويذرهم في طغيانهم يعمهون * يسئلونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة يسئلونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون * قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرراً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، إن أنا إلا نذير وبشيرٌ لقوم يؤمنون ﴾ .

بعد أن رَغِبَ الله تبارك وتعالى عباده وحرَّضهم على أن يتضرعوا إليه ويسألوه الهداية والتوفيق إلى سلوك الصراط المستقيم وبعد تعريفهم بأن الهداية بيد الله وحده وتحذيرهم من سلوك طريق الضالين الخاسرين فإن من سلكها كان حرياً بأن يكون في عداد أهل جهنم التي ذرأ الله لها كثيراً من الجن والإنس الذين انطمست بصائرهم وعميت أعينهم وصمت آذانهم فصاروا كالأنعام بل هم أضل ، وأرشد عباده إلى أن يتوسلوا إليه بأسمائه الحسنى ، وأن يهجروا الذين يلحدون في أسمائه ويعرضون أنفسهم للعذاب الأليم ، شرع هنا في زيادة تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ وأفئدة المؤمنين ببيان حال جماعة من خلقه قد سلك الله عز وجل بهم صراطه المستقيم فهم بعمل أهل الجنة يعملون ، حيث يهدون الناس بالحق ، ويدُلُّونهم على الصراط المستقيم ، ويقىمون العدل بين الناس ، وحذر تبارك وتعالى الذين يكذبون

بآيات الله التي بعث بها محمدا ﷺ الذين يسلكون طريق من ذرأهم الله عز وجل لجهنم، بأنه سيعاقبهم بعقوبة الاستدراج والإملاء لهم من حيث لا يشعرون، وقد جاء ذلك على النهج القرآني في الترغيب والترهيب، ثم لفت انتباه المكذبين الجاحدين إلى إعادة النظر وإعمال الفكر في شأن الصادق المصدوق أكمل خلق الله عقلا وصدقا وقد كانوا قبل بعثته يلقبونه بالصادق الأمين ﷺ، وطلب منهم كذلك النظر والتفكير في ملكوت السموات والأرض وسائر ما يشاهدونه من خلق الله وأن يعلموا أن أعمارهم بيد الله لعلهم يرجعون إلى الله ويطلبون منه عز وجل هدايتهم إلى سواء السبيل حتى لا يخذلوا فينغمسوا في ضلالهم وطغيانهم، والساعة آتية لا ريب فيها، وعلمها عند الله وحده، وليس بيد محمد ﷺ نفع العباد أو ضررهم، ولا يملك ذلك إلا الله عز وجل وفي ذلك يقول: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهُودًا بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهُودًا بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي وبعض من خلقنا من الجن والإنس جماعة كثيرة دعاة إلى الحق سالكون طريق الرشد يعدلون في أحكامهم وينصفون في معاملاتهم، وقد ذكر رسول الله ﷺ أنه لا تزال طائفة من أمة ﷺ ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله فقد روى البخاري من حديث المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال: لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون. ورواه مسلم في صحيحه من حديث المغيرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون. كما روى البخاري من حديث معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت النبي ﷺ يقول: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم ويعطي الله، ولن يزال أمر هذه الأمة

مستقيماً حتى تقوم الساعة أو حتى يأتي أمر الله . ولفظ مسلم من حديث معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة وفي لفظ لمسلم من حديث معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس . وقد بشر الله تبارك وتعالى الذين يقيمون العدل بين الناس بأنه عز وجل يحبهم حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ . ويقول عز وجل : ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ . كما بشر رسول الله ﷺ الذين يعدلون بين الناس بأن الله عز وجل يجعلهم على منابر من نور يوم القيامة فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين : الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وأملئ لهم ، إن كيدي متين ﴿ تهريب شديد من التكذيب بآيات الله ، ووعيد لهؤلاء المكذبين بألوان من عقوبات الله لهم في الدنيا والآخرة ، حيث يستدرجهم بالنعمة فيغترون ولا يشكرون ويمهلهم فيظنون أن الإمهال إهمال ، ثم تحيط بهم معاصيهم بعد أن يستغرقوا في الترف والملذات والمعاصي فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر وهم لأهون غافلون لا يدرون ما يدبر لهم ولا ما يكادون به ، قال ابن منظور في لسان العرب : وَدَرَجَةُ إِلَى كَذَا وَاسْتَدْرَجَهُ بِمَعْنَى ، أَي أَدْنَاهُ مِنْهُ عَلَى التَّدْرِيجِ ، فَتَدَرَّجَ هُوَ ، فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قال بعضهم : معناه : سنأخذهم قليلاً قليلاً ولا نباغتهم . وقيل :

معناه : سنأخذهم من حيث لا يحتسبون . وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به فيركنون إليه ، ويأنسون به فلا يذكرون الموت ، فيأخذهم على غرَّتْهم أغفل ما كانوا ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حُجِّل إليه كنوز كسرى : اللهم إني أعوذ بك أن أكون مُسْتَذْرَجًا فإني أسمعك تقول : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ . اهـ ومعنى قوله عز وجل ﴿ وأملي لهم ﴾ أي أمهلهم وأطوّل لهم كما قال عز وجل : ﴿ ولا يَحْسَبَنَّ الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم ، إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ، ولهم عذاب مهين ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ فلما نَسُوا ما ذُكِّرُوا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أُوتُوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ فقطع دابرُ القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إن كيدي متين ﴾ أي إن تدبيري قوي شديد وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أو لم يتفكروا ، ما بصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذير مبين ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره : أو لم يتفكر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا فيتدبروا يعقلوهم ويعلموا أن رسولنا الذي أرسلناه إليهم لا جنة به ولا خبل وأن الذي دعاهم إليه هو الدين الصحيح القويم والحق المبين . ثم قال رحمه الله : ويعني بقوله : ﴿ إن هو إلا نذير مبين ﴾ ما هو إلا نذير ينذركم عقاب الله على كفركم به إن لم تنبئوا إلى الإيمان به ، ويعني بقوله : ﴿ مبين ﴾ قد أبان لكم أيها الناس إنذاره ما أنذركم به من بأس الله على كفركم به . اهـ ولا شك أن كفار قريش كانوا موقنين بأن محمدا ﷺ هو أعظم الناس عقلا وأمانة وصدقا ، لكنهم كانوا لجحودهم يسارعون إلى وصفه بأمور يعلمون أنه أبعد الناس عنها حتى قالوا : معلّم مجنون ، ولو تدبروا لأيقنوا أن المجنون لا يقبل التعليم ، ولذلك أمر الله تبارك وتعالى نبيه محمدا ﷺ أن يطلب منهم أن يقوموا قياما خالصا لله لا تعصب فيه اثنين اثنين

وواحدا واحدا ثم يتفكروا في هذا الذي جاءهم به رسول الله ﷺ من
 عند ربه ، أبه جنون أم لا ، لأنهم إن فعلوا ذلك ظهر لهم أنه رسول الله حقا
 وصدقا ، حيث يقول عز وجل : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى
 وفردا ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدي
 عذاب شديد ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات
 والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي
 حديث بعده يؤمنون ﴾ قال الزجاج : أي ألم يستدلوا بما أنبأهم به من ملكوت
 السموات والأرض ﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ﴾ أي إن كانوا
 يُسَوِّفون بالتوبة فعسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فالمعنى : أولم ينظروا فيما
 دهم الله جل ثناؤه على توحيد فكفروا بذلك فلعلهم قد قربت آجالهم
 فيموتون على الكفر . اهـ وقال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر يقول
 تعالى ذكره : أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله في ملك الله وسلطانه في
 السموات وفي الأرض وفيما خلق جل ثناؤه من شيء فيهما ، فيتدبروا ذلك
 ويعتبروا به ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه ، ومن فعل من لا
 ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله
 وينيبوا إلى طاعته ويخلعوا الأنداد والأوثان ويحذروا أن تكون آجالهم قد
 اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه ، وقوله :
 ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ يقول : فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد
 تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذي أتاهم به من عند الله في أي كتابه يصدقون إن
 لم يصدقوا بهذا الكتاب الذي جاءهم به محمد ﷺ من عند الله تعالى . اهـ
 وقوله تبارك وتعالى : ﴿ من يضل الله فلا هادي له ، ويذرهم في طغيانهم
 يعمهون ﴾ . تأكيد على أن من خذله الله فلا هادي له ، ويذره الله عز وجل
 مستغرقا في كفره عامها متحيرا ، كما قال عز وجل : ﴿ من يهد الله فهو

المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴿١﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو، ثقلت في السموات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك خفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي يسألك الكافرون عن القيامة استبعادا لوقوعها وتكديبا بوجودها قائلين لك ﴿أيان مرساها﴾ أي متى وقوعها وقيامها ومجيئها ومحطها؟ ومعنى : ﴿قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء السائلين عن الساعة : إنما علمها عند الله وحده فإنه هو الذي يجليها لوقتها أي يعلم جليلة أمرها ومتى يكون على التحديد ومعنى قوله : ﴿ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة﴾ أي ثقل علمها على أهل السموات والأرض حيث ييغتهم قيامها، وقوله : ﴿يسألونك كأنك خفي عنها﴾ أي يسألونك كأنك غير عالم بأن الله قد استأثر بعلمها وأنت تلحف في السؤال عنها، وذلك من شدة جهلهم والمبالغة في تكذيبهم، ولذلك أكد الله تبارك وتعالى ذلك فقال : ﴿قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ . أي ولكن أكثر الناس وهم الجاهلون لا يعلمون أن الله قد استأثر بعلمها، وأن أمر الساعة كلمح البصر أو هو أقرب . وقوله عز وجل : ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله﴾ الآية تقرير لحقيقة رسول الله ﷺ ووظيفته بأنه عبد الله ورسوله لا يقدر على جلب نفع لنفسه ولا لغيره ولا يقدر على دفع ضرر عن نفسه أو عن غيره إلا بمشيئة الله فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يعلم الغيب، لأن عالم الغيب والشهادة هو رب العالمين، كما قال عز وجل : ﴿عالم الغيب فلا يُظهرُ على غيبه أحدا﴾ * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا﴾ وأنه ليس على رسول الله إلا البلاغ المبين لإنذار

من عصاه بالنار وبشارة من أطاعه بالجنة ولا ينتفع بذلك إلا المؤمنون وإن
تعجب فعجب للذين يدعون أصحاب القبور والأضرحة ويسألونهم أن
يجلبوا لهم نفعا أو يدفعوا عنهم ضرا وهم يقرؤون هذه الآية في حق أفضل
الخلق محمد ﷺ.

قال تعالى : ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهاما صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها ، فتعالى الله عما يشركون * أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون * ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون * وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أدعوتهم أم أنتم صامتون * إن الذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين * ألهم أرجلٌ يمشون بها أم لهم أيدٍ يبطشون بها أم لهم أعينٌ يبصرون بها أم لهم أذانٌ يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون * إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ .

بعد أن ذكر عز وجل حال جماعة من خلقه قد سلك بهم صراطه المستقيم فوفقهم لعمل أهل الجنة ، وحذّر الذين يكذبون بآيات الله التي بعث بها محمداً ﷺ الذين يسلكون طريق من ذرأهم الله عز وجل لجهنم ، ونبههم إلى بعض العقوبات التي سيعاقبهم بها من الاستدراج والإملاء لهم من حيث لا يشعرون ، ولفت انتباه المكذبين إلى إعادة النظر وإعمال الفكر في شأن الصادق المصدوق محمد ﷺ وطلب منهم كذلك النظر والتفكير في ملكوت السموات والأرض وجميع ما خلق الله ، ونبههم إلى أن أعمارهم بيد الله وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن علم وقت مجيئها عند الله وحده ، وليس بيد محمد ﷺ نفع العباد أو ضررهم وأنه لا يملك ذلك إلا الله وحده ، شرع هنا في توبيخ المشركين من قريش وغيرهم على إشراكهم بالله وكفرهم بمن خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، ونذّر بمن يعبد ما لا يضره ولا ينفعه ، ولا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه ، ولا يعقل دعاء

من دعاه، وأمر نبيه محمدا ﷺ أن يتحدى المشركين وأصنامهم بأنه ﷺ لا يعبأ بهم، وأنهم مهمل بالغوا في الكيد له فلن يطفئوا نور الله، وفي ذلك يقول: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تُنظرون﴾ إن وَلِيِّ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين* والمراد بالنفس الواحدة آدم أبو البشر عليه السلام، ووصف النفس بأنها واحدة تنبيه على كمال علم الله وقدرته حيث أنشأ من هذه النفس الواحدة ما لا يحصي عدده إلا الله من الأنفس المختلفة الألوان والأشكال والألسنة مهمل طالت الأعصار وتباعدت الديار كما أشار الله إلى ذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون* ومن آياته خَلَقَ السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين* ومعنى ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ أي وخلق لآدم حواء زوجة له ليستأنس بها وقد جعلها من جنسه، وأشار رسول الله ﷺ إلى أن الله تبارك وتعالى قد خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم عليه السلام فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء. ومعنى قوله: ﴿فلما تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلا خفيفا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي فلما واقع الزوج زوجته حملت من نطفة الزوج حملا خفيفا لا ثقل له في البطن فصارت تذهب وتجيء لخفة حملها وسهولته ومعنى: ﴿فلما أثقلت﴾ أي فلما كبر بطنها وثقل عليها حملها، واقترب وقت الولادة، وقوله: ﴿دَعَا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين﴾ فلما آتاها صالحا

جعلاً له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون ﴿١﴾ أي سأل الزوجان ربهما وتضرعا إليه أن يرزقهما ولدا صالحا ليشكراه تبارك وتعالى ، فلما تفضل الله عليهما بالولد الصالح لم يقوما بشكر نعمة الله بل جعلاً لله شركاء وعَبَدَا غيره ، فتنزه الله وتعالى وتقدس عن أن يكون له شريك ، والمقصود من الزوجين المشركين هنا من أشرك بالله من الأزواج والزوجات من ذرية آدم ، وقد تم الكلام على آدم وحواء عند قوله عز وجل : ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ مع الإشارة فيه إلى نعمة الله التي أنعم بها على آدم وذريته ، أما قوله : ﴿فلما تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا﴾ إلى قوله : ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ هو انتقال بعد ذكر آدم وزوجته واستطراد إلى ذكر الجنس والذرية ، وهو أسلوب بلاغي قد ورد كثيرا في القرآن الكريم حيث يذكر الشيء ثم يستطرد إلى ذكر جنسه كما في قوله تعالى : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾ فال مخلوق من الطين آدم ، والمخلوق من النطفة بنوه وذريته وكذلك قوله تعالى : ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين﴾ فال معلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء ولكنه استطراد من شخصها إلى جنسها . أما ما رواه أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد الصمد بن عبد الوارث عن عمر ابن إبراهيم عن قتادة عن الحسن البصري عن سمرة عن النبي ﷺ قال : لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال : سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش ، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره . وقال الترمذي : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر ابن إبراهيم ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه ، قال ابن كثير في تاريخه : فهذه علة قاذحة في الحديث أنه روي موقوفا على الصحابي ، وهذا أشبه ، والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات ، وهكذا روي موقوفا عن ابن

عباس ، والظاهر أن هذا متلقى عن كعب الأحبار وذويه ، والله أعلم وقد
فسر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا فلو كان عنده عن سمرة
مرفوعا لما عدل عنه إلى غيره اهـ وقال ابن كثير في تاريخه أيضا : قاله تعالى
إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر وليبث منهما رجالا كثيرا ونساء فكيف
كانت حواء لا يعيش لها ولد . اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه
الآية : هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه وأشار رحمه الله إلى أن العلة الأولى
هي قول أبي حاتم الرازي في عمر بن إبراهيم : لا يحتج به ، والعلة الثانية أنه
روي من قول سمرة نفسه ليس مرفوعا ، والعلة الثالثة : أن الحسن نفسه فسر
الآية بغير هذا فلو كان عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه . قال ابن جرير :
حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن : ﴿ جعل له
شركاء فيما آتاهما ﴾ قال : كان هذا في بعض أهل الملل ، ولم يكن بآدم ،
وحدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال : قال
الحسن : عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعني ﴿ جعل له شركاء فيما
آتاهما ﴾ وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال : كان الحسن
يقول : هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهُودُوا ونَصَرُوا . وهذه أسانيد
صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك ، وهو من أحسن
التفاسير وأولى ما جُمِلت عليه الآية ، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظا عن
رسول الله ﷺ لما عَدَلَ عنه هو ولا غيره ، ولا سيما مع تقواه لله وورعه . اهـ
وإن تعجب فعجب للذين ينسبون آدم وحواء إلى الشرك بالله ، وأن يكون أوَّل
شرك في الأرض من آدم وزوجه ، والمعروف أن الشرك الأصغر أكبر من الزنا
والقتل وشرب الخمر والسرقة مع أن المعروف الثابت أنه لم يقع شرك في الأرض
إلا في أمة نوح عليه السلام ولا شك أن قوله عز وجل في صلب الآية :
﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ دليل ظاهر على أنه ليس المراد آدم وحواء إذ لو

كان المراد آدم وحواء لقول: فتعالى الله عما يشركان. والآية ظاهرة في أن المراد بالشرك هنا ما يعم الشرك الأصغر والأكبر ولذلك زاد في توبيخ المشركين والتنديد بهم حيث قال: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ وهذا ولا شك يشمل الشرك الأكبر والشرك الأصغر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وكذلك ذكر الله سبحانه على لسان محمد في الشرك عموماً وخصوصاً فقال: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ * إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَهَلَمْ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبِطْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ﴾ واستفهم استفهام إنكار وجحود لطرق الإدراك التام وهو السمع والبصر، والعمل التام وهو اليد والرجل كما أنه سبحانه لما أخبر فيما روى عنه رسوله عن أحبائه المتقربين إليه بالنوافل، فقال: ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها. اهـ هذا وقد ضعف ابن العربي في تفسيره الحديث الذي يجعل هذا الشرك قد وقع من آدم وحواء حيث قال: وذلك مذكور ونحوه في ضعيف الحديث في الترمذي وغيره، وفي الإسرائيليات كثير ليس لها ثبات، ولا يعول عليها من له قلب، فإن آدم وحواء - وإن كان غرهما بالله الغرور - فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، وما كانا بعد ذلك ليقبلا منه نصحاً ولا يسمعا منه قولاً. ثم بين رحمه الله أن المراد بهذا جنس الآدميين فإن حالهم في الحمل وخفته وثقله إلى صفة واحدة، إذا خفَّ عليهم الحمل استمروا به، فإذا ثقل عليهم نذروا كل نذر فيه، فإذا ولد

لهم ذلك الولد جعلوا فيه لغير الله شركاء في تسميته وعمله ، حتى إن منهم من ينسبه إلى الأصنام ويجعله لغير الله وعلى غير دين الإسلام ، وهذا القول أشبه بالحق وأقرب إلى الصدق ، وهو ظاهر الآية وعمومها الذي يشمل جميع متناولاتها ، وَيَسْلَمُ فيها الأنبياء عن النقص الذي لا يليق بجُهاَل البشر ، فكيف بساداتهم وأنبيائهم . اهـ . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ أي أيعبدون مع الله أنداداً وأصناماً وأوثاناً ما لا يقدر على خلق ذبابة وهذه الأصنام وعابدها مصنوعون مخلوقون بل بعض عابديها أقدر على الحركة منها ، وقد يكون العابد هو الصانع لمعبوده كما قال خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ وقد ضرب الله تبارك وتعالى مثلاً لعجز هذه الأصنام حيث قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مِثْلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ولهذا قال عز وجل في هذا المقام : ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ أي لا يقدرُونَ على نصر عابديهم ولا يستطيعون نصر أنفسهم ممن أرادهم بسوء ، فهل يليق بعاقل أن يذل ويعبد من لا يملك له ولا لغيره نفعاً ولا ضراً ، ولا يستطيع أن يحمي نفسه ممن أرادته بسوء ؟ قال ابن كثير رحمه الله : وقوله : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ الآية ، يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، وسواء لديها من دعاها ومن دحأها ، كما قال إبراهيم : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها أي مخلوقات مثلهم بل الأناس أكمل منها لأنها تسمع وتبصر وتبطلش ، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك ، وقوله : ﴿ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ الآية أي استنصروا بها عليّ فلا تؤخروني طرفة عين واجهدوا جهدكم ﴿ إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ

الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴿ أي الله حسبي وكافيني وهو نصيري ، وعليه مُتَّكَلِّي ، وإليه أُلْجَأ ، وهو وَلِيِّي في الدنيا والآخرة ، وهو ولي كل صالح بعدي ، وهذا كما قال هود عليه السلام لما قال له قومه : ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهدُ الله واشهدوا أني بريء مما تشركون ﴾ * من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ * إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴾ . اهـ

قال تعالى : ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ * وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون * خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإما يتزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم * إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ .

بعد أن وبخ الله المشركين من قريش وغيرهم على إشراكهم بالله ، وكفرهم بمن خلقهم من نفس واحدة ، وندد بمن يعبد ما لا يملك له نفعا ولا ضرا ، ولا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه ، ولا يعقل دعاء من دعاه ، وأمر نبيه محمدا ﷺ أن يتحدى المشركين وأصنامهم بأنه ﷺ لا يعبأ بهم ، وأنهم مهما بالغوا في الكيد له والمكر به فلن يطفئوا نور الله الذي بعثه به ، وأن ينهبهم إلى أن الله ناصره عليهم لأنه عز وجل وليه القادر على الانتصار لأوليائه الصالحين ، شرع هنا في توكيد عدم مبالاة رسول الله ﷺ بالمشركين وأهتهم وأنهم مهما كادوا له فلن يتمكنوا منه لأنه في رعاية وليه فاطر السموات والأرض الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، فمن نصره الله فهو المنصور ومن خذله الله فهو المخذول المقهور كما قال الشاعر :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نَمَ فالخاواف كلهن أمان
وأكد للمشركين أن أصنامهم أعجز من أن تهدى ضالا ، لأنها لا تسمع ولا تبصر ثم أمر نبيه محمدا ﷺ وأتباعه بأن يحسنوا إلى من أساء إليهم ، وأن يصبروا على ما يلقونه من أذى أعدائهم ، وأن يأمروا بالمعروف ، وأن يعرضوا عن الجاهلين ، وأن يستعيذوا بالله من نزغات الشياطين ، ووصف المؤمنين بأنهم سريعو العودة إلى طاعة الرحمن إن أصابهم طيف من الشيطان ، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا

أنفسهم ينصرون ﴿ إلى قوله عز وجل : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مُبصرون ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر : وهذا أيضا أمر من الله جل ثناؤه لنبيه أن يقوله للمشركين ، يقول له تعالى ذكره : قل لهم : إن الله نصيري وظهيري ، والذين تدعون أنتم أيها المشركون من دون الله من الآلهة لا يستطيعون نصركم ، ولا هم مع عجزهم عن نصرتكم يقدرّون على نصرة أنفسهم ، فأَيُّ هذين أولى بالعبادة وأحق بالآلوهة ؟ أَمَنْ ينصر وليّه ويمنع نفسه ممن أرادته أم من لا يستطيع نصر وليّه ، ويعجز عن منع نفسه ممن أرادته وبغاه بمكروه ؟ . اهـ وقوله عز وجل : ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ تأكيد على أن المشركين قد خلت آذانهم اللحمية من اللطيفة الربانية التي تفرق بها الأذن بين ما تسمع من الخير وما تسمع من الشر ، فهم مهما دعاهم دعاة الخير إلى ما فيه الخير لهم في الدنيا والآخرة فإنهم لا يسمعون كما قال عز وجل ﴿ ولهم آذان لا يسمعون بها ﴾ كما تقدم قريبا ، كما أنهم قد خلت أعينهم من اللطيفة الربانية التي تفرق بها العين بين مشاهد الحق ومشاهد الباطل ، فمهما رأوا من آيات الله فإنهم لا يستفيدون منها ، كأنهم خشبٌ مسندة كما قال عز وجل : ﴿ ولهم أعين لا يبصرون بها ﴾ فمن رآهم ينظرون إليه يحسب أنهم قد سلمت أعينهم ، والواقع أنهم عُميّ عما فيه نجاتهم وفلاحهم ، كما قال عز وجل : ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ فآلة السمع والبصر موجودة فيهم ولكنهم حُرِموا المقصود الأصلي منها الموصل إلى جنات النعيم ، ومن نظر إلى البهائم وهي تنظر إليه وهو من ذوي الفكر أيقن أن

نظرها إليه ليس نظر تَفَكُّر وتَعَقُّل ، مع أن هذه البهائم إذا نَظَرَتْ إلى ما تحتاجه من الطعام أو الشراب أقبلت إليه ، وإذا نظرت إلى ما يؤذيها هربت منه أو حاولت افتراسه ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه سميع عليم ﴿ هذا المقام الكريم في التربية والتعليم ورسم أحسن مناهج السلوك لا نظير له في غير القرآن الكريم ، ولا نظير له في القرآن الكريم إلا في مقامين آخرين أحدهما في سورة المؤمنون حيث يقول عز وجل : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ﴾ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ وثانيهما في سورة حم السجدة حيث يقول عز وجل : ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ وما يُلقَّاها إلا الذين صبروا وما يلقَّاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴿ ولا شك أن الإنسان إذا قابل إساءة المسيء بالإحسان إليه دفع كثيرا من شره ، ولذلك قيل : الإنسان أسير الإحسان ، فهذه الحيلة والمعاملة تجدي مع شياطين الإنس ، لكنها لما كانت لا تجدي مع شياطين الجن ولا تنفع معهم حيلة لأنه لا همَّ لهم غير إهلاك الإنسان ودماره بالكلية لتمكن العداوة بين الشيطان والإنسان من لدن آدم وإلى أن تقوم القيامة لذلك أرشد الله تبارك وتعالى عباده إلى الاستعاذة بالله السميع العليم من نزغ الشيطان وهمزه ولمزه فإنه عز وجل هو وحده القادر على دفع شره ، والمراد بالعفو في قوله عز وجل : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ معاملة الناس بالإحسان وترك التشدد معهم في كل ما يتعلق بالحقوق المالية والتخلق بالخلق الطيب وترك الغلظة والفظاظة التي أشار الله عز وجل إليها في قوله تبارك وتعالى : ﴿ فيها رحمة من الله لئن تم لهم ولو كنت

فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا تَنْقُضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴿١﴾ والمراد بالعُزْفِ المعروف، والمراد بالإعراض عن الجاهلين هو الصبر على أذاهم كما قال عز وجل: ﴿٢﴾ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وهذه أجمع آية في القرآن لمكارم الأخلاق وقد قال البخاري في صحيحه: باب «خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين» العرف المعروف. حدثنا أبو اليان أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من نفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولا كانوا أو شبَّانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال هي يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همَّ أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿٤﴾ خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين ﴿٥﴾ وإنَّ هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقفاً عند كتاب الله. حدثنا يحيى حدثنا وكيع عن هشام عن أبيه عن عبد الله بن الزبير ﴿٦﴾ خذ العفو وأمر بالعرف ﴿٧﴾ قال ما أنزل الله إلا في أخلاق الناس، وقال عبد الله بن برّاد حدثنا أبو أسامة حدثنا هشام عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال: أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس، أو كما قال. اهـ والمراد بالنزغ في قوله تبارك وتعالى: ﴿٨﴾ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله، إنه سميع عليم ﴿٩﴾ هو الوسوسة والإغراء والإفساد والإغواء، قال ابن منظور في لسان العرب المحيط: النزغ أن تنزغ بين قوم فتَحْمِلَ بعضهم على بعض بفساد

بينهم ، ونزغ بينهم ينزغ وينزغ نَزْغاً : أغرى وأفسد وحمل بعضهم على بعض والنزغ : الكلام الذي يغري بين الناس ، ونَزَغُهُ حركه أدنى حركة ، ونزغ الشيطان بينهم ينزغ وينزغ نَزْغاً أي أفسد وأغرى ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ نزغ الشيطان وسأوسه ونخسه في القلب بما يسؤل للإنسان من المعاصي ، يعني يُلقِي في قلبه ما يفسده على أصحابه وقال الزجاج : معناه إن نالك من الشيطان أدنى نزغ ووسوسة وتحريك يصرفك عن الاحتمال فاستعذ بالله من شره وامض على حكمك . اهـ ومعنى : ﴿ فاستعذ بالله ، إنه سميع عليم ﴾ أي فاستجر بالله والتجئ إليه وتحصن به من نزغ الشيطان ووسوسته وإغوائه فإنه لا يدفع شره عنك إلا الله السميع العليم ، وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث سليمان بن صرد رضي الله عنه قال : كنت جالسا مع النبي ﷺ ورجلان يستبان ، فأحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه فقال النبي ﷺ : إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد ، لو قال أعوذ بالله من الشيطان ذهب عنه ما يجد . الحديث . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ أي إن المؤمنين الذين عرفوا ربهم واتقوه إذا أصابهم نزغ من الشيطان تذكروا وعد الله ووعيده ، فإذا هم مبصرون هدى الله فمتهون عما دعاهم إليه الشيطان وما أغراهم به وراجعون إلى ربهم وتائبون من ذنبهم ، وقد فتح الله تبارك وتعالى للمؤمنين باب التوبة ورجعهم فيها وبشرهم بأنه يحب التوابين كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيَحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ، والمؤمن يعلم أن الشيطان لا يوسوس إلا بالشر ، ولا ينزغ إلا بما يضر ، فإذا صادف الشيطان منه غرة وغفلة اهتبلها ، غير أن المؤمن سرعان ما يتنبه من غفلته ويرجع إلى ربه ويقطع عن ذنبه ، قال الترمذي في جامعه : حدثنا هناد حدثنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب

عن مُرَّةَ الهَمْدَانِي عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : إن للشيطان لَمَّةً بآدم وللملَك لَمَّةً فأما لَمَةُ الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لَمَةُ الملَك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ : ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب وهو حديث أبي الأحوص لا نعلمه مرفوعاً إلا من حديث أبي الأحوص . اهـ وقد روى مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة .

قال تعالى : ﴿ وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ﴾ * وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها ، قل إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربّي ، هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون * وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون * واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين * إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾ .

بعد أن أكد الله عز وجل أن رسول الله محمدًا ﷺ لن يبالي بالمشركين وأهنتهم وأنهم مهما كادوا له فلن يتمكنوا منه لأنه في رعاية وليه فاطر السموات والأرض الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وأكد للمشركين أن أصنامهم أعجز من أن تهدي ضالا لأنها لا تسمع ولا تبصر وأمر نبيه محمدًا ﷺ وأتباعه بأن يحسنوا إلى من أساء إليهم وأن يصبروا على ما يلقونه من أذى أعدائهم وأن يأمروا بالمعروف وأن يعرضوا عن الجاهلين وأن يستعيذوا بالله من نزغات الشياطين ، ووصف المؤمنين بأنهم سريعو العودة إلى طاعة الرحمن إن أصابهم طيفٌ من الشيطان ، شرع هنا في تأكيد انغماس المشركين في الضلالة بسبب ولايتهم للشياطين التي لا تزال تغويهم وتزّين لهم الباطل وأنهم لا يزالون يقترحون على رسول الله ﷺ أن يأتيهم بخوارق اتباعا لشهواتهم ، وقد جهلوا أن رسول الله ﷺ ليس عليه إلا البلاغ وأن القرآن كاف شاف في إثبات أن محمدًا هو رسول الله حقا وصدقا ، وهو الآية الكبرى والمعجزة العظمى الباقية ما بقي الليل والنهار والشمس والقمر ، ولو أن هؤلاء المكذبين استمعوا للقرآن وأنصتوا له لسارعوا إلى الإيذان به ولأيقنوا أنه ليس من كلام البشر بل هو كلام مالك القوى والقُدَر ، ثم ختم مسك هذه السورة بأمر رسوله ﷺ بالإكثار من ذكر الله منبها أن الملائكة لا يستكبرون

عن عبادة الله وتسييحه والسجود له ، وفي ذلك يقول ﴿ وإخوانهم يمدوهم في الغي ثم لا يُقْصِرُونَ ﴾ إلى آخرة السورة . ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وإخوانهم يمدوهم في الغي ثم لا يقصرون ﴾ أي وإخوان الشياطين من المشركين تمدهم الشياطين في غيهم وتزيدهم ضلالا فوق ضلالهم ثم لا يُقْصِر الشياطين عن المدد والإمداد ، ولا يُقْصِر أولياؤهم من الإنس عن غيهم وضلالهم بل يزدادون ضلالا فوق ضلالهم وكفرا فوق كفرهم . والمد والإمداد يأتيان بمعنى الزيادة ، والغى الضلال ، والإقصار الكف عن الشيء والانهاء عنه يقال : أقصر فلان عن الشيء يُقْصِر إقصارا إذا أمسك وكفَّ عنه وانتهى . وقوله عز وجل : ﴿ وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها ﴾ بيان لتعنت المشركين من قريش وسفاهتهم حيث كانوا يقترحون على رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآيات كأن يفجر لهم من أرض مكة ينبوعا ، أو يسقط السماء عليهم كسفا أو يأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يرقي في السماء ، أو يكلمهم الموتى وكان رسول الله ﷺ يجيبهم بأن الآيات عند الله ، فكانوا يستهزئون ويقولون هلا اصطفت لنا آية من عندك ؟ فأمره الله عز وجل أن يخبرهم بأنه عبدٌ رسول يتَّبِع ما يوحى الله إليه ، وأن الله تبارك وتعالى قد أعطاه القرآن وهو حجة عظمى ومعجزة كبرى يعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة واحدة من مثله ، كما قال عز وجل : ﴿ وقالوا لن نؤمنَ لك حتى تفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعا * أو تكونَ لك بئنة من نخيل وعنب فتفْجُرَ الأنهار خلالها تَفْجِيرا * أو تسقطَ السماء كما زعمت علينا كِسفا أو تأتيَ بالله والملائكة قبيلا * أو يكونَ لك بيتٌ من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمنَ لرُقيِّكَ حتى تُنْزَلَ علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنتُ إلا بشرا رسولا ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أو لم يكفهم أنا أنزلنا

عليك الكتاب يُتلى عليهم ، إن في ذلك لرحمة لقوم يؤمنون ﴿ وقال عز وجل هنا : ﴿ قل إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربّي ﴾ أي إنما أنقاد لوحي الله وشرعه ولا أتبع أهواءكم الباطلة ، واقتراحاتكم الفاسدة الكاسدة ، ثم شرع عز وجل في وصف القرآن بأنه بصائر وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ، وأن العيب فيكم أنتم أيها المشركون حيث تحاولون التهويش عليه عندما يتلى عليكم ويقول بعضكم لبعض : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ، فلو أنكم استمعتم له وأنصتتم عند تلاوته لسارعتم إلى الإيمان به وعلمتم أنه ليس من كلام البشر وأيقنتم أنه كلام الله مالك القوى والقُدْر حيث يقول عز وجل : ﴿ هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ * وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴿ وقد نبهت كثيرا إلى أن السور المكية المبدوءة بالحروف المفرقة ، يفتتحها الله بذكر القرآن صراحة أو ضمنا فيمجّده ويعظمه ، ويشير إلى اختلاف الناس فيه بين مؤمن به أو كافر مكذب له ، ويبين أن العقابة الحسنى تكون للمؤمنين به وأن العقابة السيئة تكون للمكذبين به ، ثم يختم السورة بذكر القرآن صراحة أو ضمنا فيمجّده ويعظمه ترغيبا وترهيبا مما يؤكد أن المقصود من الحروف المفرقة في أوائل بعض السور هو الإعجاز والتحدي بهذا القرآن العظيم والذكر الحكيم . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ أي هذا القرآن والوحي الذي جئتكم به من عند الله حجج عليكم وبراهين لكم من ربكم تضيء لمن استضاء بها الطريق المستقيم وتحذره من الوقوع في المهالك ، وتبين له الحق من الباطل ، وهو دلائل تقودكم إلى الحق ، فمن اهتدى بهديه أدخله الله عز وجل في رحمته ، ولا ينال ذلك إلا المؤمنون . كما قال عز وجل : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ وكما قال عز وجل عن التوراة : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب

من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴿١﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي وإذا تُلي عليكم كتاب الله المنزل على محمد ﷺ فأصغوا له سمعكم لتتفهموا آياته ولتعتبروا بمواعظه وأمسكوا عن الكلام لتتمكنوا من ضبط ما تسمعون حتى تتسرب إليكم أنواره فتضيء لكم طريق الهدى وتبتعدوا عن طريق الرّدى وتنخرطوا في سلك عباد الله المتأهلين للدخول في رحمته ، يقال : استمع له وتسمع أي أصغى ومال بسمعه نحوه حتى لا يفوته منه شيء ، وأنصت بمعنى سكت وقد أثنى الله تبارك وتعالى على الجن وإنصاتهم لاستماع القرآن ، وأشار إلى أنهم لما استمعوا له انصرفوا دعاة إلى الله عز وجل مُحَرِّضِينَ قَوْمَهُمْ عَلَى الاستجابة لرسول الله محمد ﷺ والإيمان به حيث يقول عز وجل : ﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويخرجكم من عذاب أليم * ومن لا يُجِبْ داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء ، أولئك في ضلال مبين ﴿٢﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ لِلْبَيْتِ وَإِذْ يَحْمِلُكَ إِلَىٰ الصَّاعِقَةِ فَأَنصِتْ لِلَّهِ﴾ * وإذ يرفع إبراهيم القواعد للبيت وإذ يحملك على الساقية فاستمع لله * وإذ يقول ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والغدو ولا تكن من الغافلين ﴿٣﴾ إرشاد إلى أهم أسباب الفوز والفلاح والنصر على الأعداء وتفريج الكربات ودفع الهموم والأحزان وتخفيف القيام بالتكاليف الدينية والدنيوية فإن الله تبارك وتعالى كان يأمر رسوله محمداً ﷺ إذا اشتد تعنت المشركين معه ، وكثر أذاهم له أن يذكر ربه ويسبح بحمده مشيراً إلى أن ذلك يدفع عنه شر أعدائه ، ويشرح صدره ، ويجلب له الرضا كما قال عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ

كثيرا لعلكم تفلحون ﴿١﴾ وكما قال عز وجل : ﴿٢﴾ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك
 بما يقولون ﴿٣﴾ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴿٤﴾ واعبد ربك حتى
 يأتيك اليقين ﴿٥﴾ وكما قال عز وجل : ﴿٦﴾ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد
 ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار
 لعلك ترضى ﴿٧﴾ وكما قال عز وجل : ﴿٨﴾ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد
 ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴿٩﴾ ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴿١٠﴾
 وكما قال عز وجل ﴿١١﴾ واذكر اسم ربك وتبَيَّلْ إليه تبتيلا ﴿١٢﴾ ربُّ المشرق والمغرب
 لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴿١٣﴾ واصبر على ما يقولون واهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٤﴾
 والمراد بذكر الله في النفس : تسييحه وتقديسه وتهليله وتعظيمه وتكبيره
 وتمجيده ونداؤه ودعاؤه وسؤاله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وتلاوة كتابه
 مع التفكير والتدبر في آلائه كما قال عز وجل : ﴿١٥﴾ إن في خلق السموات
 والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولى الأبصار ﴿١٦﴾ الذين يذكرون الله
 قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما
 خلقت هذا باطلا سبحانه ﴿١٧﴾ فقنا عذاب النار ﴿١٨﴾ ومعنى : ﴿١٩﴾ تضرعا ﴿٢٠﴾ أي
 تخشعا وتذللا وتمسكنا ورجاء وخضوعا واستكانة ، ومعنى : ﴿٢١﴾ وخيفة ﴿٢٢﴾ أي
 وخوفا ورهبة ، ومعنى : ﴿٢٣﴾ ودون الجهر من القول ﴿٢٤﴾ أي واجمع في ذكرك لربك
 بين لسانك وقلبك بصوت دون الجهر كما قال عز وجل عن زكريا عليه
 السلام : ﴿٢٥﴾ إذ نادى ربه نداء خفيا ﴿٢٦﴾ قال رب إني وهنَ العظم مني واشتعل
 الرأس شيبا ولم أكن بدعائك ربَّ شقيّا ﴿٢٧﴾ ولذلك كان رسول الله ﷺ يأمر
 أصحابه بأن يخفضوا أصواتهم بالذكر فقد روى البخاري ومسلم واللفظ
 للبخاري من حديث أبي موسى الأشعري قال : كنا مع رسول الله ﷺ في
 غزاة ، فجعلنا لا نصعد شرفا ولا نعلو شرفا ولا نهبط في وادٍ إلا رفعنا أصواتنا
 بالتكبير قال : فدنا منا رسول الله ﷺ فقال : يا أيها الناس ازْبَعُوا على

أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا بصيرا .
الحديث ، وفي لفظ للبخاري قال أبو موسى : ثم أتى عليّ وأنا أقول في نفسي : لا حول ولا قوة إلا بالله فقال : «يا عبد الله بن قيس قل لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كثر من كنوز الجنة» . والغُدُوّ جمع غُدُوّة وهي من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، والأصال : ما بين العصر والمغرب . ومعنى : ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ أي ولا تكن من اللاهين عن ذكر الله ، والمعلوم أن النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه ، وقوله عز وجل : ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾ فيه ثناء على المسيحين الساجدين العابدين من الإنس والجن ، وأنهم ينهجون النهج الذي تنهجه الملائكة في عبادة فاطر السموات والأرض والمراد بالذين عند ربك هم الملائكة ، لأنهم يسكنون السموات العلى ومنهم حملة العرش ومن حوله ، كما قال عز وجل : ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾ * يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ وكما قال عز وجل : ﴿فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ قال ابن كثير رحمه الله في قوله عز وجل : ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾ الآية : وإنما ذكرهم بهذا ليقنّدي بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل كما جاء في الحديث «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها يُتْمَنُونَ الصفوف الأول فالأول ويتراصّون في الصف» . وهذه أول سجدة في القرآن يشرع لتأليها ومستمعها السجود بالإجماع . اهـ وقد تم بحمد الله تفسير سورة الأعراف .

تفسير

سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

هذه سورة الأنفال، وهي مدنية وقد نزلت هذه السورة أو معظمها في بدر، وكانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة، فقد روى البخاري من طريق سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر. وفي لفظ لمسلم من طريق سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: تلك سورة بدر. ومناسبة هذه السورة لسورة الأعراف أنه تعالى ختم سورة الأعراف - وهي مكية - بما حكاها عن الملائكة من إخلاصهم التوحيد لله عز وجل، وافتتح هذه السورة بالحديث عن أهل بدر الذائدين عن حمى التوحيد، وما أمرهم به من تقوى الله عز وجل، وقد ذكر رسول الله ﷺ أن مَنْ شهد بدرا من الصحابة رضي الله عنهم هم خيار المسلمين، وأخبره جبريل عليهما السلام أن من شهد بدرا من الملائكة هم خيار الملائكة فقد روى البخاري في صحيحه من طريق يحيى بن سعيد وهو الأنصاري عن معاذ بن رفاع بن رافع الزُرْقِيِّ عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: مَا تَعْدُونَ أَهْلَ بَدْرَ فَيْكُمْ؟ قال: من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها، قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة. اهـ والأنفال جمع نَفَلٍ ويطلق في اللغة على معانٍ: منها الغنيمة والعطية وولد الولد وما تفعله مما لم يجب كالنفل، والمراد بالأنفال في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ هي الغنائم، قال البخاري: قال ابن عباس: الأنفال المغانم. اهـ وقد سميت الغنائم أنفالا لأنها زيادة من الله تعالى لهذه الأمة بخصوصها إذ كانت محرمة على الأمم السابقة من أتباع الأنبياء، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعْثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً». كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتَّبِعُنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَا يَتَّيِّنَ بِهَا، وَلَا أَحَدٌ بَنَى بَيْتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلَا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خِلْفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وَلَادَهَا، فَغَزَا، فَدَنَا مِنَ الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكَ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ، فَجَاءَتْ - يَعْنِي النَّارَ - لِتَأْكُلَهَا فَلَمْ تَطْعَمْهَا، فَقَالَ: إِنْ فِيكُمْ غُلُولًا، فَلْيَبَايَعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزَقْتُ يَدَ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ فِيكُمْ الْغُلُولُ، فَلَتَّبَايَعْنِي قَبِيلَتُكَ، فَلَزَقْتُ يَدَ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ، فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَوَضَعُوهَا فَجَاءَتْ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا، ثُمَّ أَحَلَّ اللَّهُ لَنَا الْغَنَائِمَ، رَأَى ضَعْفُنَا وَعَجْزُنَا فَأَحْلَاهَا لَنَا. وَالسُّؤَالُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ هُوَ مُبْهَمٌ يُعَيَّنُ الْمَرَادُ مِنْهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ عَنِ الْأَنْفَالِ كَيْفَ مَصْرَفُهَا وَمَنِ الْمُسْتَحَقُّ لَهَا؟ وَهَذَا أَسْلُوبٌ بِلَاغِي حَيْثُ يُورَدُ السُّؤَالُ مُبْهَمًا

ليكون الجواب مُبَيَّنًا له مع الإيجاز، وذلك كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ وهذا في القرآن كثير حيث يجيء السؤال مبهما ويكون الجواب دالا عليه . ومعنى قوله عز وجل: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي مَرْدُ مصرفها لله بما يُبَيِّنُهُ في كتابه ولرسوله ﷺ بما يُبَيِّنُهُ في سنته ﷺ . والمقصود حسم مادة تنازع المجاهدين في تناول هذه الغنائم وأن يرضوا بما يقسمه الله عز وجل وما يعطيه لهم رسول الله ﷺ منها لما في ذلك من إصلاح ذات بينهم ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ولهذا كان المال حيث أضيف إلى الله ورسوله فالمراد به ما يجب أن يصرف في طاعة الله ورسوله ، ليس المراد به أنه ملك للرسول كما ظنه طائفة من الفقهاء ، ولا المراد به كونه مملوكًا لله خَلْقًا وَقَدَرًا ، فإن جميع الأموال بهذه المثابة ، وهذا كقوله: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآية ، وقوله: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ الآية ، فذكر في الفبيء ما ذكر في الخمس . ثم قال رحمه الله : فما أضيف إلى الله والرسول من الأموال كان المرجع في قسمته إلى أمر النبي ﷺ بخلاف ما سُمِّيَ مستحقوه كالمواريث ، ولهذا قال النبي ﷺ عام حُتَيْنَ : «ليس لي مما أفاء الله عليكم إلا الخُمُسُ ، والخُمُسُ مردود عليكم» . أي ليس له بحكم القسم الذي يرجع فيه إلى اجتهاده ونظره الخاص إلا الخمس ، ولهذا قال : «وهو مردود عليكم» ، بخلاف أربعة أخماس الغنيمة فإنه لمن شهد الواقعة ، ولهذا كانت الغنائم يقسمها الأمراء بين الغانمين ، والخُمس يرفع إلى الخلفاء الراشدين المهديين الذين خَلَفُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ في أمته ، فيقسمونها بأمرهم ، فأما أربعة الأخماس

فإنما يرجعون فيها ليعلم حكم الله ورسوله كما يستفتى المستفتى وكما كانوا في الحدود لمعرفة الأمر الشرعي ، والنبي ﷺ أعطى المؤلفه قلوبهم من غنائم حنين ما أعطاهم . اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ فيه نوع إجمال بينه الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ الآية ، حيث بيّن مصارف الغنيمة وكيفية قسمتها على التفصيل ، والفاء في قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ هي الفاء الفصيحة ، أي إذا علمتم أن الأنفال لله والرسول فاتقوا الله باجتناب ما ييغضه ولا تتعلق قلوبكم إلا بما يبيحه الله لكم ولا تعملوا عملا يؤدي إلى تنازع المسلمين واختلافهم وتفرق كلمتهم ، والبيّن يطلق على الفرقة وعلى الوصل والمراد هنا الوصل ، وذات البيّن حقيقته ، ومعنى : ﴿ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي أصلحوا حقيقة وصلكم ببذل الأسباب التي تنشر المحبة بينكم ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي وانقادوا لأمر الله عز وجل ولأمر رسوله محمد ﷺ ، وجواب قوله عز وجل : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه ، والتقدير : إن كنتم مؤمنين فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، والتعبير بوصف الإيثار لتنشيط المخاطبين وحضهم على المبادرة إلى الامتثال وسرعة الانقياد ، فإن المؤمنين المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ، وقد قال مسلم في الجهاد من صحيحه : وحدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا أبو عوانة عن سمالك عن مُضْعَب بن سعد عن أبيه قال : أخذ أبي من الخُمس سيفاً ، فأتى به النبي ﷺ فقال : هَبْ لِي هَذَا ، فَأَبَى ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ حدثنا محمد بن المثنى وابن بشار واللفظ لابن المثنى قالوا : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سمالك

ابن حرب عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : نَزَلَتْ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ ، أَصَبَتْ سَيْفًا ، فَأَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، نَقِّلْنِيهِ ، فَقَالَ : «ضَعُهُ» ، ثُمَّ قَامَ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : «ضَعُهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ» ثُمَّ قَامَ فَقَالَ : نَقِّلْنِيهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ : «ضَعُهُ» فَقَامَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ نَفْلِنِيهِ ، أَأَجْعَلُ كَمَنْ لَا غَنَاءَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : «ضَعُهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ» قَالَ : فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ وَقَدْ سَاقَهُ مُسْلِمٌ فِي فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ مِنْ صَحِيحِهِ مِنْ طَرِيقِ سَهَّالِ بْنِ حَرْبٍ حَدَّثَنِي مُصْعَبُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ ، قَالَ : حَلَفْتُ أَمْ سَعْدٌ أَنْ لَا تَكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفِرَ بِدِينِهِ وَلَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ ، قَالَتْ : زَعَمْتُ أَنَّ اللَّهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ ، وَأَنَا أَمُكُ ، وَأَنَا أَمْرُكَ بِهَذَا ، قَالَ : مَكَثْتُ ثَلَاثًا حَتَّى غُثِيَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ ، فَقَامَ ابْنٌ لَهَا يُقَالُ لَهُ عُمَارَةُ فَسَقَاهَا ، فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي﴾ وَفِيهَا : ﴿وَصَاحِبَتُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ قَالَ : وَأَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَنِيمَةً عَظِيمَةً ، فَإِذَا فِيهَا سَيْفٌ ، فَأَخَذْتَهُ ، فَأَتَيْتُ بِهِ الرَّسُولَ ﷺ فَقُلْتُ : نَقِّلْنِي هَذَا السَّيْفَ ، فَأَنَا مِنْ قَدِ عَلِمْتُ حَالَهُ ، فَقَالَ : «رُدُّهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ» ، فَاَنْطَلَقْتُ حَتَّى إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أُلْقِيَهُ فِي الْقَبْرِ لَمْ تَنْبُحْ نَفْسِي ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ : أَعْطِنِيهِ ، قَالَ : فَشَدَّ لِي صَوْتُهُ : «رُدُّهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ» ، قَالَ : فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الْحَدِيثُ ، كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ فَظَنَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَشِمَالِي فَإِذَا أَنَا بِغُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ حَدِيثَةِ أَسْنَانِهَا تَمْنِيَتْ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعِ مِنْهَا ، فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا فَقَالَ : يَا عَمُّ هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ ؟ قُلْتُ نَعَمْ ، مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي قَالَ : أَخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسِبُ رَسُولَ اللَّهِ

ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يَجُولُ في الناس، قلتُ: ألا إنَّ هذا صاحبُكما الذي سألتماني فابتدراه بسيفيهما، فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: «أَيُّكُمَا قتله؟» قال كلُّ واحد منهما: أنا قَتَلْتُهُ، فقال: «هل مَسَخْتُمَا سيفيكما؟» قالا: لا، فنظر في السيفين فقال: «كِلَاكُمَا قَتَلَهُ سَلْبُهُ لمعاذ بن عمرو بن الجموح»، وكانا معاذ ابن عفراء ومعاذ بن عمرو ابن الجموح. اهـ هذا وقد قسم رسول الله ﷺ غنائم بدر وهو في طريق عودته من بدر على من شهد بدراً من المهاجرين والأنصار وضرب لعثمان بن عفان رضي الله عنه بسهم وإن لم يشهد بدراً لأنه تخلف عنها بأمر رسول الله ﷺ لتمريض زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وقد توفيت في اليوم الذي وصلت فيه البشارة بالنصر إلى أهل المدينة، وقد أعطى رسول الله ﷺ أربعة أخماس الغنيمة للغانمين وأخذ خمسها الذي جعله الله تعالى للنبي ﷺ أو لإمام المسلمين بعد رسول الله ﷺ ينفقه في حاجته وعلى ذوي قرابة رسول الله ﷺ وعلى اليتامى والمساكين وأبناء السبيل، ومما يؤكد أن رسول الله ﷺ قسم غنائم بدر على ما وصفت هو ما رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من طريق علي ابن الحسين عن أبيه الحسين بن علي أن علياً قال: كانت لي شارفٌ من نصيبي من المغنم يوم بدر وكان رسول الله ﷺ أعطاني شارقاً من الخمس يومئذ.

الحديث .

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

بعد أن قرر تبارك وتعالى أن الأنفال لله والرسول وأمر أهل بدر وسائر المؤمنين أن يتقوا الله وأن يُصلحوا ذات بينهم وأن يطيعوا الله ورسوله، ليذوقوا حلاوة الإيمان الذي ينتسبون إليه مما يحسم مادة تنازع المجاهدين ويجعلهم كالجسد الواحد ويرضون بما يَقْسِمُهُ الله عز وجل وما يعطيه لهم رسول الله ﷺ، شرع هنا في بيان صفات كملة المؤمنين، وأمارات صدقهم مع الله عز وجل، وما هم عليه من الحرص على سرعة امتثال أوامر الله، وبشرهم بما أعده لهم في دار كرامته من الأجر العظيم والرزق الكريم حيث يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وقد وصف الله تبارك وتعالى المؤمنين حقا بخمس صفات منها ثلاث صفات ترجع للعبادات القلبية، وهي وَجَلُ القلب عند ذكر الله، وزيادة الإيمان عند سماع القرآن. والتوكل على الله وحده، والصفة الرابعة ترجع إلى العبادات البدنية وهي إقامة الصلاة التي هي رأس العبادات البدنية، والصفة الخامسة ترجع إلى العبادات المالية، وهي إيتاء الزكاة التي هي رأس العبادات المالية، ولا شك أن من اجتمعت فيه هذه الصفات الخمس كان حريًا بالمحافظة على جميع شرائع الإيمان، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإن قيل: إذا كان المؤمن حقا هو الفاعل للواجبات التارك للمحرمات، فقد قال: ﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾ ولم يذكر إلا خمسة

أشياء ، وكذلك قال في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ وكذلك قوله : ﴿ إِن الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وأجاب رحمه الله أن يكون ما ذكر مستلزما لما تُرِكَ ، فإنه ذكر وجل قلوبهم إذا ذكر الله ، وزيادة إيمانهم إذا ثلث عليهم آياته مع التوكل عليه ، وإقام الصلاة على الوجه المأمور به باطنا وظاهرا ، وكذلك الإنفاق من المال والمنافع ، فكان هذا مستلزما للباقي ، فإن وجل القلب عند ذكر الله يقتضي خشيته والخوف منه ، وقد فسروا «وجلّت» بِفَرَقَتْ ، وفي قراءة ابن مسعود : «إذا ذكر الله فَرَقَتْ قلوبهم» وهذا صحيح ، فإن الوجل في اللغة هو الخوف يقال : حمرة الحَجَل وصفرة الوجَل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ قالت عائشة : يا رسول الله هو الرجل يزني ويسرق ويخاف أن يعاقب ؟ قال : «لا يا ابنة الصديق ، هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يُقْبَلَ منه» ، وقال السدي في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ : هو الرجل يريد أن يظلم أو يهملهم بمعصية فينزعه عنه ، وهذا كقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ وقوله : ﴿ وَلَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ قال مجاهد وغيره من المفسرين : هو الرجل يهمل بالمعصية فيذكر مقامه بين يدي الله فيتركها خوفا من الله ، وإذا كان وجل القلب من ذكره يتضمن خشيته وخافته فذلك يدعو صاحبه إلى فعل المأمور وترك المحذور. اهـ على أن لفظ «إنما» في قوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ إلى آخر هذه الصفات لا يفيد حصر الإيمان في هذه الصفات الخمس لأن كلمة «إنما» غير مصرح فيها بنفي ما سوى المذكور في حيزها ولذلك تحتل أن تحييء لا العاطفة بعدها فتقول : إنما أنا إمام لا خطيب ،

بخلاف الحصر بالنفي والاستثناء فإن لا العاطفة لا تجتمع معه . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح حديث «إنما الأعمال بالنيات» : وقال ابن عطية : «إنما» لفظ لا يفارقه المبالغة والتأكيد حيث وقع ، ويصلح مع ذلك للحصر إن دخل في قصة ساعدت عليه ، فجعل وروده للحصر مجازا يحتاج إلى قرينة ، وكلام غيره على العكس من ذلك ، وأن أصل ورودها للحصر لكن قد يكون في شيء مخصوص كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ فإنه سيق باعتبار منكري الوجدانية ، وإلا فله سبحانه وتعالى صفات أخرى كالعلم والقدرة ، وكقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ فإنه سيق باعتبار منكري الرسالة وإلا فله ﷺ صفات أخرى كالبشارة ، إلى غير ذلك من الأمثلة ، وهي فيما يقال السبب في قول مَنْ مَنَعَ إفادتها للحصر مطلقا . اهـ والصفة الأولى من صفات المؤمنين في هذا المقام هي الوجل عند ذكر الله عز وجل فإن المؤمن إذا ذكر الله أو سمع ذكره فتذكر مرجعه إلى الله ووقوفه بين يديه وَجَلَ أي خاف وفرعَ وفرق وخشي وَرَهَبَ وَأَخْبَتَ كما قال عز وجل : ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴿قال الزجاج : تأويله : إذا ذُكِرَتْ عِظْمَةُ اللَّهِ وَقَدَرَتْهُ وَمَا خَوْفَ بِهِ مِنْ عِصَاهُ وجلت قلوبهم أي فزعت لذلك . اهـ والعرب يستعملون الوجل فيما يخافونه ويرهبونه مما قد يقع بهم من المكروه في المستقبل كما قال معن بن أوس :

لعمرك ما أدري وإني لأوجل على آيتنا تعدو المنية أوَّل

ولا شك أن المؤمن إذا ذكر الله الجليل الجبار القهار القوي العزيز المقتدر اقشعر جلده كما قال عز وجل : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ومن شأن الإنسان أنه إذا ذكر حبيبه ارتعد وارتعش واقشعر جلده كما قال

الشاعر أبو صخر الهذلي :

وَإِنِّي لَتَعْرِوْنِي لَذِكْرِكِ هِرَّةٌ كَمَا انْتَفَضَ الْعَصْفُورُ بَلَلُهُ الْقَطَرُ

ولا معارضة بين وجل قلب المؤمن عند ذكر الله وبين طمأنينة القلب بذكر الله حيث قال عز وجل : ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ لأن وجل القلب إنما يكون بتذكر المؤمن عظمة الله وعَرْضُهُ على الله يوم القيامة ومقامه بين يدي جبار السموات والأرض للحساب ، لكنه إذا ذكر الله عز وجل وأكثر من تسبيحه وتقديسه وتحميده وتمجيده وتَذَكَّرَ فضلَهُ وَجُودَهُ وَرَحْمَتَهُ التي سبقت غضبه دخل على قلبه الرجاء فاطمأن بذكر الله وطمع في إحسانه ، وهذا حال المؤمن فإنه يرجو رحمة الله ويخاف عذابه ، فلا يصل خوفُهُ إلى القنوط واليأس من رحمة الله ولا يحمله الرجاء على الأمن من عقاب الله ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في وصف عباده الصالحين حيث يقول : ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ والصفة الثانية من صفات المؤمنين في هذا المقام هي أنهم إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيماناً ، أي إذا سمعوا القرآن ازدادوا يقيناً وتصديقاً بأن هذا القرآن من عند الله ، وانضم إلى ما كان في قلوبهم من أنوار المعرفة أنوار جديدة وصار لهم نور على نور كما قال عز وجل : ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ولا شك أن سماع القرآن بتدبر وتفكر يجلو أبصار القلوب ، ويُذْهِبُ الران عن الصدور ، وتتوالى البراهين والحجج ، فيزداد الإيمان رسوخاً في قلوب المؤمنين ، ويحس المؤمن بحلاوة الإيمان ، وهذا بخلاف الذين في قلوبهم مرض من المنافقين فإنهم لانطماس بصائرهم يزدادون بسماع القرآن رجساً إلى رجسهم كما قال عز وجل : ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم

مرض فزادتهم رجسًا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴿ أما الصفة الثالثة من صفات المؤمنين المذكورة في هذا المقام فهي أنهم على ربهم يتوكلون حيث يقول عز وجل : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي ويعتمدون على الله وحده ، ويفوضون أمورهم إليه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ولا يقفون إلا ببابه . ولا يطلبون حوائجهم إلا منه ولا يرغبون إلا إليه ، ويؤمنون بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وقد حرص الله تبارك وتعالى المؤمنين على التوكل عليه في مقامات كثيرة من القرآن الكريم وبشّر المتوكلين عليه بالنصر على عدوهم والفوز والفلاح حيث يقول عز وجل : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ﴾ وقال : ﴿ الله لا إله إلا هو ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ وقال عز وجل : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ وقال عز وجل : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمّعوا لكم فآخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ وقال عز وجل : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده ﴾ والصفة الرابعة من صفات المؤمنين المذكورة في هذا المقام هي قوله عز وجل : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ ومعنى : ﴿ يقيمون الصلاة ﴾ أي يحافظون عليها في مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها وسائر أركانها وشروطها ، ويؤدّونها . وإقامة الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وقد وصّى الله تبارك وتعالى بها في مقامات كثيرة جداً في كتابه الكريم وأشار إلى أن من لم يُصلِّ من المنتسبين للإسلام لا يُحِلِّي سبيله ، وليس أخا للمسلمين حيث قال : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ وقال : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ﴾ وقال شقيق بن عبد الله التابعي الجليل : كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئاً

من الأعمال تركه كفر غير الصلاة، أما الصفة الخامسة من صفات المؤمنين التي ذكرها الله عز وجل في هذا المقام فهي أنهم ينفقون مما رزقهم الله، والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق الدينية والدنيوية على نفسه وعلى من يَعُولُ من إنسان أو حيوان، وقد وصف الله تبارك وتعالى أصحاب هذه الصفات بأنهم هم المؤمنون حقاً، أي الجديرون بوصف الإيمان، المتحققون به، الحرثيون بأن يقال فيهم: هم المؤمنون، وقد بَشَّرَهُم الله تبارك وتعالى بقوله في هذا المقام: ﴿أُولَئِكَ هم المؤمنون حقاً، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾ أي المتخلقون بهذه الصفات هم المؤمنون حقاً، لهم منازل ومقامات ودرجات في الجنات، ولهم من ربهم مغفرة لذنوبهم ورزق كريم، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة لَيَتَرَاءَوْنَ أهلَ الغُرفِ من فوقهم كما تراءون الكوكب الدُّرِّيَّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لِتَفَاضُلِ ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

قال تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ *

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى أهل بدر وسائر المؤمنين أن يتقوا الله وأن يصلحوا ذات بينهم وأن يطيعوا الله ورسوله مما يقتضي أن يكون هواهم تبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ فيسارعوا إلى امتثال أوامره وبيادروا إلى السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، ويجتنبوا الأثرة وما يجلب التنازع بينهم، ويبن لهم صفة كملة المؤمنين، ضرب لهم هنا مثلاً يغرس في قلوبهم أن الخير والعاقبة الحميدة هي في السمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ وأن الإنسان قد يكره شيئاً وهو خير له وقد يحب شيئاً وهو شرُّ له، وذلك كما حدث لفريق من المؤمنين عند الخروج إلى بدر، وقد وعدهم رسول الله ﷺ إحدى الطائفتين العير أو النفير فتمنى بعضهم أن يحصل لهم العير وكرهوا النفير لأنهم لم يكونوا قد تأهبوا لذلك، وأراد عز وجل لهم النفير وجمعهم على غير ميعاد، فكانت عاقبة ذلك أحسن العواقب وفرحوا بنصر الله أشد من فرحهم بما لو حصلوا على العير، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ * ﴿ إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ * ﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ * أي هذا مثلٌ ضَرِبَ لَكُمْ قد شهدتم حقيقته، وأبصرتم واقعه يؤكد لكم أن الخير والعاقبة

الحميدة هي في السمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ، وأن الإنسان قد يكره الشيء وهو خير له، وقد يحب الشيء وهو شرُّ له، ومثال ذلك، أن الله تبارك وتعالى قد أخرج نبيه ﷺ من بيته بالمدينة وهو فيه آمن مطمئن، وأمره بالنهوض إلى بدر ليطلب عير أبي سفيان الصادرة من الشام فيها أموال جزيلة لكفار قريش الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم، فاستنهض رسول الله ﷺ من خَفٍّ من المسلمين فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، وسار بهم يريد ساحل البحر من طريق بدر، ولما علم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه بعث ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا قد تعرض لها في أصحابه، فأسرع ضمضم بن عمرو إلى مكة وأخبر أهل مكة بذلك فأخذ أبو جهل يستنفر الناس ويقول: أدركوا عيركم، فخرجت قريش ونفرت على الصعب والذلول في عدد من المقاتلين يتراوح بين التسعمائة والألف ومعهم أكثر من خمسين فارسا، وكان رسول الله ﷺ يبعث العيون لمعرفة مكان أبي سفيان وعيره، فجاءته الأخبار وهو قريب من الصفراء بأن أبا سفيان قد سَاحَلَ بالعرير، وأن مكة قد رمتهم بأفلاذ كبدها، فشاور أصحابه رضي الله عنهم، وقد كره بعض المسلمين ملاقة قريش، لأنهم لم يكونوا قد استعدوا لملاقاتهم، حيث لم يخرجوا من المدينة لقتال، وإنما خرجوا للعرير، وقد بدأ رسول الله ﷺ يبشر أصحابه بإحدى الطائفتين: العير أو النفير. فأبو سفيان في العير وأبو جهل في النفير، والعرير ليس فيها قتال، والنفير لا يأخذونه إلا بقتال وشوكة وكان هؤلاء الذين كرهوا القتال يودون أن غير ذات الشوكة تكون لهم يعني العير ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين، وعسى أن يكره الإنسان شيئا وهو خير له، وعسى أن يحب شيئا وهو شر له، وهكذا تَمَّ في بدر فقد كانت ثمارها أعظم من ثمار أضعاف عير قريش، وقد روى البخاري

في صحيحه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به : أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم موسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك ، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسرّه يعني قوله . وقد كان المقداد هو الفارس الوحيد يوم بدر كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبدالرحمن بن مهدي عن شعبة عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد . وقال مسلم في صحيحه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان ، قال : فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ، ثم تكلم عمر فأعرض عنه ، فقام سعد بن عباد فقال : إيانا تريد يا رسول الله ، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا ، قال : فندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدرا ، ووردت عليهم رَوَايا قريش وفيهم غلام أسود لبني الحجاج ، فأخذه ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه فيقول : ما لي علم بأبي سفيان ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمّية بن خلف ، فإذا قال ذلك ضربه ، فقال : نعم أنا أخبركم ، هذا أبو سفيان فإذا تركوه فسألوه فقال : ما لي بأبي سفيان علم ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمّية بن خلف ، في الناس ، فإذا قال هذا أيضا ضربه ، ورسول الله ﷺ قائم يصلي ، فلما رأى ذلك انصرف ، قال : «والذي نفسي بيده لتضربوه إذا صدقكم وتتركوه إذا كذبكم» . اهـ وهذه الكراهية التي حصلت من بعض المؤمنين لم تكن جبنًا عن القتال ، وإنما كانت منهم لأنهم كانوا يرون أنفسهم في قلة من العدد والسلاح وأنهم لم يخرجوا من المدينة للحرب ،

ولم يعلم هؤلاء أن هذه الأسباب كانت من أبرز آيات نصرهم وعزهم كما قال عز وجل : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ يعني في قلة من العدد والسلاح حالة كونكم تقابلون عدوا كثير العدد والعدة والفرسان وقد خرج متهيئا للقتال مستعدا له ، وقد كان جدال هؤلاء الذين جادلوا رسول الله ﷺ يدور حول قلتهم في العدد والعدة والفرسان وأنهم ما خرجوا للقتال ، وإنما خرجوا للعرير وهي لا شوكة فيها وقد وصف الله تبارك وتعالى هؤلاء المجادلين بأنهم جادلوا رسول الله ﷺ في الحق بعدما تبين أي جادلوه في قتال المشركين يوم بدر بعد أن أخبرهم رسول الله ﷺ أنهم مقاتلو كفار قريش ذوي العدد والعدة ، ولذلك لما أيقنوا بأنهم ملاقوا العدو صاروا في حالة من أيقن أنه ميت لا محالة ، وكأنه ينظر إلى الموت بعينه حيث يقول عز وجل : ﴿ يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنها يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ ولا شك أن من كانت هذه حال بعضهم ثم لما دخلوا المعركة واستقبلوا الموت بصدروهم ، أشبعوا عدوهم قتلا وأسرا وجراحة حيث قتلوا من المشركين سبعين رجلا فيهم صناديد قريش كأبي جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف كما أسروا سبعين رجلا ولم يؤسر من المسلمين أحد ولم يستشهد سوى أربعة عشر رجلا ، لا شك أن نصر هؤلاء هو النصر العزيز ، والشاهد العدل على أن وعد الله حق ، فقد تحقق لهم ما وعدهم الله عز وجل به على لسان رسوله ﷺ حيث بشرهم قبل المعركة بأنهم سيرجعون بالعرير أو النفير كما قال عز وجل : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ أي واذكروا إذ يبشركم الله عز وجل على لسان رسوله ﷺ بالظفر بعير قريش وما فيها من الأموال أو بالنصر على كفار قريش ، وكنتم تريدون العير وما فيها لأنها تكون غنيمة بلا قتال ، وهي أسهل من ملاقات العدو الكثير العدد والعدة ، قال الزجاج : وذات الشوكة ذات السلاح

يقال : فلانُ شاكٍ في السلاح وشائكٌ في السلاح وشاكٌ في السلاح بتشديد الكاف من الشَّكَّةِ ، ومثل شاكي قول الشاعر :

فتوسموني إنني ذاكم شاكٍ سلاحي في الحوادث مُعَلَّمُ اهـ

وهذا البيت لطريف بن تميم العنبري ، ويروى : فتعرفوني بدل قوله : فتوسموني وهو بمعناه ، وقال ابن منظور في لسان العرب : والشوكة : شدة البأس والحدُّ في السلاح وقد شاك الرجلُ يشاكُ شوكا أي ظهرت شوكته وحِدَّتُهُ فهو شائك السلاح ، وشوكة القتال : شدة بأسه ، وشوكة المقاتل : شدة بأسه وفي التنزيل العزيز : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ ﴾ قيل معناه : حدة السلاح وقيل : شدة الكفاح ، وفلان ذو شوكة أي ذو نكاية في العدو ، وفي حديث أنس : قال لعمر رضي الله عنه حين قدم عليه بالهرمزان : تركتُ بعدى عدوا كثيرا وشوكة شديدة أي قتالا شديدا وقوة ظاهرة ، ومنه الحديث : «هلمَّ إلى جهاد لا شوكة فيه» يعني الحج . اهـ وقوله عز وجل : ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : أي هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم وينصركم عليهم ، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ويجعله غالبا على الأديان ، وهو أعلم بعواقب الأمور ، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره ، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم ، كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ اهـ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَيَقْطَعْ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي ويستأصل شأفة صناديد كفار قريش كأبي جهل وشيبة بن ربيعة وأخيه عتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأممية بن خلف والأسود بن عبد الأسد المخزومي وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وغيرهم ، وكانوا يؤذون رسول الله ﷺ والمؤمنين ويصدون عن سبيل الله ، فأراح الله المسلمين من

شرورهم ، وقد أهلكهم الله عز وجل وقذف بالحق على الباطل فإذا هو
زاهق ، وأعز الإسلام وأعلى رايته وأذل عبدة الأصنام وأخزاهم ولذلك قال عز
وجل هنا : ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيَبْطُلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ .

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا، سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بَأْتَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾

بعد أن ضرب الله عز وجل مثلاً يغرس في قلوب المؤمنين أن الخير والعاقبة الحميدة هي في السمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ وأن الإنسان قد يكره شيئاً وهو خير له، وقد يجب شيئاً وهو شرٌّ له كما حدث لفريق من المؤمنين عند الخروج إلى بدر، وقد وعدهم رسول الله ﷺ إحدى الطائفتين العير أو النفير فتمنى بعضهم أن يحصل لهم العير وكرهوا النفير لأنهم لم يكونوا قد تأهبوا لذلك، وأراد الله عز وجل لهم النفير، وجمعهم على غير ميعاد، فكانت عاقبة ذلك أحسن العواقب، وفرحوا بنصر الله لهم أشد من فرحهم بما لو حصلوا على العير، شرع عز وجل هنا يُذكِّر المؤمنين بما كانوا عليه قبل ملاقات العدو بعد أن أيقنوا أنهم ملاقوه لا محالة، وأنه لا ملجأ لهم إلا إلى الله، فاستغاثوا بهم أن يُمِدَّهُم بنصر من عنده، فاستجاب لهم ووعدهم على لسان رسوله ﷺ أن يمدَّهم بآلف من الملائكة مردفين، وقد أراهم عز وجل آياته، وغشاهم النعاس أمانةً منه، ونزل عليهم من السماء ماءً ليطهرهم به، ويذهب عنهم رِجْزَ الشيطان، ويربط على قلوبهم، ويثبت به أقدامهم حتى لا تسيخ في الأرض، وأن الله تبارك وتعالى أوحى إلى الملائكة أنه معهم

في تأييد المؤمنين ، وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا وأخبرهم أنه سيلقي الرعب في قلوب الذين كفروا وحض الملائكة على ضرب أعناقهم وأن يضربوا منهم كل بنان ، لأنهم شاقوا الله ورسوله فاستحقوا العقاب الشديد في العاجلة مع ما سيلقونه من عذاب جهنم في الآجلة ، ليستحضر المؤمنون هذه الصورة البينة في ذاكرتهم ، وليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ، وليستيقنوا بأن إعداد القوة للعدو وبذل أسبابها وإن كان مأمورا به ليس هو الجالب للنصر ، لأن النصر من عند الله ، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ ذَلِكَمْ فَذُوقُوا وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾ أي اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم إذ تستجيرون بربكم من عدوكم ليلة بدر وتدعونه للنصر عليهم فأجاب دعاءكم وأوحى إلى رسوله ﷺ ليبشركم بأن الله عز وجل مرسل إليكم مدداً وردءاً لكم بألف من الملائكة يُرَدِّفُ بعضهم بعضاً ويتلو بعضهم بعضاً ويحيئون متتابعين بعضهم في إثر بعض . قال البخاري في كتاب المغازي من صحيحه من رواية كريمة : باب قول الله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ﴿ حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ طَارِقٍ عَنْ شَهَابِ

قال : سمعتُ ابن مسعود يقول : شهدت من المقداد بن الأسود مشهَدًا لأنَّ أكونَ صاحبه أَحَبَّ إِلَيَّ مما عُدِلَ به ، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين ، فقال : لا نقول كما قال قوم موسى اذهب أنت وربك فقاتلا ، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك ، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسرَّه يعني قوله ، حدثني محمد بنُ عبدالله بن حَوْشَبٍ حدثنا عبدالوهاب حدثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ يوم بدر : « اللهم أَنشُدْكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ، اللهم إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعَبِّدْ » ، فأخذ أبو بكر بيده فقال : حَسْبُكَ ، فخرج وهو يقول : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدِّبَرُ » اهـ وقد كان رسول الله ﷺ قد أُعِدَّتْ لَهُ قُبَّةٌ أَيْ عَرِيشٌ فقام فيها يدعو الله عز وجل مستقبلًا الكعبة ، ويستغيثه تبارك وتعالى ، كما روى أحمد واللفظ له ومسلم وأبو داود والترمذي من حديث عكرمة بن عمار حدثنا سِماك الحنفي أبو زُمَيْلٍ حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما كان يومُ بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة وثَيْفٌ ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبي ﷺ القبلة ، ثم مَدَّ يديه وعليه رداؤه وإزاره ثم قال : « اللهم أين ما وعدتني ، اللهم أنجز ما وعدتني ، اللهم إنك إن تُهْلِكَ هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعَبِّدْ في الأرض أبدًا » قال : فما زال يستغيث ربَّه عز وجل ويدعوه حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردَّه ، ثم التزمه من ورائه ، ثم قال : يا نبي الله ، كفاك مناشدتك ربك فإنه سَيُنْجِزُ لَكَ ما وعدك ، وأنزل الله عز وجل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ * ﴿ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُئِذٍ وَالتَّقْوَا ، فَهَزَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُشْرِكِينَ ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا ، وَأَسْرَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا ، الْحَدِيثُ . وقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال يوم بدر : « هذا جبريل آخِذٌ برأس فرسه ، عليه أداة

الحرب» كما جاء في لفظ لمسلم في صحيحه من طريق أبي زُمَيْل (هو سِمَاك الحنفي) حدثني عبدالله بن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه فَخَرَّ مستلقيا، فنظر فإذا هو قد خُطِمَ أنفه، وشُقَّ وَجْهُهُ كضربة السَّوْط، فاخضرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاريُّ فحدث بذلك رسولَ ﷺ، فقال: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة». الحديث. فإن قيل: ما الحكمة في قتال الملائكة مع المسلمين يوم بدر مع أن جبريل وحده قادر على أن يهلكهم بريشة من جناحه؟ فالجواب أن الملائكة كانوا على هيئة المدد مع إضافة أصل الفعل للنبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ليرجعوا بهذا الفضل العظيم والنصر المبين، على حد قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُو بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ والأمر كُلُّهُ لله وحده، ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ وما النصر إلا من عند الله، إن الله عزيز حكيم ﴿وَقَالَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ * ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلوا خائبين﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم إذ يُلْقِي عليكم النعاس أي النوم الخفيف أمانا من الله لكم قد أَمَّنَكُمْ بِهِ لِيُدْفَعَ عَنْكُمْ الْخَوْفُ مِنْ كَثَرَةِ عَدُوِّكُمْ الْمُتَهَيِّئِ لِقِتَالِكُمْ وَقِلَّةِ عِدَدِكُمْ وَسِلَاحِكُمْ، وَقَدْ أَلْقَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النُّعَاسَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَفِي غَزْوَةِ أَحَدٍ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي سِيَاقِ قِصَّةِ غَزْوَةِ أَحَدٍ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ وقال هنا في قصة غزوة بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وكأنَّ

ذلك كائن للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله ، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم وكما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ مَعَ الْعَرَسِ يَسَرًّا * إِنَّ مَعَ الْعَرَسِ يَسَرًّا ﴾ ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه ، وهما يدعوان أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ، ثم استيقظ مُتَبَسِّمًا ، فقال : « أبشريا أبا بكر ، هذا جبريل على ثنياه النقع » ، ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤْكُونَ الدُّبُرَ ﴾ اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ هذه آية أخرى من آيات الله التي من بها على المؤمنين يوم بدر ، وكان هذا في ليلة الجمعة التي وقعت معركة بدر في صبيحتها فقد أنزل الله عز وجل على المسلمين من السماء ماءً ، شرب منه المسلمون ، وتطهروا وأذهب الله عنهم رجز الشيطان وتخذيله وتخويفه للنفوس ، فطهرهم الله عز وجل به ظاهراً وباطناً وثبت أقدامهم وشجع قلوبهم ، قال ابن جرير : حدثني هارون بن إسحاق ثنا مصعب بن المقدم ثنا إسرائيل ثنا أبو إسحاق عن حارثة عن علي بن أبي طالب قال : أصابنا من الليل طش من المطر - يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر - فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر ، وبات رسول الله ﷺ - يعني قائماً يصلي - وحرص على القتال . اهـ قال في القاموس : الطش والطشيش المطر الضعيف وهو فوق الرذاذ ، وقال الجوهري في الصحاح : يقال للترس إذا كان من جلود ليس فيه خشب ولا عقب : حجة ودرقة والجمع حَجَفٌ . اهـ وقوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوْحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرِّعْبَ فَاضْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بَأْنَهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

فإن الله شديد العقاب * ذلکم فذوقوه وأن للکافرين عذاب النار ﴿﴾ بیان لما أمر الله عز وجل به ملائکته من تأييد المؤمنین حيث أعلمهم عز وجل أنه معهم بنصره وتأييده وحيث أوصاهم أن یَقْوُوا عزم المؤمنین وأخبرهم أنه سیرْعِب قلوب الکافرين ویملؤها خوفاً وجزعا وهلعا وأمرهم أن یضربوا رؤوس المشرکین وأعناقهم وأن یضربوا منهم کل طرف ومَفْصِلٍ من أطراف أصابع أيديهم وأرجلهم جزاء لهم بسبب أنهم حاربوا الله ورسوله وعصوا أمر الله وأمر رسوله ﷺ ومن یعص الله ورسوله ﷺ فإن الله عز وجل یعاقبه عقاباً شديداً، ذلکم العذاب الذي عجلته لکم أيها الکفار فذوقوه في العاجلة وأیقنوا أنکم صائرون إلى جهنم في الآجلة .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلَّهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ، وَلِئَلَّيْهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ * إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى المؤمنين بما كانوا عليه من الحال قبل ملاقاته عدوهم يوم بدر بعد أن أيقنوا أنهم ملاقوه لا محالة ، وأنهم استغاثوا ربهم أن يمدّهم بنصر من عنده فاستجاب لهم ووعدهم على لسان رسوله ﷺ أن يمدّهم بألف من الملائكة مردفين ، وقد أراهم عز وجل آياته ، وغشاهم النعاس أمنة منه ، ونزل عليهم من السماء ماء ليطهرهم به ، ويذهب عنهم رجز الشيطان ، ويربط على قلوبهم ويثبت به أقدامهم حتى لا تسيخ في الأرض ، وأن الله تبارك وتعالى أوحى إلى الملائكة وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا ، وأخبرهم أنه سيلقي الرعب في قلوب الذين كفروا ، وحضّ الملائكة على ضرب أعناقهم وأن يضربوا منهم كلّ بَنَانٍ ، جزاء لهم على مشاققتهم لله ولرسوله ﷺ مُعَجَّلًا لهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب النار ، شرع هنا في تحريض المؤمنين على الثبات والصبر عند لقاء عدوهم ، ونهاهم عن الفرار يوم الزحف وحذرهم أشد التحذير من ذلك وتوعد من يفر يوم الزحف بأنه قد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير إلا من كان متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة من المسلمين المجاهدين ، وأكد لهم أنه عز وجل هو الذي ينصر عباده المؤمنين ، وضرب لهم مثلا بما وقع لهم في معركة بدر ليكون ماثلا

أمام أعينهم حيث تأكدوا أن الله عز وجل هو الذي قتل أعداءهم ، وانتصر للمسلمين ، وإنما الأمر بقتال أعداء الله لابتلاء المسلمين ليرفع درجاتهم عنده ، كما قال عز وجل في سورة القتال : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتَمْتَهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُو بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * ﴾ ثم وعد عز وجل المؤمنين بأنه مُوهِنُ كَيْدِ أَعْدَائِهِمْ وَأَنْتَبَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى غُرُورِهِمْ وَاسْتِمْرَارِهِمْ فِي ضَلَالِهِمْ ، ودعاهم إلى الاستجابة لله ولرسوله ﷺ حتى يسعدوا بالله عز وجل الذي يؤيد المؤمنين ويشد عضدهم ، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ * ﴾ إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ * ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر : يعني تعالى ذكره : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فِي الْقِتَالِ ﴿ زَحَفًا ﴾ يَقُولُ : مُتَزَاكِفًا بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ، وَالتَّزَاكِفُ : التَّدَانِي وَالتَّقَارُبُ ﴿ فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴾ يَقُولُ : فَلَا تُولُوهُمْ ظُهُورَكُمْ فَتَنْهَزُمُوا عَنْهُمْ ، وَلَكِنْ اثْبَتُوا لَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَعَكُمْ . اهـ فقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴾ كناية عن انهمزامهم لأن المنهزم يُحوِّل ظهره إلى جهة محاربه هرباً إلى ملجأ وموئل يفر إليه منه خوفاً على نفسه ، ويتبعه محاربه في أثره ، فَذُبُّرُ الْمَطْلُوبِ حِينَئِذٍ يَكُونُ مُحَازِيَةً وَجْهَ طَالِبِهِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا التَّعْبِيرَ غَايَةً فِي تَبْشِيعِ الْفِرَارِ يَوْمَ الزَّحْفِ وَالتَّشْنِيعِ

على من يفر. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ يَوْمَئِذٍ دَبْرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وعيد شديد لمن يفر يوم الزحف بأنه قد عَرَّضَ نفسه لغضب الله وسخطه وصيرورته إلى جهنم إلا أن يكون فراره لسبب من سببين أحدهما أن يكون فراره مكيدة يكيد بها عدوه ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه عدوه يحسب أنه هاربٌ منه فَيَكْرِهُ عليه ويقتله، فَقَصْدُهُ من فراره طَلَبُ الْغِرَّةِ ثم الْكَرَّةُ، والسبب الثاني أن يكون فراره من عدوه لينضم إلى جماعة من المؤمنين ليستعين بهم أو يعينهم على قتال عدوهم. وهذا الوعيد الذي ذكره الله عز وجل في هذا المقام يؤكد أن الفرار يوم الزحف من الكبائر، وقد عدَّه رسول الله ﷺ في السبع الموبقات، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من طريق ثور بن زيد عن أبي الغيث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله وما هنَّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات». وقوله عز وجل: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى، وَلْيُبَيِّنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يُبَيِّنُ تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم، ولهذا قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أي بل هو الذي أظفركم عليهم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلِيتِمُ مَدِيرِينَ﴾ يُعَلِّمُ تبارك وتعالى أن النصر ليس على كثرة العدد، ولا

بلبس اللأمة والعُدَد، وإنما النصر من عنده تعالى، كما قال تعالى: ﴿كَمْ مِنْ
 فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَهُ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ثم قال لنبيه ﷺ أيضا
 في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر حين
 خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته فرماهم بها قال: «شاهت
 الوجوه»، ثم أمر أصحابه أن يَصْدُقُوا الحملة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله
 تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن
 حاله، ولهذا قال تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ أي هو الذي
 بَلَغَ ذلك إليهم وَكَبَّتْهُمْ بها لا أنت. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس:
 رفع رسول الله ﷺ يديه يعني يوم بدر فقال: رب إن تهلك هذه العصابة فلن
 تعبد في الأرض أبدا، فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها في
 وجوههم، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد
 إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تُراب من تلك القبضة فولوا مدبرين. اهـ
 ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَلَيُنْزِلَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
 عَلِيمٌ﴾ * أي وليعرف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع
 كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا نعمته، ولیمحص
 الذين آمنوا ويتخذ منهم شهداء ويرفع درجاتهم في جنات النعيم، مع ما قد
 يمنحهم من النصر فإن المجاهد في سبيل الله يفوز بإحدى الحسنين إما
 النصر وإما الشهادة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ
 الْكَافِرِينَ﴾ * قال ابن كثير رحمه الله: هذه بشارة أخرى مع ما حصل من
 النصر أنه أَعْلَمَهُمْ أنه مضعف كيد الكافرين فيما يُسْتَقْبَلُ، مصغر أمرهم
 وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار والله الحمد والمنة. اهـ وقوله عز وجل: ﴿إِنْ
 تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ هذا تقرير للمشركين حيث كانوا يطلبون من
 الله النصر والفتح لأحب الفريقين إليه يوم بدر، فرأوا بأعينهم نصر الله

للمؤمنين وإعزازهم ودحر المشركين وإذلالهم ، أي إن تستنصروا الله لأحب
 الفريقين إليه فقد جاء النصر لأحب الفريقين إليه ، قال الإمام أحمد : حدثنا
 يزيد يعني ابن هارون أخبرنا محمد بن إسحاق حدثني الزهري عن عبد الله بن
 ثعلبة (يعني ابن صُعَيْر) أن أبا جهل قال حين التقى القوم : اللهم أقطعنا
 للرحم وآتانا بما لا نعرف فَأَحِنُّهُ الغداة . فكان المستفتح . وقال ابن جرير رحمه
 الله في تفسير هذه الآية : حدثني المثنى قال حدثنا أبو صالح قال : حدثني
 الليث قال : حدثني عقيل عن ابن شهاب قال : أخبرني عبد الله بن ثعلبة بن
 صُعَيْر العدوي حليف بني زهرة ، أن المستفتح يومئذ أبو جهل ، وأنه قال
 حين التقى القوم : أَيُّنَا أقطع للرحم ، وآتانا بما لا يُعْرَفُ فَأَحِنُّهُ الغداة ، فكان
 ذلك استفتاحه ، فأنزل الله في ذلك : ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾
 الآية ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا فهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي وإن تركوا أيها
 الكافرون ما أنتم عليه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله محمد ﷺ وتدخلوا في
 زمرة المؤمنين فهو خير لكم في عاجلتكم وآجلتكم ، ومعنى قوله عز وجل :
 ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾ أي وإن تستمروا على كفركم بالله ورسوله نعد بمثل هذه
 الواقعة عليكم ونؤيد رسولنا والمؤمنين كما أيدناهم في بدر ، ونؤيد عزهم
 ونصرهم ، وقد نبهت في تفسير الآية الخامسة والتسعين من سورة المائدة في
 قوله عز وجل : ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ﴾ إلى أن لفظ «عاد» قد يأتي بمعنى
 استمر ومنه قوله عز وجل : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ
 سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وإن يستمروا على كفرهم
 فقد عرفوا ما أوقع الله تبارك وتعالى بالأُمم الماضية ، فالْعُودُ يستعمل في الرجوع
 إلى الشيء كما يستعمل في الاستمرار على الشيء والمضي فيه ، وقوله عز وجل :
 ﴿وَلَنْ تَغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي ولن تفيدكم جموعكم وكثرة
 عددكم وعُدَدِكُمْ شيئاً مهما جمعتهم من الجموع وأعددتم من السلاح ، فإن

دولتكم إلى زوال ، وجموعكم إلى اضمحلال . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَأَن اللّٰهُ
مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾* أي وأن الله مع المؤمنين بنصره وتوقيه وتأيدته ، ومن كان الله
عز وجل معه فلا غالب له ، كما قال عز وجل : ﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللّٰهُ فَلَا غَالِبَ
لَكُمْ﴾* وقد كتب الله عز وجل نصر من نصره وإعزاز حزبه المؤمنين حيث
يقول تبارك وتعالى : ﴿كَتَبَ اللّٰهُ لِأَغْلِبَنَ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللّٰهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾* وكما
قال عز وجل : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَادُ﴾* .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *﴾

بعد أن حرَّص الله تبارك وتعالى المؤمنين على الثبات والصبر عند لقاء عدوهم ، ونهاهم عن الفرار يوم الزحف ، وحذرهم أشد التحذير من ذلك وأكد لهم تبارك وتعالى أنه هو الذي ينصر عباده المؤمنين ، وضرب لهم مثلاً بما وقع لهم في معركة بدر ، وأنه إنما أمر المؤمنين بقتال أعداء الله لابتلاء المسلمين ورفع درجاتهم عنده ، ووعد المؤمنين بأنه موهن كيد الكافرين ، وأنَّب المشركين على غرورهم واستمرارهم في ضلالهم ، ودعاهم إلى الاستجابة لله ولرسوله حتى يسعدوا بالله عز وجل الذي يؤيد المؤمنين ويشد عضدهم ، شرع هنا في توجيه المؤمنين إلى الحرص على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وتحذيرهم أشد التحذير من أن يغتروا بما قدَّموا من خير فيتكاسلوا في امتثال أوامر الله أو أوامر رسوله ﷺ ، ويصيروا مثل الكفرة الذين يقولون : سمعنا وعصينا ، فإن هؤلاء هم شر الدواب عند الله ، ولا يليق بمن عرف الله عز وجل أن يتشبه بهم ؛ لأنهم لا ينقادون لحق ولا يدلون على خير ، قد انطمست بصائرهم ، وانسدت مسامعهم وتعطلت آلات الإدراك عندهم ، لأن الله تبارك وتعالى قد عاقبهم بمعاصيهم فخذلهم ، فأصم آذانهم وأبكم ألسنتهم وأعمى أبصارهم ، لما علمه من استغراقهم في الشر ، ومعاداتهم للخير ، ثم نبه المؤمنين إلى أن الاستجابة لله ولرسوله ﷺ هي أهم أسباب الحياة الطيبة في

الدنيا والآخرة، ولفت انتباههم مرة أخرى إلى الحذر من الغفلة والاعتذار مبيناً لهم أن قلوبهم بيد الله يحركها كيف يشاء وأن المعاصي سبب للحرمان من الخير، ولا سيما إذا أُعْلِنَتْ دون رادع لها أو ناهٍ عنها فإنها حينئذ تجلب البلاء والعقوبة التي تعم مرتكبها وغير مرتكبها ممن لم ينه عنها، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾* إلى قوله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾* ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾* أي يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله احرصوا على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وبادروا إلى امتثال ما يأمركم به الله ورسوله ﷺ واحذروا من الوقوع في المعاصي وإياكم والإعراض عن رسول الله ﷺ والإدبار عن هديه ومخالفة أمره أو نهيهِ إذا سمعتم أمره أو نهيهِ كما قال عز وجل: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾*. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾* تحذير شديد من مخالفة أمر رسول الله ﷺ بالتنبية على أن مخالفة رسول الله ﷺ قد تسلك بالمخالفين مسلك الكافرين، قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾* قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله من أصحاب نبي الله ﷺ: لا تكونوا أيها المؤمنون في مخالفة رسول الله ﷺ كالمشركين الذين إذا سمعوا كتاب الله يتلى عليهم قالوا ﴿قد سمعنا﴾* بآذاننا ﴿وهم لا يسمعون﴾* يقول: وهم لا يعتبرون ما يسمعون بآذانهم ولا ينتفعون به، لإعراضهم عنه، وتركهم أن يُوعِظَ قلوبهم ويتدبروه، فجعلهم الله إذ لم ينتفعوا بمواعظ القرآن - وإن كانوا قد سمعوها بآذانهم - بمنزلة من لم يسمعها، يقول جل ثناؤه لأصحاب رسول الله ﷺ: لا تكونوا أنتم في

الإعراض عن أمر رسول الله ، وترك الانتهاء إليه وأنتم تسمعون به آذانكم ، كهؤلاء المشركين الذين يسمعون مواعظ كتاب الله بآذانهم ، ويقولون : ﴿ قد سمعنا ﴾ وهم عن الاستماع لها ، والاتعاظ بها معرضون كمن لا يسمعها . اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾ هذه غاية قصوى في تنفير المؤمنين من مشابهة المشركين المعرضين عن أوامر الله وأوامر رسوله محمد ﷺ حيث وصفهم الله عز وجل بأنهم شر الدواب وأنهم الصم البكم الذين لا يعقلون ، أي إن شر ما دب على الأرض من البرية عند الله عز وجل هم الصُّمُّ عن الخير البكم الذين لا يقولون الحق المحرومون من الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح ، ولذلك شبههم الله بالأنعام ووصفهم بأنهم أضل من البهائم حيث قال عز وجل : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً ، صمٌ بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ وقد قال البخاري في صحيحه : حدثنا محمد بن يوسف حدثنا ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس : ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾ قال : هم نقر من بني عبدالدار . اهـ وقد كان بنو عبدالدار هم أصحاب لواء المشركين يوم بدر ويوم أحد ، وقد قتل الله تبارك وتعالى صناديد بني عبدالدار من المشركين بأحد ، ولم يدخل في الإسلام منهم غير مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة ، وقد كان هؤلاء النفر المشركون من بني عبدالدار يتباهون ويقولون : نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد ، ولا شك في صحة خبر عبدالله بن عباس رضي الله عنهما الذي رواه البخاري في هذه الآية ، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فهي تشمل كل من أعرض عن رسول الله ﷺ ،

وتنظمهم في سلك الصم البكم الذين لا يعقلون . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون ﴾ * أي ولو علم الله منهم صدق النية في طلب الحق لأعانهم وسددهم وهداهم ووفقهم للخير حتى يصل إلى قلوبهم ، ولكنه عز وجل عَلِمَ خُبْتَ نفوسهم وفساد نياتهم ومقاصدهم وشدة عنادهم فلذلك خذلهم فمهما سمعوا من الذكر فلن يصدقوا ، ومهما رأوا من الحجج والبراهين فلن يتفجعوا بها ، وقال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر فتأويل الآية إذا : ولو علم الله في هؤلاء القائلين خيرا لأسمعهم مواعظ القرآن وعِبرته ، حتى يعقلوا عن الله عز وجل حُجَجَه منه ، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم ، وأنهم ممن كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون ، ولو أفهمهم ذلك حتى يعلموا ويفهموا لتولّوا عن الله وعن رسوله وهم معرضون عن الإيمان بما دُلُّهم على صحته مواعظُ الله وعِبرته وحُجَجُهُ ، معاندون للحق بعد العلم به . اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يُحوِّل بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾ * ترغيب في الوقوف عند حدود الله والاعتصام بحبل الله والعض على سنة رسول الله ﷺ بالنواجذ ، وترهيب شديد عن الإعراض وعدم الاستجابة لله ولرسوله ﷺ ، وتقرير لفقه الإسلام وأن الله عز وجل قد بعث رسوله ﷺ بالدين الذي لا حياة للنفوس والقلوب إلا به فأهل الإسلام المتمسكون به هم الأحياء حقا ، أما الكافرون المعرضون عن هذا الدين فهم الأموات وإن تحركت أجسامهم وتقلبوا في البلاد شرقا وغربا ، كما قال عز وجل : ﴿أَوَ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ * وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن هذه الآية تدل على وجوب المسارعة إلى رسول الله ﷺ مهما كان عليه المدعو من الأحوال فقد روى البخاري من حديث أبي سعيد بن المَعْلَى رضي الله عنه

قال : كنت أصلي فَمَرَّ بي رسولُ الله ﷺ فدعاني فلم آتِه حتى صليتُ ثم أتيته فقال : « ما منعك أن تأتيني ؟ ألم يقل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ ؟ » ثم قال : « لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج » الحديث ، وقد سقته بتمامه في تفسير سورة الفاتحة وقوله عز وجل : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ تحذير شديد من ارتكاب أسباب سخط الله ؛ لأن المعصية قد تكون سببا في سلب الإيمان ، فعلى العبد المؤمن أن يديم الضراعة لله عز وجل ليثبت على الإيمان ، لأن الله عز وجل قد يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع الثبات على الإيمان إلا بتوفيق الله وتثبيتة كما قال عز وجل : ﴿ يثبت الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ قال البخاري رحمه الله : باب ﴿ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقُلُوبِهِ ﴾ حدثنا محمد بن مقاتل أبو الحسن أخبرنا عبد الله أخبرنا موسى بن عقبة عن سالم عن عبد الله قال : كثيرا مما كان النبي يحلف : « لا ومُقَلَّبِ الْقُلُوبِ » . كما أخرج مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن قلوب بني آدم كلُّها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحدٍ يُصَرِّفُهُ حيث يشاء ، ثم قال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ » وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ : « يَا مَقْلَبَ الْقُلُوبِ ثُبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ » قال : فقلنا : يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال : « نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها » . وأخرجه البغوي في تفسيره بسند الإمام أحمد وفي آخره : « يقلبها كيف يشاء » . وفي قوله عز وجل : ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تَحْشَرُونَ ﴾ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴿ الآية تحذير للذين لا يستجيبون لله ولرسوله ﷺ من عذاب

الآجلة والعاجلة وفيه كذلك تحذير للذين لا ينهاون الناس عن المنكر، فإن المعصية إذا ظهرت ولم تنكر عمت عقوبتها من باشر ومن لم يباشر ما دام لم ينكرها، فقد روى البخاري من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلُهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرَوْا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَا خَرَقْنَا فِي نَصِينَا خَرَقًا لَمْ نَوُذْ مِنْ فَوْقِنَا؟ فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا» .

قال تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ
تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *﴾

بعد أن وجه الله تبارك وتعالى المؤمنين إلى الحرص على طاعة الله وطاعة
رسوله ﷺ وحذرهم من أن يغتروا بما قدّموا من خير فيتكاسلوا في امتثال
الأوامر واجتناب الزواجر، ويصيروا كالذين قالوا سمعنا وعصينا الذين هم
شر الدواب عند الله، ولا يليق بمن عرف الله عز وجل أن يتشبه بهم، لأن
الله تبارك وتعالى قد خذلهم، فأصمهم وأعمى أبصارهم، فانطمست
بصائرهم، ونَبَّه المؤمنين إلى أن الاستجابة لله ولرسوله ﷺ هي أهم أسباب
الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، وأكد تحذيرهم من الاغترار، وبين لهم أن
قلوب العباد بيد الله يُصرفها كيف يشاء حيث يحول بين المرء وقلبه، وَلَفَّتْ
انتباههم إلى أن المعاصي تجلب عقوبة عاجلة والآجلة، وأن المعصية إذا
ظهرت في الناس دون ناهٍ عنها أو رادع لها عمت عقوبتها من ارتكبتها ومن لم
يرتكبها ما دام لم ينه عنها، ولم يُحذَر منها، شرع هنا في تذكير المؤمنين بنعمة
الله عليهم حيث بدّل خوفهم أمنا وآواهم وأيدهم بنصره ورزقهم من
الطيبات، وحذّرهم أشد التحذير من أن يخونوا الله أو يخونوا الرسول ﷺ، أو
أن يخونوا الأمانات التي تكون بينهم، وأعلمهم أن الدنيا عرض زائل، وأنَّ ما
مَنَّ الله عز وجل به عليهم من الأموال والأولاد هو اختبار لهم، فلا يليق بهم
أن يقدموا حب أموالهم أو أولادهم على حب الله ورسوله ﷺ، وبشرهم بأن

تقوى الله تسبب لصاحبها النصر والنجاة، وتفريج الكربات، وسعادة الدنيا والآخرة، وتكفير سيئاتهم ومغفرة ذنوبهم ورغد عيشهم، وفي ذلك يقول: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم﴾ وقوله تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: وهذا تذكير من الله عز وجل أصحاب رسول الله ﷺ ومناصحة، يقول: أطيعوا الله ورسوله أيها المؤمنون، واستجيبوا له إذا دعاكم لما يحييكم، ولا تخالفوا أمره وإن أمركم بما فيه عليكم المشقة والشدة، فإن الله يهونه عليكم بطاعتكم إياه، ويُعَجِّلْ لكم منه ما تحبون، كما فعل بكم إذ آمنتم به واتبعتموه وأنتم قليل يستضعفكم الكفار فيفتنونكم عن دينكم، وينالونكم بالمكروه في أنفسكم وأعراضكم، تخافون منهم أن يَتَخَطَّفُوكُمْ فيقتلوكم ويصطلموا جميعكم، ﴿فأواكم﴾ يقول: فجعل لكم مأوى تأوون إليه منهم، ﴿وأيدكم بنصره﴾ يقول: وقواكم بنصره عليهم حتى قتلتم منهم من قتلتم ببدر ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ يقول: وأطعمكم غنيمتهم حلالا طيبا ﴿لعلكم تشكرون﴾ يقول: لكي تشكروه على ما رزقكم وأنعم به عليكم من ذلك وغيره من نعمه عندكم. اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذُلًّا، وأشقاء عيشا وأجوعه بطونا، وأعرأه جلودا، وأبينه ضلالا، من عاش منهم عاش شقيا، ومن مات منهم رُدِّي في النار يُؤْكَلُونَ ولا يأكلون،

والله ما نعلم قبيلة من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشدَّ منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام، فَمَكَّنَ به في البلاد، وَوَسَّعَ به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله . اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تحريض على النصيح لله ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم وتحذير من تضييع حقوق الله التي أنزلها في كتابه أو تضييع أوامر رسول الله ﷺ التي بيّنها في سنته أو تضييع حقوق العباد وودائعهم التي يأتمن بعضهم بعضها عليها، وقد عدَّ رسول الله ﷺ خيانة الأمانة من علامات النفاق فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث، إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان»، وقوله عز وجل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تحذير من أن يحمل حبُّ الإنسان للمال أو للولد على الخيانة لله أو لرسوله ﷺ أو للمؤمنين، فإن المال ظل زائل وعارية مستردة ومن عَصَى الله من أجل ولده يوشك أن يعاقبه الله عز وجل به ويحرمه من منافعه في الدنيا والآخرة، ومن راعى الأمانة فيما خوله الله عز وجل وتفضل عليه به من الأموال والأولاد فإن له الأجر العظيم عند الله عز وجل، فلا ينبغي للعاقل أن يحمل حبه للمال والأولاد على الخيانة، بل عليه أن يوقن أن المال والولد قد جعله الله عز وجل فتنة واختباراً في الدنيا وربما يكون الولد قد امتلأ قلبه بالعداوة لأبيه وهو لا يدري ولا يشعر كما قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدَاوَةٌ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ، وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ * إنما أموالكم وأولادكم فتنة، والله عنده أجر عظيم * فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً

لأنفسكم ، ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأُولَئِكَ هم المفلحون * ﴿١﴾ وقال عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هم الخاسرون * ﴿٢﴾ وقد نبه الله تبارك وتعالى المؤمنين إلى أنه لا ينبغي لهم أن يغتروا بزينة الحياة عن طلب الباقيات الصالحات حيث يقول عز وجل : ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا * ﴿٣﴾ كما أشار تبارك وتعالى إلى أنه يتبلى عباده بالخير والشر امتحانا واختبارا حيث يقول عز وجل : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * ﴿٤﴾ ولا شك أن هذا الأسلوب في التربية والتعليم وغرس محبة الله ومحبة رسوله ﷺ في النفوس وتربية ملكة الحفاظ على الأمانات لدى أفراد الأمة الإسلامية هو أهم دعائم المجتمع الصالح السعيد ، وأعظم أسباب الأمن والاستقرار ، ولن يؤمن أحد حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذَفَ في النار» ، وقد أكد الله تبارك وتعالى على ذلك في كتابه الكريم حيث يقول : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * ﴿٥﴾ ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * ﴿٦﴾ بشارة للمؤمنين المتقين بأن الله تبارك وتعالى جاعلٌ لهم بسبب تقواهم نورا في دنياهم يفرقون به بين الحق والباطل ، ويهتدون به إلى

الصراط المستقيم ونجاة ونصرا ومخرجا من كل كرب، ووعدهم بتكفير سيئاتهم ومغفرة ذنوبهم من فضله وجوده وإحسانه وهو تبارك وتعالى صاحب الفضل العظيم، كما قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلِينَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم ﴿فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَخَافَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ وَالْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَفَعَلَ أَوْامِرَهُ وَاجْتَنَبَ زَوَاجِرَهُ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضَيْقٍ فَرَجًا وَمِنْ كُلِّ شِدَّةٍ مَخْرَجًا وَيَسِّرَ لَهُ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغُ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴿وكما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ وصدَّق بالحسنى ﴿فَسَنِّيَسِرُهُ لِلْيَسْرَى﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴿وكما قال عز وجل: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ حدائق وأعابا ﴿وكواعب أترابا﴾ وكأسا دهاقا ﴿وكما قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ *﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل المؤمنين بنعمة الله عليهم حيث بدّل خوفهم أمناً، وأيدهم بنصره، وآواهم إلى طيبة الطيبة، ورزقهم من الطيبات، وحذرهم أشد التحذير من خيانة الله ورسوله ﷺ وخيانة الأمانات عامة، ونبههم إلى أن ما منَّ به عليهم من الأموال والأولاد هو اختبار لهم فلا يليق بهم أن يقدموا حب أموالهم وأولادهم على حب الله ورسوله ﷺ، وبشرهم بأن تقوى الله عز وجل تسبب لصاحبها النصر والنجاة وتفريج الكربات وتكفير السيئات، وتجلب رغد العيش وسعادة الدارين، شرع هنا في تذكير المؤمنين بنعمته على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين إذ نَجَّى رسول الله ﷺ من مكر كفار قريش وتدبيرهم لقتل رسول الله ﷺ أو حبسه أو نفيه، ولا شك أن هذه النعمة تعم رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وسائر المؤمنين إلى يوم القيامة، وفي هذا التذكير بهذه النعمة العظيمة يقول الله عز وجل : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ والمراد بالذين كفروا هنا هم كفار قريش الذين اجتمعوا وتشاوروا في دار الندوة بمكة للقضاء على رسول الله ﷺ، وكان كفار قريش قد أصابهم الرعب والانزعاج عندما تمت بيعة الأنصار الثانية لرسول الله ﷺ عند العقبة، وظهر الإسلام بالمدينة المنورة، وأذن رسول الله ﷺ لبعض المؤمنين بالهجرة إلى المدينة، وأيقن كفار قريش أن محمداً ﷺ قد صار له أنصار وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من مكة إلى المدينة وعرفوا أنهم نزلوا داراً يحب أهلها من هاجر إليهم وقد صارت لهم بها منعة، وأيقنوا أن رسول الله ﷺ سيلحق بأصحابه رضي الله عنهم، فاجتمع

أشراف قريش في دار الندوة بمكة ليتشاوروا ويأتمروا في أمر رسول الله ﷺ، وماذا يصنعون به؟ وكانت دار الندوة لقصي بن كلاب، وكانت قريش لا تقضي أمرا ذا شأن إلا بها، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب»، كما روى البخاري في صحيحه من حديث الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال - وهو يومئذ بمكة - للمسلمين: «إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين»، قالت: فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك، فإني أرجو أن يؤذَنَ لي»، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه. اهـ وقد كان في أوائل المهاجرين إلى المدينة المنورة مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وبلال وسعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر وعمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي رضي الله عنهم، فقد روى البخاري في صحيحه من طريق أبي إسحاق سمع البراء رضي الله عنه قال: أَوَّلُ من قدم علينا مصعب ابن عمير وابن أم مكتوم، ثم قدم علينا عمار بن ياسر وبلال رضي الله عنهم، وفي رواية للبخاري من طريق أبي إسحاق: سمعت البراء رضي الله عنه قال: أَوَّلُ من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فكانا يقرئان الناس، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ. اهـ ثم تتابع المهاجرون رضي الله عنهم، فلما رأت قريش خروج أصحاب رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، وأيقنوا

أنه ﷺ سيلحق بأصحابه رضي الله عنهم، اجتمع أشراف قريش في دار الندوة للبحث عن وسيلة يتمكنون بها من القضاء على رسول الله ﷺ، قال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر أخبرني عثمان الجزري أن مقسماً مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأوثقوه بالوثاق يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله نبيه على ذلك، فبات عليّ على فراش النبي ﷺ تلك الليلة، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا عليه، فلما رأوا علياً ردّ الله عليهم مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ فقال: لا أدري، فاقتفوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال. قال ابن كثير رحمه الله في السيرة النبوية بعد سياق هذا الحديث: وهذا إسناد حسن، وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله رسوله ﷺ. اهـ وكذلك حسن الحافظ ابن حجر إسناد هذا الحديث، وقد جعل الله تبارك وتعالى في هجرة رسول الله ﷺ آيات بينات، فقد روى البخاري ومسلم والترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال أبو بكر: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار على رءوسنا، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه. فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» اهـ وكان رسول الله ﷺ قد توجه قبل خروجه من مكة إلى دار أبي بكر رضي الله عنه، واصطحبه معه إلى غار ثور، فقد روى البخاري من طريق ابن شهاب قال: قال عروة: قالت عائشة رضي الله عنها: فبينما نحن

يوما جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مُتَقَنَّعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فِدَى له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمرٌ، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل، فقال النبي ﷺ: «أُخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ»، فقال أبو بكر: إنما هم أهلُك بأبي أنت يا رسول الله قال: «فإني قد أذن لي في الخروج»، قال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال أبو بكر: فخذ - بأبي أنت يا رسول الله - إحدى راحلتَي هاتين، فقال رسول الله ﷺ: «بالتَّمن»، قالت: فجهزناهما أحثَّ الجَهاز، ووضعنا لهما سُفْرَةَ في جِراب، قطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين، قال: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال. الحديث. وفي اختيار غار ثور للاكتنان من المشركين سياسة نبوية، إذ أن أول ما ينصرف وهُلُّ المشركين للبحث عن رسول الله ﷺ هو طلبه في شمال مكة لا في جنوبها، ليقينهم أنه إذا خرج من مكة فستكون وَجْهَتُهُ المدينة، وغار ثور يقع في جنوبي مكة، على طريق المسافر إلى اليمن، وقد نَصَّ الله تبارك وتعالى على صحبة أبي بكر رضي الله عنه لرسوله وحببه محمد ﷺ، وأشار إلى قول رسول الله ﷺ لأبي بكر وهو معه في الغار: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» حيث يقول: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *﴾ قال الإمام البغوي في تفسير هذه الآية: قال الحسين بن الفضل: من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر لإنكاره نص القرآن، وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعا لا كافرا. اهـ ومعنى

قوله عز وجل : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وإذ يكيد لك مشركو قريش ويدبرون للقضاء عليك ويبدلون ما يقدرون عليه ضدك من المكر السيئ ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي ليوثقوك ويحبسوك ويسجنوك ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ أي أو لينفوك من مكة . ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي ويدبرون تدبيرهم السيئ والله يدبر لإعزازك وإذلالهم ، والله تبارك وتعالى خير المدبّرين ، وكيدته هو الكيد المتين ، وقد حاق بالمشركين مكرهم السيئ كما قال عز وجل : ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ وكما قال عز وجل في قصة تآمر قوم صالح عليه : ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ﴾ قالوا تقاسموا بالله لَنُبَيِّنَنَّ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لَوْلِيهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكُ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أَنَا دمرناهم وقومهم أجمعين * وقد جاء في سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه : «رب أعني ولا تُعِنْ عَلَيَّ ، وانصُرني ولا تنصر عَلَيَّ ، وامكر لي ولا تمكر عَلَيَّ» . الحديث .

قال تعالى : ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ * وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ، إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * ﴿

بعد أن ذكر الله عز وجل المؤمنين بنعمته على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين إذ نجَّى رسول الله ﷺ من كيد كفار قريش ومكرهم السيئ وتدبيرهم لقتل رسول الله ﷺ أو حبسه أو نفيه وسلَّمه حتى تمكن من الهجرة إلى المدينة المنورة ، وهي نعمة تُعْمُ رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وسائر المؤمنين إلى يوم القيامة ، شرَّع هنا في توبيخ كفار قريش والتنديد بعتوهم وعنادهم وافترائهم وسفاهة عقولهم وتحجر أفئدتهم ، وغرورهم ، حيث زعم بعض رؤسائهم أنه يستطيع أن يقول كلاما مثل هذا القرآن ، وَوَصَفَ الْقُرْآنَ بأنه أساطير الأولين ، مع أنهم موقنون في قرارة نفوسهم أنهم لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، فقد تحداهم الله أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله ولم يُؤْتَرْ أن واحدا منهم حاول ذلك ألبتة ، كما بيَّن عز وجل هنا صورا من آرائهم المتكسة وأعمالهم المرتكسة حيث كانوا يقولون : ﴿اللهم إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولو كان لديهم أدنى مسكة من عقل لقالوا : اللهم إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاهْدِنَا للإيمان به والاستجابة للرسول ﷺ ، لكنهم لانتكاس عقولهم ورجس أنفسهم وشدة بغضهم لرسول الله ﷺ

فَضَّلُوا أَنْ يُمَطَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِنْ كَانَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، كَمَا بَيَّنَّ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُمْ مُسْتَوْجِبُونَ لِعَذَابِ اللَّهِ لَكِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ اقْتَضَتْ حُكْمَتُهُ أَنْ لَا يَسْتَأْصِلَ قَوْمَ رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، لَعَلَّمَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُمْ سَيَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَكَانَ مِنْ رَحْمَتِهِ أَنْ لَا يَأْخُذَ جَمْلَتَهُمْ بِدَعَاءِ سَفَهَائِهِمْ وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ دَعَاوُا بِهَذَا الدَّعَاءِ قَدْ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ بَدْرَ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ وَشَفَى صُدُورَهُمْ وَأَذْهَبَ غِيظَ قُلُوبِهِمْ ، كَمَا بَيَّنَّ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَلَمْ تَكُنْ صَلَاتُهُمْ عِنْدَهُ إِلَّا مَكَاءً وَتَصَدِيَّةً ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَتَصَدِيَّةً ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وَمَعْنَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيَّ وَإِذَا سَمِعُوا آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِمْ اسْتَهْزَءُوا وَقَالُوا قَدْ سَمِعْنَاهَا وَنَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهَا إِذَا اشْتَهَيْنَا ذَلِكَ وَرَغَبْنَا فِيهِ لِأَنَّ هَذَا الْكَلَامَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ قَدْ اكْتَتَبَهَا مُحَمَّدٌ وَنَحْنُ لَا نَعْجِزُ عَنْ مُحَاكَاتِهَا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وَقَدْ ذَكَرْتُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الثَّالِثَةِ وَالْعِشْرِينَ وَالرَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ

والحجارة أعدت للكافرين ﴿١﴾ أنه لم ينقل عن أحد من العرب أنه حاول معارضة القرآن غير ما جاء عن مسيلمة من الهراء ؛ فقد أثر عن عمرو بن العاص أنه كان صديقا لمسيلمة الكذاب فاجتمع به مرة ، وقال له : يا مسيلمة ماذا نزل عليك من القرآن ؟ فقال مسيلمة : يا ضفدع يا ضفدعين نَقِّي كم تنقين ، نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يجهلون ، فضحك عمرو بن العاص وقال له : والله إني أعلم أنك تعلم أنك كاذب . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قد ثبت في صحيحي البخاري ومسلم أن أبا جهل لعنه الله هو الذي طلب من الله أن يمطر عليهم حجارة من السماء أو أن يأتيهم بعذاب أليم إن كان الذي جاء به محمد هو الحق من عند الله ولا شك أن أبا جهل هو رأس السفهاء الذين انحطوا إلى هذا الدرك الأسفل من سوء الرأي وفساد الفكر ، قال البخاري في صحيحه : باب قوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قال ابن عيينة : ما سمى الله تعالى مطرا في القرآن إلا عذابا ، وتسميه العرب الغيث وهو قوله تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ حدثني أحمد حدثنا عبيد الله بن معاذ حدثنا أبي حدثنا شعبة عن عبد الحميد هو ابن كُرْدِيدٍ صاحب الزيادي سمع أنس بن مالك رضي الله عنه : قال أبو جهل : اللهم إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . فنزلت ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ * وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴿ الآية باب قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ * حدثنا محمد بن النضر حدثنا عبيد الله بن معاذ

حدثنا أبي حدثنا شعبة عن عبد الحميد صاحب الزيادي سمع أنس بن مالك قال : قال أبو جهل : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، فنزلت : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ * وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ الآية . وقال مسلم في صحيحه : حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري حدثنا أبي حدثنا شعبة عن عبد الحميد الزيادي أنه سمع أنس بن مالك يقول : قال أبو جهل : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، فنزلت : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ * وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ إلى آخر الآية . اهـ وإسناد هذا القول لأبي جهل مع أنه في الآية للعموم لرضاهم بقوله ومواطاتهم له فيه ، وهذا شبيه بقوله تعالى في عقر ناقة صالح : ﴿ فعقروها ﴾ مع أن أشقى ثمود هو الذي تولى ذلك لكنهم راضون بفعله . وقد كان عدو الله فرعون هذه الأمة أبو جهل بين من أهلكهم الله من صناديد قريش يوم بدر ، هذا وقول ابن عيينة الذي ذكره البخاري : ما سمى الله مطرا في القرآن إلا عذابا وتسميه العرب الغيث قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح هذه الترجمة : كذا في تفسير ابن عيينة رواية سعيد بن عبد الرحمن المخزومي عنه قال : ويقول ناس ما سمى الله المطر في القرآن إلا عذابا ولكن تسميه العرب الغيث ، يريد قوله تعالى : ﴿ وهو الذي يُنَزِّلُ الغيث ﴾ كذا وقع في تفسير حم عسق ، وقد تُعْقِبُ كلام ابن عيينة بورود المطر بمعنى الغيث في القرآن في قوله تعالى : ﴿ إن كان بكم أذى من مطر ﴾ فالمراد به هنا الغيث قطعا اهـ وقال ابن جرير الطبري : القول في تأويل قوله : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ * قال أبو جعفر :

يقول تعالى ذكره: واذكر يا محمد أيضا ما حلَّ بمن قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم إذ مكرت بهم فأتيتهم بعذاب أليم وكان ذلك العذاب قتلهم بالسيف يوم بدر اهـ ولا شك أن قوله تبارك وتعالى: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ من أعظم أبواب الترغيب في الاستغفار وأنه يدفع عن المستغفرين عقوبة الله، ومن لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق فرجا ومن كل شدة مخرجا. وقوله عز وجل: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ * بيان لاستحقاق كفار قريش لعقوبة الله بسبب صدهم عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه، وتحكمهم في شئونه مع أنهم ليسوا أهلا لولاية المسجد الحرام، لشركهم برب البيت ونصبهم للأصنام حول الكعبة، وإنما أولياء البيت المؤمنون المتبعون لملة إبراهيم إمام الحنفاء، باني البيت الحرام، الذين يتقون ربهم، وينقادون لشيخ المرسلين محمد ﷺ، فهم أولى الناس وأحقهم بالمسجد الحرام لأنهم هم الذين يعرفون حرمة، وهم أهله، كما قال عز وجل: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون﴾ * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين * ثم بين عز وجل أن صلاة هؤلاء المشركين عند البيت الحرام هي لعب وهو حيث يقول عز وجل: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ أي وما كانت صلاة هؤلاء المشركين عند البيت الحرام إلا صفيرا بأفواههم وتصفيقا بأيديهم، لا يذكرون الله، ولا يعرفون مراسيم عبادته وطاعته، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: وأما قوله: ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم

تَكْفُرُونَ ﴿ فَإِنَّهُ يَعْنِي الْعَذَابَ الَّذِي وَعَدَهُمْ بِهِ بِالسَّيْفِ يَوْمَ بَدْرٍ ، يَقُولُ
لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا : ﴿ اَللّٰهُمَّ اِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاَمْطِرْ عَلَيْنَا
حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ الْآيَةَ حِينَ اَتَاهُمْ بِهَا اسْتَعْجَلُوهُ مِنَ الْعَذَابِ ﴿ ذُوقُوا ﴾ اَيُّ
اَطْعَمُوا ، وَلَيْسَ بِذُوقٍ فَمٍ ، وَلَكِنَّهُ ذُوقٌ بِالْحَسِّ وَوُجُودِ طَعْمِ اَلَمٍ بِالْقُلُوبِ ،
يَقُولُ لَهُمْ : فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَجْحَدُونَ اَنْ اَللّٰهُ مُعَذِّبُكُمْ بِهِ عَلٰى جُحُودِكُمْ
تَوْحِيدَ رَبِّكُمْ وَرِسَالَاتِ نَبِيِّكُمْ ﷺ . اِهـ .

قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَسَيُفْقَهُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، فَإِنْ انْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ، نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

بعد أن وَبَّخَ الله تبارك وتعالى كفار قريش وَنَدَّدَ بعتوهم وعنادهم وافتراءهم وسفاهة عقولهم وتحجر أفئدتهم وغرورهم حيث زعم بعض رؤسائهم أنه يستطيع أن يأتي بمثل القرآن وَوَصَفَ هذا السفية القرآن بأنه أساطير الأولين مع أنهم كانوا موقنين في قرارة نفوسهم أنهم لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، كما فضح الحق تبارك وتعالى هؤلاء المشركين وَعَرَضَ صورا من آرائهم المنتكسة وأعمالهم المرتكسة حيث سَجَّلَ عليهم مقالتهم البشعة الشنيعة حيث كانوا يقولون : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم إذ لو كان لديهم أدنى مسكة من عقل لقالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا للإيمان به ، وَبَيَّنَّ عز وجل أنهم مستوجبون لعذاب الله لكنه تبارك وتعالى اقتضت حكمته أن لا يستأصل قوم رسول الله محمد ﷺ لعلمه تبارك وتعالى أنهم سيدخلون في دين الله أفواجا فكان من رحمته أن لا يأخذ جملتهم بدعاء سفهائهم ومع ذلك فإن الذين دعوا بهذا الدعاء قد أهلكهم الله عز وجل يوم بدر، وبعد أن بَيَّنَّ أن صلاتهم عند البيت لم تكن إلا مكاء وتصدية وأن جزاء الكافرين النار،

أعلن عز وجل هنا أن الكافرين مهما بذلوا من أموال للصد عن سبيل الله فلن يحصلوا إلا على الخيبة ولن يحصلوا من ثمار بذلهم إلا الغم والهم والحسرة والندامة ولن يتمكنوا من إطفاء نور الله ، وهم سيُهزمون ويُقهرُونَ ويُدَحْرُونَ ، ومصيرهم إلى النار إن ماتوا على كفرهم ، وقد قضى الله عز وجل أن تكون راية الحق ظاهرة منصوراً وراية الباطل مخذولة مدحورة ، ثم رغب الله عز وجل هؤلاء الكافرين في المسارعة إلى الإيمان لينالوا عفو الله ومغفرته ، وحذرهم من الاستمرار على الكفر حتى لا يستوجبوا غضب الله وعقوبته التي أحلها بأعدائه الغابرين ، ثم أمر المؤمنين بقتال الكافرين حتى تنطفئ نار فتنهم ويظهر دين الله على الدين كله ، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، فَسَيَنْفَقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فاعلموا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ، نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي إن هؤلاء المكذبين من قريش وغيرهم يبذلون أموالهم ليحاولوا إطفاء نور الله ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ فَسَيَنْفَقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ أي فَسَيَبْذُلُونَ أَمْوَالَهُمْ فَتَذْهَبُ سُدًى وَتَرْجِعُ عَلَيْهِم بِالْخِزْيِ وَالْحَسْرَةِ والندامة والهم والغم حيث لا يظفرون بما يأملون ، فمن عاش منهم عاش محروباً مسلوباً ، مقهوراً مغلوباً ، ومن هلك منهم على كفره فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي حيث مأواه جهنم وبئس المصير . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : وقوله تعالى : ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ فيميز أهل

السعادة من أهل الشقاء، وقال السدى : يميز المؤمن من الكافر، وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة، كقوله : ﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاءكم، فزيلنا بينهم﴾ الآية، وقوله ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾ وقال في الآية الأخرى : ﴿يومئذ يصدّعون﴾ وقال تعالى : ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وتكون اللام معللة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه في الصد عن سبيل الله، أي إنما أقدرناهم على ذلك ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ أي من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين أو يعصيه بالنكول عن ذلك، كقوله : ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا، وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾ الآية، وقال تعالى : ﴿ما كان الله ليزر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ الآية، وقال تعالى : ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ ونظيرتها في براءة أيضا، فمعنى الآية على هذا : إنا ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه﴾ أي يجمعه كله، وهو جمع الشيء بعضه على بعض كما قال تعالى في السحاب ﴿ثم يجعله ركاما﴾ أي متراكما متراكبا ﴿فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾ أي هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة. اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين﴾ ترغيب وترهيب أي رغب يا محمد هؤلاء الكافرين في الدخول في الإسلام وأخبرهم أنهم إن أنابوا إلى ربهم وأسلموا له غفر لهم ما مضى من كفرهم ومعاصيهم التي ارتكبوها قبل الإسلام، وتجاوز لهم عما

مضى من قبائح أعمالهم ، وحذّرهم من الاستمرار على الكفر ، وأخبرهم أنهم إن يستمروا على كفرهم ننتقم منهم كما مضت سنتنا في الأمم الغابرة التي أهلكناها لما كذبت المرسلين ، وقد أضيفت السنة إليهم لأنها واقعة عليهم ، وهي سنة الله فيهم ، وهذه الآية صريحة في أن الإسلام يهدم ما كان قبله من المعاصي ، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت : ابسط يمينك فلأبأبعك ، فبسط يمينه ، قال : فقبضت يدي ، قال : «مالك يا عمرو ؟» قال : قلت : أردت أن أشتري ، قال : «تشتري بماذا ؟» قلت : أن يُغفر لي ، قال : «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله» . الحديث . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ أي وقاتلوا أيها المسلمون من كفر بالله حتى تلعو كلمة الله وتنقطع فتنة الشرك بالله ، ويكون أمر الله مطاعا مقدما على أمر غيره ، ويتمكن المسلم من إظهار دينه دون أن تصيبه فتنة وتكون العبادة والطاعة كلها لله خالصة له دون سواه . قال البخاري في صحيحه : باب قوله : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ حدثنا الحسن بن عبدالعزيز حدثنا عبدالله بن يحيى حدثنا حيوة عن بكر بن عمرو عن بُكير عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلا جاء فقال : يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه : ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ إلى آخر الآية ، فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه ؟ فقال : يا ابن أخي ، أغتر بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلي من أن أغتر بهذه الآية التي يقول الله تعالى : ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا﴾ إلى آخرها . قال : فإن الله يقول : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال ابن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلا ، فكان الرجل يُفْتَنُ في

دينه : إِمَّا يَقْتُلُونَهُ وَإِمَّا يُؤَثِّقُونَهُ ، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة ، فلما رأى أنه لا يوافق فيه ما يريد قال : فما قولك في علي وعثمان ؟ قال ابن عمر : ما قولي في علي وعثمان ؟ أما عثمانُ فكان الله قد عفا عنه ، فكرهتم أن يعفو الله عنه ، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وَخَتَنَهُ ، وأشار بيده وهذه ابنته أو بيته حيث ترون . اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ * وإن تولَّوْا فاعلموا أن الله مولاكم ، نعم المولى ونعم النصير * ﴿ أَيِ فَإِنْ ثَابَ هَؤُلَاءِ إِلَى الرُّشْدِ وَأَعْلَنُوا أَنَّهُمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ قَوْلَهُمْ وَأَمْسَكُوا عَنْ قِتَالِهِمْ ، فَإِنْ قَوْلُهُمْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَعَصِمُ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحَسَابِهِمْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ وَهُوَ بَصِيرٌ بِأَعْمَالِهِمْ وَأَعْمَالُ سَائِرِ عِبَادِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَنْ كُفْرِهِمْ وَفَتَنَتِهِمْ وَأَدْبَرُوا عَمَّا دَعَوْتُهُمْ إِلَيْهِ وَأَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَقَاتَلَكُمْ فَقَاتِلُوهُمْ وَأَيُّقِنُوا بِنَصْرِ اللَّهِ لَكُمْ لَأَنَّهُ مَوْلَاكُمْ يَعِينُكُمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ نِعَمَ الْمَعِينِ لِأَوْلِيَائِهِ وَنِعَمَ النَّاصِرِ لَهُمْ ، وَقَدْ أَكَّدَ الْإِسْلَامَ وَجُوبَ الْكُفْرِ عَنْ مَنْ أَعْلَنَ أَنَّهُ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ حَيْثُ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذَوْهُمْ وَأَخْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ * وقال عز وجل : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ * وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحَسَابِهِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى . » واشترط إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إنما هو فيمن أسلم ووجبت عليه الصلاة والزكاة أما من أعلن في

المعركة أنه دخل في الإسلام فإن يجب الكف عنه فوراً ولا يُقاتل بعد أن قال لا إله إلا الله فقد روى البخاري ومسلم من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : قلت لرسول الله ﷺ : أ رأيت إن لقيت رجلاً من الكفار ف ضرب إحدى يديّ بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة فقال : أسلمتُ الله : أأقتله يا رسول الله بعد أن قالها ؟ فقال : « لا تقتله » ، فقلت : يا رسول الله قطع إحدى يديّ ثم قال ذلك بعدما قطعها ، فقال : « لا تقتله » ، فإن قتلته فإنه بمنزلك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال . كما روى البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلى الحُرَّة من جهينة ، فَصَبَّخْنَا القوم على مياههم ، وَلَحِقْتُ أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم ، فلما غَشِينَاهُ قال لا إله إلا الله ، فكف عنه الأنصاري وطعنته برمحى حتى قتله فلما قدمنا المدينة بلغ ذلك النبي ﷺ فقال لي : « يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ » قلت : يا رسول الله إنما كان متعوذاً فقال : « أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟ » فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم ، وفي رواية : « أقال لا إله الله وقتلته ؟ » قلت : يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح قال : « أفلا شققت عن قلبه » . الحديث . وهذا من براهين كمال الدين وتيسيره .

وقد تم تفسير الجزء التاسع من القرآن العظيم ونسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم . وكان الفراغ منه بمنزلنا بالرياض ليلة الأربعاء الموافق لليوم الثاني من شهر ذي الحجة للعام الثاني عشر بعد الأربعمائة والألف من الهجرة النبوية . سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

الفهرس

الصفحة

الموضوع

- تفسير قوله: «وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة» الآيات الست ... ٣
- تفسير قوله تعالى: «وحاجّه قومه» الآيات الأربع ٨
- تفسير قوله تعالى: «ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا» الآيات الست ... ١٣
- تفسير قوله تعالى: «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده» الآيتين ١٩
- تفسير قوله تعالى: «وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها» الآيات الثلاث ٢٥
- تفسير قوله تعالى: «وجعلوا الله شركاء الجن وخلقهم» الآيات الأربع ٣٧
- تفسير قوله تعالى: «قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه» الآيات الخمس ٤٣
- تفسير قوله تعالى: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها» الآيتين ٤٩
- تفسير قوله تعالى: «ولو أنزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى» الآيات الخمس ٥٥
- تفسير قوله تعالى: «وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله» الآيات الست ٦١
- تفسير قوله تعالى: «أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي في الناس» الآيات الخمس ٦٧
- تفسير قوله تعالى: «لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم» الآيات الست ٧٣
- تفسير قوله تعالى: «وربك الغني ذو الرحم» الآيات الثلاث ٧٩
- تفسير قوله تعالى: «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً» الآيات الخمس ٨٥

- تفسير قوله تعالى: «وهو الذي أنشأ جنات معروشات» الآيتين ٩١
- تفسير قوله تعالى: «ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين» الآيات
الثلاث ٩٧
- تفسير قوله تعالى: «وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر» الآيات الأربع .. ١٠٣
- تفسير قوله تعالى: «ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً
لكل شيء» الآيات الأربع ١١٥
- تفسير قوله تعالى: «هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة» الآيات الثلاث ١٢١
- تفسير قوله تعالى: «قل إنني هاداني ربي إلى صراط مستقيم» إلى آخر سورة
الأنعام ١٢٧
- تفسير سورة الأعراف** ١٣٣
- تفسير قوله تعالى: «الْمَصَّ * كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه»
إلخ الآية الخامسة من السورة ١٣٥
- تفسير قوله تعالى: «فلنسألن الذين أرسل إليهم» الآيات الأربع ١٤١
- تفسير قوله تعالى: «ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش» الآيات
التسع ١٤٧
- تفسير قوله تعالى: «ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة» الآيات السبع ١٥٣
- تفسير قوله تعالى: «يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً» الآيات الخمس ١٥٩
- تفسير قوله تعالى: «يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد» الآيات الأربع .. ١٦٥
- تفسير قوله تعالى: «يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن
اتقى وأصلح» الآيات الخمس ١٧٢
- تفسير قوله تعالى: «إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب
السماء» الآيات الأربع ١٧٨
- تفسير قوله تعالى: «ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما
وعدنا ربنا حقاً» الآيات الثمان ١٨٤
- تفسير قوله تعالى: «ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم» الآيات الثلاث .. ١٩٠
- تفسير قوله تعالى: «ادعوا ربكم تضرعاً وخفية» الآيات الأربع ١٩٦

- تفسير قوله تعالى: «لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» الآيات الست ٢٠٢
- تفسير قوله تعالى: «وإلى عاد أخاهم هودا» الآيات الثمان ٢٠٨
- تفسير قوله تعالى: «وإلى ثمود أخاهم صالحا» الآيات السبع ٢١٤
- تفسير قوله تعالى: «ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة» الآيات الخمس ... ٢٢٠
- تفسير قوله تعالى: «وإلى مدين أخاهم شعيباً» الآيات الثلاث ٢٢٦
- تفسير قوله تعالى: «قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب» الآيات الست ٢٣٢
- تفسير قوله تعالى: «وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء» الآيات التسع ٢٣٨
- تفسير قوله تعالى: «ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها» الآيات الأربع عشرة ٢٤٤
- تفسير قوله تعالى: «وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك» الآيات العشر ٢٥١
- تفسير قوله تعالى: «وقال الملأ من قوم فرعون أئذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض» الآيات الخمس ٢٥٧
- تفسير قوله تعالى: «وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها» الآيات الست .. ٢٦٣
- تفسير قوله تعالى: «وجاوزنا ببني إسرائيل البحر» الآيات الأربع ٢٦٩
- تفسير قوله تعالى: «وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر» الآيات الثلاث ٢٧٥
- تفسير قوله تعالى: «وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء» الآيات الخمس ٢٨١
- تفسير قوله تعالى: «ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا» الآيات الست . ٢٨٦
- تفسير قوله تعالى: «وأكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة» الآيتين ٢٩٢
- تفسير قوله تعالى: «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً» الآيتين ... ٢٩٨
- تفسير قوله تعالى: «وقطعناهم اثنتي عشر أسباطاً أمماً» الآيات الثلاث ٣٠٣
- تفسير قوله تعالى: «واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر» الآيات الست ٣٠٩

- تفسير قوله تعالى: «فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب» الآيات الثلاث .. ٣١٥
- تفسير قوله تعالى: «وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم» الآيات الست ٣٢١
- تفسير قوله تعالى: «من يهد الله فهو المهتدي» الآيات الثلاث ٣٢٧
- تفسير قوله تعالى: «وممن خلقناه أمة يهدون بالحق» الآيات الثمان ٣٣٣
- تفسير قوله تعالى: «هو الذي خلقكم من نفس واحدة» الآيات الثمان ٣٤٠
- تفسير قوله تعالى: «والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم» الآيات الخمس ٣٤٧
- تفسير قوله تعالى: «وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون» إلى آخر سورة الأعراف ٣٥٣
- تفسير سورة الأنفال** ٣٥٩
- تفسير قوله تعالى: «يسألونك عن الأنفال» الآية ٣٦١
- تفسير قوله تعالى: «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم» الآيات الثلاث ٣٦٧
- تفسير قوله تعالى: «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق» الآيات الأربع ٣٧٣
- تفسير قوله تعالى: «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم» الآيات الست ٣٧٩
- تفسير قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً» الآيات الخمس ٣٨٥
- تفسير قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه» الآيات الست ٣٩١
- تفسير قوله تعالى: «واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض» الآيات الأربع ٣٩٧
- تفسير قوله تعالى: «وإذ يمكر بك الذين كفروا» الآية ٤٠٢
- تفسير قوله تعالى: «وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا» الآيات الخمس .. ٤٠٧
- تفسير قوله تعالى: «إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله» الآيات الخمس ٤١٣